الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جيسيكا برودر

JESSICA BRUDER

أرضُ الرُّحَّل

ما بقي من أميركا في القرن الحادي والعشرين

NOMADLAND

Surviving America in the Twenty-First Century

تحوّل إلى فيلم سينمائي

أرضُ الرُّحَّل

ما بقي من أميركا في القرن الحادي والعشرين

جيسيكا برودر
JESSICA BRUDER

أرضُ الرُّحَّل
ما بقي من أميركا في القرن الحادي والعشرين

NOMADLAND
Surviving America in the Twenty-First Century

تعريب:
ماجد حامد

مراجعة:
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

NOMADLAND

SURVIVING AMERICA IN THE TWENTY- FIRST CENTURY

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلفة

Jessica Bruder, c/o The Joy Harris Literary Agency, Inc., Broadway, #2605, New York, NY 10036 1501

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون

Copyright © 2017 by Jessica Bruder,
By arrangement with the author.

All right reserved. No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrival system, without permission in writing from the Publisher.

All rights reserved

Arabic Copyright © 2021 by Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2022 م – 1443 ه

ردمك 978-614-02-6783-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ – داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

المحتويات

مقدمة 9

القسم الأول

الفصل الأول :سكويز إن 15

الفصل الثاني :النهاية 47

الفصل الثالث :البقاء على قيد الحياة في أميركا 61

الفصل الرابع :خطة الهروب 97

القسم الثاني

الفصل الخامس :أمازون تاون 129

الفصل السادس :المحفل 157

الفصل السابع :ملتقى ساكني العربات 183

الفصل الثامن :هالين 219

الفصل التاسع :بعض التجارب لا تقبل النقاش 243

القسم الثالث

الفصل العاشر :الكلمة إتش 263

الفصل الحادي عشر :العودة إلى الديار 271

الخاتمة :الأخطبوط في جوز الهند 317

«لا بد من وجود صدع في كل شيء، فهذه هي الطريقة التي ينفذ من خلالها الضوء».

–ليونارد كوهن

«لا يريد الرأسماليون لأي شخص أن يعيش خارج شبكتهم الاقتصادية».

–قائد مجهول
AZDAILYSUN.COM

مقدمة

في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، إنهم ينتشرون في جميع أنحاء البلاد...

في درايتون، شمال داكوتا، يجاهد سائق سيارة أجرة سابق من سان فرانسيسكو، يبلغ من العمر سبعة وستين عاماً، في حصاد الشمندر السكريِّ السنوي. إنه يعمل من شروق الشمس حتى مغيبها في درجات حرارة تنخفضُ إلى ما دون درجة التجمّد، ويساعدُ أصحاب الشاحنات التي تجتازُ الحقول محمّلةً بالعديد من أطنانِ الشمندر، وعندما يحلُّ الظلام يأوي إلى عربته المغلقة، التي غدت منزله، منذ أن أخرجته شركة أوبر من صناعة سيارات الأجرة، لأنّ العمل أصبح مستحيلاً.

في كامبلسيفل، كنتاكي، متعهدةُ بناء سابقة تبلغ من العمر ستة وستين عاماً، تخزن البضائع أثناءَ وردية عملها الليلية في مستودع أمازون، وتدفعُ بعربةٍ ذات عجلات عدة أميال على طول الأرضية الإسمنتية. إنها تكافحُ في مسح كلِّ الأغراض، وتأمل في ألا تُطرد من عملها، وتعود في الصباح إلى مقطورتها الصغيرة المركونة في واحدة من حدائق المنازل المتنقلة، التي تعاقدت معها أمازون لإيواء العمال الرحّل من أمثالها.

في نيوبيرن، شمال كارولينا، بيتٌ على شكل مقطورة صغيرةٍ يمكن جرّها بدراجةٍ نارية، لسيدةٍ تبحثُ عن عمل برفقة صديق لها. لم تستطع المرأة

من نبراسكا والتي تبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً والحاصلة على الماجستير أن تجد عملاً. رغم أنها ملأت مئات الاستمارات في الشهر الماضي وحده. إنها تعرفُ أن هناك فرصة عمل في حقول الشمندر السكري، لكنَّ السفر يتطلبُ مالاً أكثرَ مما بحوزتها. لقد فقدت عملها في مؤسسة غير ربحية بعد أن أمضت فيه عدة سنوات نظراً لغياب المخصّصاتِ المالية لمنصبها، فوجدت نفسها عاجزة عن سداد قرض الدراسة ودفع إيجار المنزل في الوقت نفسه.

في سان ماركوس، كاليفورنيا، زوجان تزيد أعمارهما على الثلاثين عاماً يقيمان في منزل متنقل من طراز جي أم سي 1975. إنهما يديران كشكاً يبيع اليقطين للأطفال في الكرنفال في حديقةَ حيوانات أليفة، أنشآها في ساحة شاغرة ومتربة في غضون خمسة أيام، ثم سيتحولان إلى بيع أشجار عيد الميلاد في غضون أسابيعَ قليلة.

في سبرينغ كولورادو، بولاية كولورادو، سائقُ سيارة من نوع (فان) يبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً كُسرت ثلاثة من أضلاعهِ أثناء قيامهِ بعمله في صيانة المخيّم. ثم أخذ يتعافى أثناء زيارة أُسرته.

***

على مدار السنوات الماضية وفي شتى الأرجاء كان هناك نفوسٌ مضطربة وأرواحٌ حائرة والكثيرُ من المشردين التائهين، وفي الألفية الثالثة نشأ نوعٌ جديد من قبائل الرحّل. إنهم أناسٌ لم يتخيلوا يوماً أنهم سيمضون في طريقهم ويتخلّون عن المنازل والشقق التقليدية ليعيشوا في ما يسميه البعض «الملكيات ذات العجلات»، من سيارات ترفيهية مستعملة، وحافلات مدارس، ومخيماتٍ صغيرة ومقطوراتٍ سفر، وسياراتِ سيدان قديمة وعادية. إنهم يبتعدون عن الخيارات المستحيلة التي تُواجه الطبقة الوسطى، والتي هي خيارات تفترض بهم أن يقرروا بين:

هل تُفضّل تناول طعام أو تطبيب أسنانك؟ هل تفضل دفع الرهن العقاري أو فاتورة الكهرباء؟ تسديدَ قسط السيارة أو شراء دواء؟ دفع الإيجار أو قرض تعليم الطلاب؟ شراء ملابس دافئة أو وقودٍ من أجل الذهاب إلى العمل والإياب منه؟

بالنسبة إلى كثيرين تبدو خيارات الأجوبة بديهية في البداية.

لا يمكنك منح نفسك المزيد، ولكن ماذا عن تخفيض أكبر مصاريفك والانتقال من منزل مبني من الطوب إلى منزل يتحرك على عجلات؟

يدعوهم البعض بعديمي المأوى، ولكن الرحّل الجدد يرفضون هذه التسمية، فوسيلة تنقلهم ومنزلهم هما الشيء ذاته، لقد تبنوا كلمة مختلفة، مشيرين إلى أنفسهم بأنهم عديمو المنزل.

من بعيد يمكنك أن تخطئ في تمييز قاطني مقطورات السفر هذه. فعندما يريد هؤلاء أن يشاهدوا فيلماً في السينما أو يتناولوا وجبة في مطعم، فلا يمكنك أن تميّزهم، لا من حيث المظهر ولا من حيث طريقة التفكير. إنهم يبدون إلى حدّ بعيد وكأنهم من أفراد الطبقة المتوسطة، إنهم يغسلون ثيابهم في المغاسل، وينضمون إلى نوادي اللياقة البدنية حيث يستحمون، وبسبب التراجع الاقتصادي الكبير، نزل كثيرون منهم إلى الطريق عندما نفدت مدخراتهم، وذلك كي تبقى بطونهم وخزانات وقودهم ممتلئة، وهم يؤدون أعمالاً شاقة في دوامات عمل طويلة. وبما أن الرواتب زهيدة وتكاليف السكن مرتفعة، فقد قرروا أن يحرروا أنفسهم من أعباء الإيجارات والرهونات العقارية كي يستمروا أحياءَ في أميركا.

ولكن بالنسبة إليهم – كما هو الحال بالنسبة إلى أيِّ شخص – فإن البقاء على قيد الحياة ليس بأمرٍ كافٍ، لذا فإنّ ما بدأ على أنه محاولة أخيرة للبقاء، أصبح صرخةً لشيءٍ أعظم. فلا تقتصر احتياجات البشر للعيش على الطعام والملجأ فحسب، فالبشر بحاجة إلى الأمل.

وها هو الأمل على الطريق. إنه قوةٌ دافعة نحو الأمام، إحساسٌ بالفرصة، على مدى البلاد بأكملها، إنه قناعة عميقة بأن الأفضل آتٍ لا محالة، إنه على مرمى نظرنا، في البلدة المجاورة أو في الحفلة القادمة، أو في فرصة اللقاء بشخص غريب.

بعض هؤلاء الغرباء هم من الرحّل أيضاً. فعندما يتقابلون عبر الإنترنت، أو أثناء العمل، أو حتى عن طريق التخييم في منأى عن الشبكة... تبدأ القبيلة بالتشكّل. تجمعهم روابط وفهمٌ مشترك، فحينما تتعطل عربة شخص ما يمرّرون القبعة ويجمعون المال، وتسودُ بينهم مشاعر أخلاقية مُعدِيةٌ. هناك شيء كبير يحدث، البلاد تتغير بسرعة وهياكلها القديمة تنهار، وهؤلاء الرحّل يقفون في وسط مركز تكوّن الهياكل الجديدة. في منتصف الليل وأثناء تجمّعهم حول نار المخيم ينتابك إحساسٌ بأنك في المدينة الفاضلة.

أنا أكتب هذه الكلمات في فصل الخريف، وسيحلُّ الشتاء قريباً، وسيفرض وجوده، سيحزم بعض الرحّل أمتعتهم ويفككون مخيماتهم ويعودون إلى أوطانهم.. سيتحركون على الطرقات كما تتحرك الدماء في الشرايين، سينطلقون في البحث عن عائلة أو أصدقاء أو مجرد مكان دافئ.

أما بعضهم الآخر فسيسافرُ عبر القارة. سيحسب الجميع الأميال التي تمر أمامهم وكأنها شريطٌ سينمائي لأميركا يتمثل بمطاعم الوجبات السريعة، ومراكز التسوق، والحقول التي يكسوها الجليد، ووكلاء السيارات، والمتاجر الكبيرة، وحافلات الإطعام الليلية، والسهول الرتيبة، والحظائر، والمصانع المغلقة، وكذلك المقاسم والمحلات الكبيرة إضافةً إلى القمم المغطاة بالثلوج. على جانب الطريق تستمر العجلات بالدوران، أثناء الليلِ والنهار، حتى يبدأ الإرهاقُ يتسلَّلُ إلى النفوس. وعندما يغلب النعاس أعينهم، سيخرجون عن الطريق بحثاً عن مكانٍ يمكثون فيه ليرتاحوا. في موقف سياراتِ ول مارت، وفي شوارع الضواحي الهادئة، وعند مواقف الشاحنات، وسط تهويدة المحركاتِ المتوقفة عن العمل؛ ثم في ساعات الصباح الباكر – وقبل أن

يلاحظهم أحد – سيعودون إلى الطريق السريع. يتابعون سفرهم مطمئنين لمعرفة أن:

آخرَ مكان مجاني في أميركا هو موقف السيارات.

القسم الأول

الفصل الأول
سكويز إن

على الطريق السريع عند سفح الجبل، وعلى بُعدِ ساعة تقريباً من لوس أنجلوس، تلوحُ في الأفق سلسلة جبال أمام حركة المرور المتجهة شمالاً، والتي تشكل عائقاً أمام المدّ العمراني. هذه البرية هي الحافة الجنوبية لجبال سان برناردينو، «جرفٌ طويل شديد الانحدار» على حدّ تعبير هيئة المسح الجيولوجي الأميركية. إنه جزء من التكوين الذي نشأ خلال الأحدَ عشرَ مليون عامٍ الماضية على طول صدع سان أندرياس، ولايزال حتى يومنا هذا، يكتسب بضعة ملِّيمترات كل عام في المكان الذي يلتقي فيه المحيط الهادئ مع هضبة أميركا الشمالية ليشكِّلا جِسماً واحداً. تبدو القمم أمامك وكأنها تكبر بسرعة عند اتجاهك نحوها مباشرة. إنها نوعٌ من المشاهد التي تجعلك تجلس باستقامةٍ واعتدال، وتشعرَ بانشراحٍ في الصدر، وكأن غاز الهيليوم يتزاحم بين أضلاعك، ليحملك إلى البعيد.

تمسك ليندا ماي بمقودها وتراقب من خلال نظارتها، ذات الإطار الوردي اللون، الجبال التي تقترب منها، تبعد شعرها الفضي المتدلي على كتفيها عن وجهها وتجمعه بمشبك بلاستيكي، تنطلقُ من الطريق الحرة إلى الطريق السريعة 330، المعروفة باسم سيتي رود غريك. وبعد عدة أميال، تصبح الطريق واسعة ومستوية، ثم تستدق لتصبح أفعوانية شديدة الانحدار، مع ممرٍ واحد في كل جهة. وتبدأ في الصعود إلى غابات سان بيرناردو المحلية.

تقود الجدة البالغة من العمر أربعة وستين عاماً سيارة جيب غراند شيروكي لاريدو، التي أجرت لها إصلاحات واسعة بعدما اشترتها؛ ضوء «حالة المحرك» لا يُعتمد عليه– فهو يومض في العادة عندما لا يكون هناك خطبٌ فعلي – وتكشف نظرة فاحصة على غطاء المحرك الأبيض أنه تعرّض للضرر واُستبدل، وهو متدرج بظله عن باقي جسم السيارة. لكن بعد شهورٍ من الإصلاحات، أصبحت السيارة أخيراً صالحة للسير على الطريق. ركّب الميكانيكي عمود الحدبات والرافعات الجديدة. أما ليندا فحاولت أن ترتب السيارة على قدر استطاعتها، فنظفت المصابيح الأمامية وأزالت الغبش عنها مستعينة بقميص قديم وطاردٍ للحشرات، مستعملةً خدعةَ «افعلها بنفسك». لأوّل مرة تجر سيارة الجيب منزل ليندا: مقطورةٌ صغيرة صفراء شاحبة تسميها «سكويز إن». (إذا لم يعرف الزائرون الاسم في أول مرة يُذكر فيها، فإنها تضعه في جملة «نعم، هناك متسع!» وتبتسم فترتسم على وجهها خطوط ضحكة عميقة).

تبدو المقطورة مثل بقايا مصبوبة من الألياف الزجاجية (الفايبر غلاس)، هانتر كومباكت 2 التي صُنعت في عام 1974، وتم الإعلان عنها في الأصل على أنها «تتويج لإنجاز السفر من أجل المتعة»، فهي «تتحرك كقطةٍ صغيرة على طريقٍ مفتوحة، أو كنمرٍ حينما تصبح الحركة صعبة». بعد أربعة عقود من الزمان، تبدو سكويز إن أشبه بكبسولة خلفية أخّاذة مفعمة بالحياة: صندوقٌ ذي حواف مستديرة وجوانب مائلة، شكلها الهندسي أقرب إلى علب الستيروفوم التي توضع فيها وجبات البرغر، يبلغ طولها من الداخل عشر أقدام من طرفها وحتى طرفها الآخر، وهو نفس الطول الداخلي تقريباً للعربة المغطاة التي نقلت جدة ليندا الكبرى عبر البلاد منذ أكثر من قرن مضى. تحتوي على بعض اللمسات المميزة التي تعود إلى سبعينيات القرن الماضي: جدرانها وسقفها مبطنة بجلد قشدي اللون، ومشمّع بلوني الخردل والأفوكادو على الأرض. السقف مرتفع بما يكفي لتقف ليندا. بعد شراء المقطورة في مزاد بمبلغ 1400 دولار كتبت في وصفها على الفيسبوك إنها من الداخل بطول

خمس أقدام وثلاثة إنشات أما طولي أنا فهو خمس أقدام وإنشين، إنها تناسبني تماماً».

ليندا ماي وكلبها كوكو

تقطر ليندا سكويز إن إلى هانا فلات، وهو مخيم في غابة الصنوبر شمال غرب بحيرة بيغ بير. إنه شهر أيار وهي تخطط للبقاء حتى أيلول، ولكنها بخلاف آلاف الزوار الذين يسعون خلف الطقس الدافئ، والذين يسافرون من أجل المتعة كل عام إلى غابة سان برناردينو الوطنية – وهي مساحة برية أكبر من ولاية رود آيلاند – تقوم ليندا بهذه الرحلة من أجل العمل. إنه الصيف الثالث الذي تعمل فيه مضيفةً في المخيم: في وظائف تتراوح بين بوّاب، وصرّاف، وحارس أرض، وحارس أمن، وعضو في لجنة الترحيب. إنها متحمسة لبدء العمل والحصول على الزيادة السنوية للعمال العائدين التي سترفع أجرها في الساعة إلى 9.35 دولارات بزيادة 20 سنتاً عن العام السابق. في ذلك الوقت، كان الحد الأدنى للأجور في كاليفورنيا 9 دولارات في الساعة، وعلى الرغم من أنها ومضيفي المخيم الآخرين يتم تعيينهم «حسب الحاجة»، وفقاً لسياسة التوظيف الخاصة بالشركة – وهذا يعني أنه يمكن فصلهم من العمل «في أي

وقت، ومن دون أي سبب ومن دون إنذار»– فقد أَبلغت أن ساعات عملها قد تصل إلى أربعين ساعة أسبوعياً.

في البداية، ولبعض الوقت يتوقع بعض مضيفي المخيم أن يحصلوا على إجازة مدفوعة الأجر في الجنة، ومن الصعب لومهم على توقعهم هذا، لأن الإعلانات الخاصة بالوظيفة مُزينة بصور من الجداول المتلألئة والمروج المليئة بالزهور البرية. في نشرة الشؤون الإدارية لكاليفورنيا لاند، لصاحب الامتياز الخاص وهو مدير عمل ليندا، تظهر النساء ذوات الشعر الرمادي يبتسمن بسعادة على بحيرة تغمرها أشعة الشمس، جنباً إلى جنب، ويظهرنَ صديقاتٍ في مخيم الصيف. «احصل على المال مقابل الذهاب للتخييم!»، كُتب على لافتة متملقة مستأجرة لصالح شركة «أميركان لاند وليجر»، وهي شركة أخرى تستأجر معسكراً للتخييم. وفي أسفل العنوان الرئيسي شهادات: «يقول موظفونا: لم يكن التقاعد بهذه المتعة من قبل، لقد شكّلنا صداقات مدى الحياة، نحن بصحة أفضل ممّا كنا عليه قبل سنوات».

الأعضاء الجدد يُعرفون بالتردد – وأحياناً برغبتهم في الاستقالة – عندما يُواجهون الأجزاء الأقلَّ روعة في العمل: مجالسة الأطفال، والمُخيمين المزعجين، وتجريف أكوام الرماد والزجاج المكسور من حُفر نار المخيم (يحب الزوار المشاغبون إسقاط الزجاجات في اللهب لجعلها تنفجر)، وطقوس التنظيف خارج المنازل ثلاثَ مرات يومياً. وعلى الرغم من أن العناية بالمراحيض هي العمل الروتيني الأقلُّ تفضيلاً لدى مُضيفي المخيم، إلا أن ليندا لا ترى إزعاجاً في ذلك، حتى أنها تفخر بعض الشيء بأداء هذه المهمة بشكل جيد. فهي تقول: «أريدها نظيفة لأن المخيمين الخاصين بي يستخدموها، أنا لست مهووسة بالنظافة، ولكنني أرتدي قفازات مطاطية، عندما أقوم بذلك».

عندما تصل ليندا إلى جبال سان برناردينو، تشتت مناظر الوادي الرائعة انتباهها. الطريق ضيقة، إلى درجة أنه لابد من الاستعانة بهامش إضافي للطريق. على طول بعض الامتدادات، لا يوجد شيء سوى الهواء خلف شريط

الرصيف الذي يلتصق بالمنحدر. وتحذر اللافتات السائقين: «منطقة انزلاق صخري»، و«تجنب أن ترتفع حرارة السيارة: أوقف تشغيل مكيّف الهواء بعد 14 ميلاً». لا يبدو أن أياً من هذا يزعج ليندا. فبعد أن أمضت عقدين وهي تقود العربة لمسافات طويلة لم تعد تهاب الطرق الصعبة.

أنا أقود عربة تخييم أمام ليندا مباشرة، لقد أمضيتُ وقتاً معها بصفتي صحفية، في الداخل والخارج لمدة تربو عن سنة ونصف، وبين الزيارة والأخرى كنا نتواصل عبر الهاتف، حتى أنني أصبحت أتوقع تحيتها التي تفتتح بها كل مكالمة قبل أن ترد، فهي تُنغِّمُ كلمة مرحباً وكأنها تقولها على ثلاثة مقاطع، بالطريقة نفسها التي يقول بها الشخص «أنا أراك» عندما يلعب لعبة «بيك بو» مع طفل صغير.

لقد قابلت ليندا للمرة الأولى عندما كنت أبحث عن موضوع عن ثقافةِ الرحّل الذين يقيمون طوال الوقت على الطرقات، وهي ثقافة آخذة في الانتشار. مثل ليندا، كانت العديد من الأرواح الهائمة[1] تحاول الهرب من التباين الاقتصادي والصدام بين الإيجارات الآخذة في الزيادة والأجور الثابتة، وهي قوة لا يمكن وقفُها، تقابلها أداة لا يمكن تحريكها. لقد شعر هؤلاء الأشخاص أنهم عالقون في مَلْزَمَة، وهم يقضون كل وقتهم في وظائف مرهقة ومضنية للنفس، وهي بالكاد تغطي نفقات الإيجار أو الرهن العقاري، من دون أن تظهر لهم أيُّ وسيلة لتحسين مصائرهم على المدى الطويل أو وَعْدٍ بإمكانية التقاعد.

كانت هذه المشاعر متجذّرة في حقيقة قاسية: الفروقات الكبيرة بين الأجور وتكاليف السكن جعلت حياة أعداد كبيرة من الأميركيين، الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى، تتحول من صعبة إلى مستحيلة. في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، لا يوجد في أميركا سوى عشرات المقاطعات ومناطقَ صغيرة، حيث يمكن لعامل بدوام كامل يتلقى الحد الأدنى للأجور شراءُ شقة مؤلفة من غرفة نوم واحدة، أو يدفع إيجاراً مُنصِفاً لها. سيتعين عليك كسبُ 16.35 دولاراً في الساعة على الأقل – أي أكثر من ضعف الحد الأدنى

الفيدرالي للأجور – لاستئجار مثل هذه الشقة من دون إنفاق أكثر من 30 بالمئة من الدخل الموصى به على المسكن. العواقبُ وخيمة، لا سيما بالنسبة لكل أسرة من بين ست أسر أميركية تنفق أكثر من نصف ما تجنيه لتأمين المأوى. بالنسبة للعديد من العائلات ذوات الدخل المنخفض، هذا يعني أنه لم يبقَ شيء لشراء الطعام، والدواء، وسواهما من ضروريات الحياة.

إنّ العديد من الأشخاص الذين قابلتهم شعروا أنهم قضوا وقتاً طويلاً يلعبون لعبة يسودها الغش، لذا وجدوا طريقة لاختراق النظام. لقد تخلوا عن منازلهم التقليدية المبنية من الطوب، وانعتقوا من أغلال الإيجار والرهون العقارية. انتقلوا إلى العربات الصغيرة المغلقة، ومقطورات السفر، وسافروا من مكان إلى آخر حيث الطقس الجيد، وحافظوا على خزان الوقود ممتلئاً لكي يعملوا في وظائف موسمية. كانت ليندا واحدة من أفراد قبيلة الرحّل هذه، وأنا كنت أُرافقها في سفرها نحو الغرب.

عندما يبدأ التسلق الحاد إلى جبال سان برناردينو، يتلاشى دُوَارِي من رؤية القمم من مسافة بعيدة وفجأة أشعر بالتوتر. إن مجرد فكرة الرجوع بسيارتي الخرقاء إلى الخلف يخيفني قليلاً، ومشاهدة ليندا وهي تسحب سكويز إن بواسطة سيارة الجيب التي تقرقع يخيفني أكثر. لقد طلبتْ مني في وقت سابق أن أقود السيارة أمامها. أرادت أن تكون في الخلف، ولكن لماذا: هل اعتقدتْ أن مقطورتها يمكن أن تنفصل وتتراجع؟ لم أتمكّن من معرفة السبب.

بعد أول علامة على بداية غابة سان برناردينو الوطنية، تلوح في المشهدِ شاحنةُ صهريج نفط لامعة خلف سكويز إن، يبدو السائق نافد الصبر، وأصبح قريباً جداً منها عند دخولهما سلسلة من المنعطفات على شكل حرف S، والتي أخذت تحجب ليندا عن بصري في مرآة الرؤية الخلفية. واصلتُ مراقبة الجيب. لكن عندما استقام الطريق مرة أخرى، لم تظهر. وبدلاً من ذلك، ظهر الصهريج على المنحدر مباشرة. لا وجود لليندا.

ركنت السيارة عند تحويلةٍ بجانب الطريق، ثمّ اتصلت بهاتفها الخلوي وأنا أتمنى أن أسمع صوتها المألوف: «مرحباااااااااً». يرن الهاتف ويرن، ثم يتحول الاتصال إلى البريد الصوتي. أوقفُ السيارة، وأقفزُ، وأتقدمُ بعصبية على طول جانب السائق. أحاول مرة أخرى. لا إجابة. الآن، يخرج المزيد من السيارات– أو ربما العشرات – من المنعطفات، في الطريق، وتتجاوز التحويلة. أحاول أن أكبح شعوري بالغثيان، مع مرور الدقائق يبدأ الأدرينالين بالتحول إلى ذعر. لقد اختفت سكويز إن.

***

منذ عدة أشهر، كانت ليندا متلهفة للعودة إلى الطريق وبدء عملها مُضيفةً في المخيم. لقد تقطعت السبُل بها في ميشن فيغو، على بعد خمسين ميلاً جنوب شرق لوس أنجلوس، حيث كانت تقيم في المنزل الذي استأجرتْهُ ابنتها وصهرها، أودرا وكولين، مع ثلاثة من أحفادها، وجميعهُم من المراهقين. لم تكن هناك غرفُ نوم كافية، لذلك كان حفيدها جوليان يستلقي في الفسحة المخصصة لتناول الطعام خارج المطبخ. (كان هذا التجهيز أكثر راحة من شقة العائلة الأخيرة، حيث تضاعفت مقصورة الملابس، وتم تحويلها إلى غرفة نوم لإحدى حفيداتها).

حصلت ليندا على ما تبقى؛ الأريكة بجانب الباب الأمامي كانت بمثابة جزيرة. بقدر ما كانت تعشق عائلتها، إلا أنها شعرت بأنها عالقة هناك، خاصة مع وجود سيارتها الجيب القابعة في ورشة الإصلاح. كلما خطط أفراد الأسرة لنزهة لا تشملها، كان عليهم أن يسيروا خلف أريكة ليندا في طريقهم إلى الباب، بدأ الأمر يصبح مربكاً. قلقت ليندا: هل كانوا يشعرون بالذنب لأنهم يمضون الوقت من دونها؟ كما أنها افتقدت استقلاليتها. قالت لي: «أفضِّلُ أن أكون ملكة في منزلي على أن أعيش تحت سلطة ملكة في منزل آخر، حتى لو كانت ابنتي».

في الوقت نفسه، تركت المشاكل الصحية الأسرة مرهقة عاطفياً ومالياً، وهذا ما جعل من الصعب على ليندا الاعتماد عليها. لقد عانت حفيدتها كابي من المرض، وكانت بين الحين والآخر – وعلى مدى ثلاث سنوات – تصبح طريحة الفراش بسبب خلل وظيفي في الجهاز العصبي. في وقت لاحق تبين أنها تعاني من متلازمة شوغرن، وهو مرض مناعي ذاتي. جوليان، ابن ابنتها، كان يعاني من داء السكري من النوع الأول. أما ابنتها، أودرا، فتعاني من التهاب المفاصل، وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد أصيب كولين، المعيل، بصداع نصفي شديد ودُوَارٍ أجبره على ترك وظيفته المكتبية.

في مرحلة ما، فكّرت ليندا في التقدم إلى وظيفة موسمية في مستودع أمازون من خلال كامب فورس، وهو برنامج ابتكره بائع التجزئة عبر الإنترنت لتوظيف عمال متجولين. لكنها قامت بالمهمة نفسها قبل عام وانتهى بها الأمر بإصابة متكررة في الحركة نتيجة استخدام ماسح الباركود المحمول. لقد تركت التجربة وراءها علامة واضحة، كتلةً بحجم حبة العنب على معصمها الأيمن، والأسوأ من ذلك هو الذي لم تره: ألم حارق يلمع على طول ذراعها اليمنى، من الإبهام إلى الرسغ، مروراً بالمرفق فالكتف، وينتهي في رقبتها. كان رفع فنجان قهوة سعة ثمانية أونصات أو مقلاة كافياً لإطلاق موجة من الألم. كانت تعتقد أنها حالة سيئة من التهاب الأوتار، لكن علمها بذلك لم يلغِ آلامها. ومن دون أن تُشفى لا يمكنها العودة.

وها هي مفلسة ومقيدة إلى أريكة جزيرتها. حاولت ليندا التركيز على مستقبلها كمالكة وحيدة لسكويز إن. قبل بقائها مع عائلتها كانت قد تنقلت من عملٍ إلى آخر في مقطورتها إلدورادو 1994 البالغ طولها 28 قدماً، والتي استهلكت كثيراً من الوقود وكانت على وشك أن تتفكك؛ واستبدالها بمقطورة أصغر جعلها تشعر بالارتياح، وإن كانت سكويز إن بحاجة لبعض الإصلاحات، لأن مالكها السابق تركها مركونة على شاطئ أريغون، فتأثرت بهواء البحر المشبع بالملح، وأخذت بعض الأجزاء المعدنية تتآكل، وشوهت طبقة من الصدأ

البرتقالي الهيكل الزجاجي للسيارة. استغلت ليندا وقت راحتها في العمل على مشاريع تحسين المنزل المتنقل. كانت مهمتها الأولى هي إعداد المنظفات والمساحيق – إذ كان وضع قشور البيض في الخلاط بمثابة المكوّن السري– والذي استخدمته لإزالة بقع الصدأ. أما المهمة الأخرى فتمثلت بإنشاء سرير مريح. احتوت المقطورة على حجرة صغيرة للطعام على طول جدارها الخلفي، لذا أزاحت ليندا الطاولة، وقصّت قالباً من الورق المقوى ليتناسب مع مستوى المقاعد، وعندما انتبهت إلى وجود فراشٍ مَرتَبةٍ بحجم مضاعف تبدو جديدة تماماً في سقط متاع الجيران، جففتها ثم فتحتها، وانتزعت النوابض منها وكأنها صياد ينتزع الأسماك من المصيدة الكبيرة. بعد ذلك، سحبت طبقات الحشو، ووضعت علامة عليها لتلائم القالب الخاص بها باستخدام أقلام شاربي (أقلام ملونة)، وقصت الزوائد باستخدام سكين السجاد. ثم سوَّت القماش الخارجي ليتطابق مع الفراش، وأعادت خياطة الغلاف وحشتها بشكلٍ مرتب وأنيق، لتصنع بذلك فراشاً صغيراً مثالياً بمساحةٍ قدرها 72 × 36 بوصة. أخبرتني، مشيرة إلى كوكو: «لم أعتقد أن مكاناً ضيقاً كهذا سيكون ممتعاً للنوم مع رفيق فراشي هنا».

في اليوم السابق لمغادرة ليندا إلى هانا فلات، سألتُها إذا كانت متحمسة. نظرت إليّ وكأنما الأمرُ هو بغاية الوضوح وقالت: «بالتأكيد! لم يكن لديَّ سيارة ولا حتى نقود، لقد علقتُ على هذه الأريكة». شيكات الضمان الاجتماعي الشهرية التي تبلغ قيمتها 524 دولاراً أميركياً ستتيح لها البقاء على قيد الحياة حتى تقبض أول راتب من وظيفتها الجديدة[2]. شعرت ليندا أن العالم فتح أبوابه لها مرة أخرى بعدما كان قد تقلص إلى حجم الأريكة. لقد مضت فترة طويلة، كانت محرومة فيها من حريتها المألوفة التي تساعدها على الاندفاع نحو كل جديد، والإمكانية التي تأتي مع المجال المفتوح. لقد حان الوقت للذهاب.

كان صباح يوم 6 أيار معتدلاً وغائماً. تبادلت ليندا وعائلتها عناق الوداع، ووعدتهم قائلةً: «سأتصل بكم عندما أصل إلى هناك». وضعت كوكو في سيارة الجيب المتوقفة. وتوجهتْ إلى محل إصلاح الإطارات ونفخت إطاراتها غير المتطابقة، والتي كانت متشققة وسيئة. لم يكن في سيارة الجيب قطع غيار احتياط. ثم توجهت إلى محطة الوقود شيل، وملأت خزان الوقود، ثم دخلت لتحصل على إيصال بمبلغ مئة دولار وعلبتين من سجائر المالبورو الحمراء، وأومأت لمساعد المبيعات الشاب برأسها عندما تذكرت كيف اشترت الوقود وهي في سن المراهقة مقابل ربع دولار للغالون، وهو بعيد كل البعد عن المعدل السائد اليوم والبالغ 3.79 دولاراً. أخبرته وهي تهز رأسها وتبتسم: «كان يمكنك بدولار واحد، ملء الخزان والقيادة طوال اليوم».

بدا وكأن لا شيء يمكن أن يعكر مزاج ليندا، ولا حتى عند عودتها إلى سيارة الجيب لتجد الأبواب مقفلة والمفاتيح في الداخل. وقف كوكو على قائمتيه الخلفيتين، ومخالبه على الباب الجانبي للسائق ولوّح بذيله، فخمّنت ليندا أن الكلب قد ضغط على القفل. ومع ذلك فقد نزلتْ النافذة بضعة إنشات. جلبت ولاعة شواء (ب ب كيو) ذات مقبض طويل من العربة، حشرت يدها من خلال الفتحة الضيقة، واستخدمتها لفتح القفل. وهكذا تابعت رحلتها.

كانت سكويز إن في مخزن في ضواحي بيريس، وهي بلدة على مشارف جبال سانت آنا، إحدى سلاسل شبه الجزيرة التي تفصل المنطقة الساحلية في كاليفورنيا عن المناطق الداخلية الصحراوية الأكثر قساوة. وكان الوصول إلى هناك يعني السفر على طريق أورتيغا الحرة، وهي من أخطر الطرقات في الولاية. «مكان يلتقي فيه الزحف العمراني، والقيادة السيئة، وتقنيات بناء الطرق التي عفّ عليها الزمن» على حد تعبير أحد مراسلي لوس أنجلوس تايمز. أما الطريق المتعرجة فغالباً ما تكون غير سالكة بسبب حشود الركاب القادمة أو العائدة من أورانج كانتي إلى إنلاند إمباير وبالعكس، لكن في منتصف النهار تكون حركة السير خفيفة للغاية. قبل فترة، كانت ليندا تقود

على الجانب الآخر، مرّت بستة من منتزهات المقطورات المتلاصقة مثل مستعمرات البرنقيل (بلح البحر) الواقعة على الحافة الغربية لبحيرة السنيور. لقد عاشت هنا في إحدى تلك المقطورات منذ ثلاثِ سنوات في منتزه شور أكريس للبيوت المتنقلة، بإيجار قدره 600 دولار في الشهر، وهي موجودة فوق ممر إسفلتي متصدع يمتد من الطريق السريعة إلى الواجهة البحرية.

اشترت ليندا من متجر تارغيت، طعاماً يكفيها حتى حصولها على بطاقة الضمان الاجتماعي خلال أسبوع؛ كرتونة من الشوفان، نصف طبق بيض، لحم بقر مفروم، خبز هامبرغر، مقرمشات السمك الذهبي، طماطم، زبدة اللوز، خردل، ونصف غالون من الحليب؛ وعلى الرغم من أنها لن تبدأ العمل قبل عدة أيام، فقد اتصلت بمديرها الذي كان على وشك الوصول إلى موقف السيارات، وأرادت إخباره أن بإمكانه الاعتماد عليها، وأنها تنظر إلى الوظيفة بكثير من الاهتمام. أخبرته أنها كانت في طريقها، وتخطط للوصول إلى هانا فلات قبل حلول الظلام.

بعد سياج الأسلاك المتقاطعة المغطى بالأسلاك الشائكة والأعلام الأميركية التي بهت لونها بسبب التعرض لأشعة الشمس، مكثت سكويز إن في ساحة التخزين على الجانب الشمالي من الطريق السريعة 74. قادت ليندا مقطورتها إلى داخل البوابة، فخرج العامل الماهر في الموقع لاستقبالها، وهو رجل نحيف يدعى رودي ذو لحية رمادية شبيهة بلحية فان دايك. أخذا يمزحان أثناء تجهيز ليندا للمقطورة، وهي تحاول تذكر قائمة المهام التي عليها القيام بها. قال رودي ساخراً: «لديّ عقلٌ مثل الفخ الفولاذي: لا شيء يدخل، لا شيء يخرج».

كانا يتحدثان عندما نزلتْ بسرعة كبيرة من باب المقطورة، الأمر الذي أدى إلى اختلال توازن المقطورة. ترجحت سكويز إن على محورٍ واحد، واندفع جانبها الخلفي خارج الأرضية. مازحها رودي: «ما كان ينبغي الحصول على لفافة القرفة هذا الصباح، هاه؟».

استقرت ليندا وقالت: «حدث ذلك بسرعة!».

لحسن الحظ، لم يتكسر شيء في سكويز إن أو من داخلها. ثبتت ليندا رفاً في مقدمة المقطورة كان يحمل زوجاً من خزانات البروبان التي يبلغ وزنها عشرين رطلاً، بالإضافة إلى ثلاجتها، والموقد، وفرن صغير. أخيراً، ساعدها رودي في ربط سكويز إن بسيارة الجيب. شغلتها أولاً ثم توقفت، كي تلوِّحَ مُودِّعة، ثم انطلقت عبر البوابة. تماماً كالإعلان القديم أن «تتبع المقطورة مثل قطة صغيرة».

عندما لم تعاود ليندا الظهور بعد أول مجموعة من المنعطفات في جبال سان برناردينو، بدأت أُفكر في مجموعة من الكوارث المحتملة، وازدادت المخاوف. ربما توقف المحرك أو ربما ثُقب الإطار، والخبر السيئ أنه ليس لديها إطار احتياطي والأسوأ من ذلك أنه لم ينثقب بل انفجر! ماذا لو انفصلت سكويز إن وهوت مسرعة إلى أسفل الوادي؟ وماذا لو أدى انعطاف واسع إلى دفع سيارة الجيب عن الطريق إلى الوادي، وكأنها نسخة جديدة لمشاهد حرجة من فيلم ثيلما ولويز؟

كنت أشغل محرك العربة للعودة والبحث عنها وإذا بالهاتف يرن. إنه صوت ليندا: «سأكون هناك». انتابني شعورٌ عارم بالارتياح لدى ظهورها عند التحويلة، لكن ذلك لم يدم طويلاً. حيث توقفت ليندا، وأشارت إلى شيءٍ غريبٍ في مقطورتها: كان رفُّ البروبان فارغاً. إذ انقلب كلُّ ما كان عليه خلال عبورها المنعطفات الحادة. كان أحدُ الخزانين لا يزال مقيّداً بخرطومه، فقد ارتدَّ على طول سكويز إن وأتلف حوالي أربع بوصات من غلافها المصنوع من الألياف الزجاجية. وانفصل الآخر تماماً وتدحرج عبر الطريق السريع مثل عشب قابل للاحتراق. أما الصهريج، التي كان يتعقبها من الخلف فقد انحرف وتجنّب ليندا وتجاوزها، لقد كانت محظوظة بما يكفي لأنها وجدت مساحةً كافية للتوقف. وأمّا الخزان فقد استقر أخيرا على الجانب البعيد من الطريق السريعة. قدّرت ليندا الوضعَ الذي تكون فيه على الحافة الخارجية لمنعطفٍ غير مرئي، بحيث

تكون مرئية للسيارات القادمة خلفها، لقد كبحت جماح رغبتها الملحة في الانطلاق خلف خزان البروبان لاسترجاعه وأخذت تعيد النظر في فكرها: «خزان البروبان يقدّرُ ثمنه بعشرين دولاراً لكن حياتي لا تقدر بثمن». فصلتِ الخزان المتبقي عن خرطومه وخبّأته في المقطورة.

بعد تفاديها الحادث الوشيك، واصلت ليندا القيادة صعوداً عبر تجمعات بحيرة أروبير وينابيع الرانينغ التي كانت منحدراتها الألبية تجلب المتزحلقين والمتزلجين على الجليد خلال فصل الشتاء، ولكنها تجذب الآن راكبي الدراجات الجبلية والمتنزهين. إنها سدٌّ عمره قرن في بحيرة بيغ بير. إنه عبارة عن خزان يتغذى من الثلج، ويمر عبر الشاطئ الشمالي من خلال موطن النسر الأصلع، تليه غروت باي وبلدة فاونسكين الصغيرة، التي أخذت تسميتها الحالية من قبل مطوّرين في أوائل القرن العشرين والذين لم يعتقِدوا أن مكاناً يسمى غروت «سوف يجتذب المصطافين». كان المتجر العام هناك مليئاً بكل شيء قد يحتاج إليه مغامرو البرية: سنارات الصيد، حافظات البيرة، زلاجات، سلاسلَ للإطارات، أكياس النوم، وهدايا تذكارية على شكل زجاجات المشروبات (أوضح محاسب المتجر «كؤوس التيكيلا»). كانت حديقة البلدة المجاورة مليئة بالنصب التذكارية المصنوعة من الألياف الزجاجية على شكل رجال بالزي الرسمي، بما في ذلك لاعب بيسبول، رجلٌ من الهنود الحمر، راعي بقر، رجل إطفاء، طيار مقاتل، قرصان، ورجل دورية. يبدون وكأنهم يغنون «واي. أم. سي. أي». سألتْ ليندا خلال آخر زيارة لها إلى فاونسكين « لماذا ليس هناك نساء؟»، ثم لاحظت منحوتات أخرى: زوجاً من الثيران يجران عربة. اقترحت ليندا أنه لربما كان هذان الثوران أنثيين، حيث أنه لم يكن لديهما أعضاء تناسلية يمكن تمييزها، وكأنهما الوحيدان اللذان يشتركان في أي عمل. ومنذ ذلك الحين، كلما مرّت بالحديقة، كانت تناديهما: «هيييبي يا فتيات!».

في ريم لعالم القيادة، مرت ليندا عبر عقار خاص، حيث أمكنها رؤية العشب المجزوزة بطريقة غير مرتبة خلف بوابات ثقيلة مقفلة ولافتة دوّن

عليها «ممنوع التعدي على ممتلكات الغير». أبطأت سيارة الجيب لتبدو وكأنها تزحف عندما استدارت إلى كوكسي تراك تريل. هنا انتهت الطريق المرصوفة بالإسفلت لتبدأ طريق ترابية ملتوية محاطة بأغصان عارية تخرج من الجدار، وشجيرات المانزانيتا المغطاة ببراعم زهرية اللون. كان هنالك أيضاً آثار لحرائق الغابات في باتلر تو عام 2007: تنتصب جذوع الأشجار المتفحمة لتبدو وكأنها أشواك حيوان النيص العملاقة. اجتاح هذا الحريق أكثر من أربعة عشر ألف فدان من الغابات، بما في ذلك هانا فلات، التي أُغلقت لإجراء إصلاحات حتى عام 2009. ومع اقترابها من المخيم، خفّفت ليندا من سرعتها، وركّزت انتباهها على الطريق الوعرة، لتجنب الشقوق العميقة في الطريق القاسية. ارتجت سكويز إن مصدرةً ضجيجاً خلفها.

كانت الساعة قرابة السادسة مساءً، ولم يكن الظلام قد حل بعد، عندما وصلت إلى مدخل المخيم. وعلى ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، كانت هانا فلات أعلى من ميشن فيغو بأكثر من ميل واحد، حيث بدأت ليندا رحلتها في ذلك الصباح. كان الهواء بارداً ولطيفاً. تحسست لوحة الإعلانات وخرجت من سيارتها الجيب لتقرأها، حيث تحذر الشاخصات الزائرين من الثعابين، وضرورة إطفاء نيران المعسكرات (حيث أن كلَّ شرارة هي خطرٌ مميت)، وتجنب جلب الحطب من قبل المسافرين المتسللين، إذ قد يجلب ذلك: حشراتٍ مثل حفار البلوط المرقط، ومسببات الأمراض الشائعة بأسماء مثل «بيتش كانكر» (فطريات تصيب نبات الصنوبر)، والموتَ المفاجئ للبلوط. أظهرت الخريطة الكبيرة طريقاً تمر عبر ثمانية وثمانين موقعاً مرقماً للتخييم ويمكن استئجار كل منها مقابل 26 دولاراً في الليلة. كان هنالك أيضاً مسلك غير مرقّم قريب جداً من المدخل الذي أمكن لليندا رؤيته من حيث تقف. وفيها القليل من وسائل الراحة: موقف مرصوف للسيارات، ووصلات للمياه والطاقة، وفسحة للنزهة مع طاولة وحلقة لإشعال النار. في المقدمة، وبالقرب منْ جذع متعفّن استعمره النملُ الأحمرُ لافتةٌ كتب عليها «معسكر التخييم».

ستكون ليندا في منزلها للأشهرِ الأربعةِ التالية.

***

عدا عن بداية العمل، كان هناك شيء آخر جعل ليندا تعدُّ الأيام: وهو مجيء صديقة قديمة لتعمل معها، سيلفانا ديلمرز، ذات الستين عاماً والتي لم يسبق لها أن عملت مضيفة في المخيم، لكنها كانت متحمسة لتُجرّب هذا العمل، وهي التي أعلنت قبل بضعة أشهر: «بوجود ليندا ماي إلى جانبي، يمكنني مواجهة جيش». كانت سيلفانا تعيش في سيارة فورد طراز 1990 (أيكونولين آي 350) عربة سوبر كلوب، والتي سبق أن اُستخدمت للمسنين وعربةً لنقل عمال المناجم قبل أن تشتريها من كرايك سليست (موقع تجاري على الإنترنت)، حيث كانت جوانات البخّاخ فيها مثقوبة بشكل كامل، والفراملُ في حالة سيئة، وخراطيم توجيه الطاقة متصدعة، والإطارات بالية، والمارشُ يصدر أصواتَ جرشٍ مشؤومة.

في بعض الأحيان، كانت أشعة الشمس لا تتيح للجالسين في المقعد بجانب السائق قراءة الأحرف الطويلة المكتوبة والتي يمكن تهجِئتها كالتالي: «هول بروك لمساعدة الرجال المسنين».

اقترح اثنان من أصدقاء سيلفانا أسماء للسيارة. «الملكة ماري» أو «إيزميرالدا». لم ترغب في اختيار واحدة عن الأخرى، فأطلقت عليها اسم «الملكة ماريا إيزميرالدا»، لقد زيّنت الجزء الداخلي من السيارة بأوشحةٍ ذات لون ذهبي، ووسائد مطرزة، وأضواء عيد الميلاد، ومذبح يحمل شمعة نذور لعذراء غوادالوبي، وتمثال صغير للإلهة المصرية سخمت (الإلهة المصرية برأس أسد). كانت سيلفانا قد انطلقت في عربتها بعد سلسلة من التحديات: فقد سُرقت سيارتها، وكُسر معصمها (ولم يكن لديها تأمين)، ولم تستطع بيع منزلها في نيو مكسيكو. وهي تشرح ذلك قائلة: «في المرة الأولى التي تنام

فيها في سيارتك في وسط المدينة، تشعرُ وكأنك فاشل مُرَّوِّع أو شخص بلا مأوى، ولكن أعظم ما لدى البشر هو قدرتهم على التأقلم والاعتياد».

التقت سيلفانا بليندا للمرة الأولى منذ سنة ونصف، عندما كانتا تعملان في وردية عمل ليلية كموظفتين في مستودع أمازون حيث أصيب معصم ليندا. كانت سيلفانا تقرأ بطاقات تاروت في شاحنتها (الملكة ماريا إيزميرالدا) وشغلت أيضاً وظائف في مجال الرعاية الصحية للشركات، ونادلة في مطعم، وبائعة، ومعالجة بالوخز بالإبر، وقد جاءت لترى سلسلة الأحداث التي وضعتها في عربتها باعتبارها تأثيراً إلهياً، حيث وضعتها الآلهةُ على طريق الرحّل (في مدونتها، عرّفت سيلفانا واندُرز الانتقال أو التحول أيضاً على النحو التالي: «عندما تتخلى صغيرة لم تبلغ سن التقاعد تماماً عن بيتها المصنوع من الطوب لتستبدل به مقصورة عمال مناجم، ووظائِفَها الثلاث بدوام جزئي، وتعلقها بالأمان الوهمي، يكون هذا ما بقي من الحلم الأميركي الذي ظل يعذّبُ روحها. الهدف: السير على الطريق من أجل حياة مغامرات الرحّل – وقراءة بطاقات التنجيم – المنجّم الشاماني – هي العميلة الكونية التي رغبت أن تُجَسِّدَ شخصيتها دائماً»).

سيلفانا في عربتها الملكة ماريا إيزميرالدا

كتبت سيلفانا أغنية بعنوان «النشيد الوطني لساكني المقطورات». في المرة الأولى التي غنتها لي، كانت الملكة ماريا إيزميرالدا مركونة في مرأب سيارات مطعم برغر كينغ في أريزونا، وكنا نجري مقابلة في الداخل أثناء تفتيتها لقطع الدجاج وإطعامها لقطتها ليلى ذات العينين الخضراوين، والتي لن تأكلها بأيِّ طريقة أخرى. لحنت سيلفانا أغنيتها على لحن أغنية «ملك الطريق»– وتم تجديدها عدة مرات منذ أن كتبت سيلفانا كلمات الأغنية عندما كانت تسير على الطريق السريعة95 في أريزونا – الصيغة الأخيرة كانت كالتالي:

عربة قديمة كبيرة الحجم،
مثل العيش في علبة كبيرة من الصفيح
لا إيجار، لا قواعد، لا رجل،
أنا لست مقيدة بقطعة أرض.

أستمتع بالصيف وأمضيه في غابات رائعة،
وأمضي الشتاء مستمتعة بأشعة شمس الصحراء،
أنا روحٌ غجرية عجوز بأهداف جديدة،
أنا ملكة الطريق!

يظنني أصدقائي مجنونة،
ولكن إذا نظروا إلى حياتهم فستبدو حياتي في غاية الهدوء
إذا كنت أغني أحياناً موسيقى البلوز،
فهذا ثمنٌ زهيد للحياة التي اخترتها.

لقد وجدت الخلاء أرضاً مقدسة،

خلال بحثنا المقدس عن الأرض الجديدة.

يا ملكات الطريق!

أعرف كل طريق خلفية في خمس ولايات غربية.

إذا كانت طريقاً سريعة باللون الأزرق فلن أتردد.

أتعلمُ كل تاريخ غريب لكل مدينة صغيرة.

قد أصل إلى هناك ببطء لكنني أتجول في...

سيارة الفورد التي تستهلك كثيراً من الوقود.

في بعض الأحيان يتسلل الخوف إليّ، أما الملل فلا يعرف طريقه إليّ أبداً،

لأنني قطعت الحبل أخيراً

بخلاف مجموعات المجتمع الاستهلاكي.

لديّ قطة كبيرة تبقيني أشعر بالأنس،

اسمها ليلى اللطيفة،

ليست برية تماماً، ولكنها ليست مروضة جداً،

يا ملكة الطريق.

عندما وصلت ليندا إلى هانا فلات، كانت سيلفانا في الجنوب وتحتاج إلى ساعتين لتصل إلى هنا. لقد أوقفت مقطورتها (الملكة ماريا إيزميرالدا) خارج شقة أحد الأصدقاء في إيسكونديدو، لتستمتع بحمام ساخن وتغسل ملابسها. وكان عملها هو التجوال في مقطورتها على طريقة ساكني المقطورات بأقل

من أربعين دولاراً في الجولة، كانت تنتظر البريد للحصول على بطاقة ائتمان، وهي أول بطاقة تحصل عليها منذ عشر سنوات.

كانت أيام ليندا الأولى في المخيم هادئة. وظهرت هنالك شائعات عن ظهور أسد الجبل ورؤية ذئب البراري.

تساقطت الثلوج وبلغت عدة بوصات، وشغلتْ ليندا سخاناً صغيراً (سبيس هيتر) لتدفئة سكويز إن. كما أحضرت خزانَ بروبان بديلاً، وزيّنت ثلاجتها بملصق ممغنط كتب عليه «عشْ كل يوم كما لو أن العمة النحلة تراقبك»، مع صورة لمدبرة المنزل من عرض آندي غريفث جنباً إلى جنب مع قصيدة لحياة الرحّل تُسمى «مجموعة كاملة من الأشياء» لشاعرة تُدعى راندي فينينغ، أشارت إلى نفسها أيضاً بالعجوز غريبة الأطوار المتنقلة. مطلع القصيدة هو «أسافر بدوامٍ كامل مع مجموعة كاملة من الأشياء ليس أقل أو أكثر مما أحتاج إليه». قرأت ليندا كتاباً لأنّا لاباس نصحها به أحد الأصدقاء من ساكني المقطورات، امرأة الغابات تعيش وحيدة في براري أديرنوداك، وقرأته ليندا بشغف متعجبة من استقلالية واقتصادِ المؤلفة، والتي استمدت إلهامها من والدن وشيّدت مقصورتها الخاصة بقيمة 600 دولار فقط، ثم بعد ذلك بدأت في صنع الأفكار: التغلب على العوائق بين الرؤية والواقع، وهو كتاب للمساعدة الذاتية في ريادة الأعمال، بحثتْ عنه للحصول على المشورة لبناء مستقبل مرضٍ وقد عانقت كوكو الذي استقر إلى جانبها على فراشهما المشترك وكان أحياناً يلعق وجهها بنشاط زائد. قالت لكوكو: «قبلات، قبلات! سوف تفقد لسانك هكذا وستحتاج إلى استبداله لكن خمّني من سيدفع مقابل ذلك؟».

في يوم الأحد الذي كان من المقرر أن تصل فيه سيلفانا، ذهبت ليندا لتنعش نفسها في أقرب حمام والذي كان على بعد خمسة أميال في موقع سيرانو للتخييم على شاطئ بحيرة بيغ بير في أكشاك باردة مبنية من الطوب. ولتوفير المياه فيه تم استعمال أجهزة تفصل الماء بين كل دفقة وأخرى، وإن

أردت أن تستحم فهذا يعني أن تضغط على زر الكروم نفسه مراراً وتكراراً. وبالعودة إلى ساحة انتظار السيارات كانت ليندا تمشط خصلات شعرها الطويلة في الشمس مستخدمة شامبو تجارياً متسائلةً: «ألا يزال شعري لامعاً؟».

الثلج يغطي سكويز إن في مخيم هانا فلات

بعد ظهر ذلك اليوم، ظهرت سيلفانا وهي ترتدي قميص فريدا كاهلو ذا لون خردلي مصفر، وتنورة منسابة ومزركشة مع بنطال ضيق وردي وحذاء بلا كعب من جلد الغزال. عانقت ليندا، وذهبت لإلقاء نظرة خاطفة داخل سكويز إن. قالت: «بدت أكبر في الصور»؛ سيلفانا نحيفة وطويلة القامة ترفع غرة شعرها البني المتموج الذي خالطه الشيب بمشبك على شكل موزة تنفلت منه بعض الخصلات إلى الوراء. كان عليها أن تنحني لدخول المقطورة، وأخبرتها ليندا كيف كانت تحب العيش هناك، حيث وسائل الراحة الوحيدة التي فاتتها من عربة سكن متنقلة قديمة، وهي الاستحمام والمرحاض، لقد استبدلتِ بالأخير دلواً، وحتى الآن يبدو أن ذلك يعمل بشكل جيد.

بدأ توجيه المضيفين في المخيّم يوم الاثنين عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً واستمر يومين في مركز بيغ بير للاكتشاف، وهو مرفق تعليمي تديره خدمة الغابات الأميركية، ووزّع المشرفون في إدارة الأراضي في كاليفورنيا

المون باي المغلّفة عليهم مكافأةً للمتدربين الذين شاركوا في الفصل؛ كان المضيفون على الأغلب يتطلعون إلى وجبات الغداء المجانية، نقانق في اليوم الأول ودجاج من البولو لوكو في اليوم الثاني. بصرف النظر عن الطعام، تلقى كل مضيف في المخيم مجلداً كستنائياً ذا ثلاث حلقات مع دليل عمليات إدارة أراضي كاليفورنيا المكوّن من 350 صفحة، بالإضافة إلى ملخص تفصيلي للأعمال القادمة. كما تمّ تشجيعهم على البحث في مخيماتهم عن قطع صغيرة جداً من أغلفة السيلوفان، وبقايا رقائق القصدير، وأعقاب السجائر، وغيرها من الحطام، وذلك للحفاظ على مواقع الرحلة الفردية خالية «من مخاطر الرحلة». لقد سمعوا أيضاً حكايات تحذيرية، وقصصاً عن أخطاء يجب عليهم تجنبها. فذات مرة نسي عامل سيئ الحظ البحث عن جمر متقد أثناء تجريف الرماد من حلقات نار المخيم، وانتهى الأمر باشتعال النار في عربة الغولف الخاصة به. لا تكونوا ذلك الرجل.

في حادثة أخرى كسرتْ مضيفة في المخيم ضلعها عندما رفعت نفسها إلى حاوية قمامة لإعادة توصيل السلسلة المقاومة للدببة، صاحت ليندا: «هذه أنا»، وبدت مستاءة من رؤسائها الذين سردوا قصتها من دون أن يدركوا أن الضحية كانت حاضرة (حصل هذا الحادث في الصيف الماضي، عندما عملت ليندا لفترة وجيزة في بحيرات ماموث في كاليفورنيا. سببت الإصابة كثيراً من الأذى: شعرتْ بصعوبة في التنفس، وفي تأدية أعمال الكنس، والقيادة على الطرق الوعرة في عربة الغولف، والانحناء، وحتى الضحك مع المخيمين. أصر الأصدقاء والعائلة على أن ترى الطبيب الذي أكد أن الضلع مكسور وحثها على تجنب رفع أي شيء أثقل من عشرة أرطال ريثما تتعافى).

عند الساعة الثامنة من صباح يوم الأربعاء، خرجت ليندا وسيلفانا في أول يوم عمل لهما وهما ترتديان زياً موحداً متماثلاً: بنطالاً بنياً وسترةً قصيرة واقية من الريح مع شعار (قمة الجبل) الذي تمت حياكته على الجهة اليسرى من الصدر بنفس هذه الألوان، وتشابهت هذه الملابس مع ملابس حراس

الغابات الفدراليين؛ وقد قيل لهم إن هذا كان نوعاً مفيداً من التمويه عند التعامل مع المشاغبين في المخيمات. استيقظت سيلفانا باكراً لتتبع نظامها الصباحي متناولةً أعشاب إزالة السموم قبل أن تعتزم تناول وجبة الفطور المماثلة لبقية نظامها الغذائي الخالي من السكر واللحوم، والمكوّن من الحبوب المكررة. إنها تـأمل أن يساعدها هذا النظام المفيد في شفاء الخلية السرطانية أسفل عينها اليسرى.

حمّلوا عربة الغولف الخاصة بهم بالأدوات: مدراة (أداة جمع العشب) – مكنسة – مجرفة – دلو معدني لجمع الرماد، ودلو بلاستيكي مليء بمواد التنظيف. كما تم تزويدهم بمنشوراتٍ تتضمن إعلانات عن جولات تدفعها المظلات، أو بواسطة المروحيات، أو السغاوي، أو المركب الشراعي، أو خطوط الزيب لاين، أو سيارات رباعية الدفع، أو زوارق تعمل بدولاب التجذيف تدعى مس ليبرتي؛ كانت سيلفانا، التي تعلمت لتوها قيادة عربة الغولف، متحمسة لاستلام عجلة القيادة، أما ليندا فقد جهزت بندقية الصيد. كان الصباح بارداً ولكنه كان مشرقاً، وكانت أشعة الشمس تتدفق عبر أشجار الصنوبر. نعقت الغربان بين الأغصان، وزقزقت طيور القرقف الجبلية أغنية من ثلاث نغمات على لحن «الفئران العمياء الثلاثة». عند أسفل الأشجار، بدأت نباتات الثلج الأحمر الساطعة على شكل الهليون – والتي تتفتح براعمها في أواخر الربيع وتستخدم الفطريات لسحب العناصر الغذائية من جذور الصنوبريات – تتداخل مع أكوام إبر الصنوبر، وانزلقت سحالي السياج الغربي عبر بقع من الحصى، واختبأت السناجب الأرضية في أوكارها مع اقتراب عربة الغولف.

يمكننا القول إنه سبق لليندا أن قامت بهذا النوع من العمل باستخدام مجموعة من الحيل، فعندما قامت بتطهير الغرف، وضعت منشفة ورقية على لفائف مناديل الحمام لتجنب رشّها. وتحدثت عن حصولها على بعض من (بام) وهو بخاخ طبخ أو مزيلٍ للصدأ و(دبل يو 40)، ولكن البام أرخص، حيث ينخفض احتمال التصاق الأوساخ في مزالق المرحاض. وبعد إفراغ سلة القمامة،

تربطها بمشابك بلاستيكية كي لا تنزلق إلى أسفل الحافة. عندما جرفت الأوساخ عن طاولات النزهة، كانت تنقر عليها بإصبعها، وأوضحت: «بهذه الطريقة لا يمكنهم معرفة المكان الذي توقفتُ فيه، ويبدو الأمر أكثر طبيعية». في أحد الأماكن الفوضوية في المخيم وجدت كيس نوم مفتوحاً ولفافة مناديل حمام مبعثرة على التراب، وإلى جانبها عُلب معكرونة فارغة، وكانت نار الطهو لا تزال مشتعلة. تناوبت ليندا وسيلفانا على إطفائها بأباريق من الماء، فسعلتا من الدخان المتصاعد وأثارتا الرماد الساخن المتقد، ثم حركتا الرماد الساخن المتقد بمجرفةٍ للتأكد من عدم وجود شرارات خفية ستعاود الاشتعال.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، عاد المخيِّمان – وهما ثنائي في العشرينات، وكانا يشعران بالبرد – من نزهتهما إلى حفرة النار التي غمرتها المياه. وعلى الرغم من التوقعات بتساقط الثلوج، كان أحدهما يرتدي قميصاً قصير الكمين ولم يرتدِ سترة، بينما انتعل آخر النعل الوحيد الذي أحضره: شبشبَ غرفة النوم. وجدتهما ليندا هناك، وهما يحاولان جاهدين إعادة إشعال النار. قالت بصبر: «عندما تغادر، من المفترض أن تكون قادراً على وضع يدك في رماد المخيم، من حسن الحظ أننا نحن من وجدناها وليس حراس الغابة. كان الحراس سيفرضون عليكما غرامة». اعتذر الثنائي وقالا: «نعتذر سيدتي بشدة، رجاء اقبلي أسفنا».

كانت ليندا وسيلفانا تتوليان مسؤولية هانا فلات بالكامل، مرتين في الأسبوع. في الأيام الثلاثة الأخرى، تقاسمتا العمل مع مضيفة أخرى في المخيم كانت على دراية بالمنطقة (أحبت تلك الموظفة أن تروي قصة حدثت في العام الماضي، عندما كانت تعمل في الغابة نفسها حيث أخذ شخص عارٍ يجري فاضحاً نفسه وقد لفّ جسمه بالعلم الأميركي – ولا شيء آخر – حتى وصلت الشرطة واقتادته بعيداً). ذهب معظم وقت العمل في تنظيف مراحيض هانا فلات الثمانية عشر في ثمانية وثمانين موقعاً للتخييم. بصرفِ النظر عن مهام الحراسة، قامتا بالتحقق من المُخيمين الجدد، وجمعتا الرسوم، ووضعتا

علامات حجز الموقع، وقدمتا نصائح حول المشي لمسافات طويلة، وسَوَّتا النزاعات الصغيرة، وجرفتا حفر النار، وقامتا بالأعمال الورقية. كان المُخيمون يأتون إليهما لشراء الحطب الخاص بالشركة بقيمة 8 دولارات للحزمة، وهو موضوع في قفص في موقع مُضيف المخيم. وغالباً ما كانوا يبتعدون من دون أن يشتروا شيئاً، آخذين بنصيحة ليندا وسيلفانا لكشط الأخشاب من الغابة وفقاً للقاعدة التالية: الغصن اليابس والناكس والعاكس. في بعض الأحيان في نهاية الجولات، كانت ليندا تتعب من طول الشرح وتضطر إلى أخذ قيلولة.

ليس بالأمر السهل أن تعيش بالقرب من لافتة مكتوب عليها مخيّم لأن ذلك يعني أنك أسيرُ احتياجات المُخيِّمين في جميع الأوقات. إذن متى تكون ساعات الراحة؟ إذا كان مُضيف المعسكر موجوداً وكان هناك عمل يتعين القيام به، فمن المتوقع أن يقوم المضيف بذلك. عندما ظهرت عربتان في مخيم هانا فلات ذات ليلة عند الساعة 11:30، توجه المُخيمون مباشرة إلى مقطورة الملكة ماريا إيزميرالدا، وأيقظوا سيلفانا لتسجّل وصولهم.

كان على مضيفي المخيم أن يطبقوا قانون التزام الهدوء الليلي، ويتعاملوا مع شكاوى الضجيج، وحاولت ليندا اتقاء المشاكل بطريقة ودية للغاية، عندما وصلت مجموعة من الأقارب الذين بدا أنهم شركاءُ للمرة الأولى، كانت تقول لهم: «نريدكم أن تستمتعوا، ولكن بعد العاشرة نريدكم أن تستمتعوا حقاً بهدوء». عندما وجدت المخيم مليئاً بزجاجات الجعة، وبدلاً من مطالبة المُخيمين بتنظيفه قدمت عرضاً مفيداً: «أستطيع أن أحضر لكم بعض أكياس القمامة الكبيرة».

من المتوقع أن تعمل ليندا وسيلفانا 24 ساعة كاملة في الأسبوع، لكن لا توجد ضمانات. في منتصف الشهر، خلال العمل، أخبرهما المشرف فجأة أن حجوزات موقع المخيم منخفضة وأن الشركة بحاجة إلى خفض التكاليف. ونتيجة لذلك، ستعمل ليندا وسيلفانا خلال الأسبوعين التاليين أقل بالربع من جدول عملهما، بذلك انخفض أجر ليندا الأسبوعي 290 دولاراً (حتى أنها أقل من

سيلفانا، التي لم تتلقَّ زيادات أجور العمال العائدين إلى العمل، تلك التي حصلت عليها ليندا).

لم تشتكِ ليندا وسيلفانا من تقلب الحدّ الأدنى لساعات العمل المدفوعة، لكنهما اشتكتا من تدني الأجر السنوي. وكانت الشكوى المشتركة بين موظفي المخيم والمليئة بالإحباط هي:

من المتوقع أن تعملا عدد ساعات أكثر لا يتناسب مع عدد الساعات الثابت الذي تتلقيان أجرهما عليه. وقد تحدث عن ذلك أحد العمال الذي يبلغ الستين من عمره، والذي توظف في إدارة أراضي كاليفورنيا للمرة الأولى في العام 2016، عندما أرسل لي بريداً إلكترونياً ذكر فيه: «إن المُخيم هو رحلة، ولكن الإدارة ترسل كثيراً من الرسائل المتضاربة. أنا أعمل لمدة ثلاثين ساعة في الأسبوع، لكن في بعض الأسابيع عملت أكثر من 45 ساعة، راجعتهم في ذلك، فقللوا ساعات العمل ولم يدفعوا الساعات التي عملتها أصلاً». مع ذلك، لم يدفع مديروه مقابل الساعات الإضافية التي عمل فيها بالفعل.

ردّد ذلك زوجان من موظفي المخيم وهما في أواسط الستينات، غريغ وكاثي فيلالوبوس، لموقع إخباري رسمي في العام 2014. قالا إنه أثناء عملهما في مخيم لإدارة أراضي كاليفورنيا ولصاحب امتياز آخر، كان هناك ألف مقطورة، وكان من المتوقع أن يعملا عدد ساعات أكثر مما سُمح لهما بتسجيله في بطاقات الوقت الخاصة بهما. «أريد أن أروي هذه القصة لمساعدة الآخرين كبار السن، ووقف هذه الممارسة». قال غريغ فيلالوبوس للمراسل إنه أمر مشين للغاية، وخاصة لأنه متعلق بالحكومة الفيدرالية التي تتعاقد مع هذه الشركات.

ادّعت عاملة مخيم أخرى عملت لدى إدارة الأراضي في كاليفورنيا في عام 2015 بأنها وزوجها كانا يعملان في كثير من الأحيان لاثنتي عشرة ساعة أو أكثر في اليوم العادي، ولكن لم يُسمح لهما بتقاضي بدل لأكثر من ثماني

ساعات. وقد كتبتْ: «ما فعلوه بحق الزوجين المسنين واللذين هما بحاجة إلى هذا الدخل كان خاطئاً ويحتاج إلى تحقيق بالأمر». وقد قيّمت أداء الشركة بنجمة واحدة على موقع ييلب.

وردت شكاوى إلى خدمة الغابات الأميركية، التي تُؤجِّر أصحاب الامتياز من القطاع الخاص إدارة المخيمات العامة. وقدمتُ طلباً وفقاً لقانون حرية الوصول إلى المعلومات إلى المكتب الإقليمي لجنوب غرب المحيط الهادئ التابع للوكالة حتى أتمكنَ من الاطلاع على بعض المستندات. وعندما وصلتْ المستندات أخيراً، حجب المراقب أسماءَ الموظفين وأعمارهم ومعلومات الاتصال بهم. وفي إحدى الرسائل، قال موظف يعمل في إدارة الأراضي في كاليفورنيا منذ أربعة عشر عاماً إن زملاء العمل لم يُزوّدوا بالماء أثناء العمل في جوٍ حار. «حتى العمال الميدانيون الذين يعملون في الظلّ يتم توفير الماء البارد للشرب لهم. فلماذا لا تؤمن ذلك لموظفيك؟». تمت قراءة الرسالة. تم إحصاء عدد الرحلات لمضيفٍ واحد في المخيم تم تعيينه للعمل بمفرده في اثنين من المخيمات – مقهى المخيم العلوي والسفلي في سفوح سييرا نيفادا – في 109 (درجة / يوم)، و«تم نقله بواسطة سيارة الإسعاف مرتين بالفعل بسبب الحرارة المرتفعة». وأضفتُ، أنّ الموظف نفسه «عمل لساعات إضافية عديدة لكن مدير الموقع أخبره أن لا يدوّن أي وقت إضافي على بطاقة الوقت الخاصة به. وأنا متأكدة أن الموظفين الآخرين يعاملون بالطريقة نفسها أيضاً».

في شكوى أخرى، لمضيفٍ سابق عمل لدى إدارة الأراضي في كاليفورنيا في غابات سيكوا الوطنية كتب:

> *«لقد عُوملت بطريقة قاسية جداً بصفتي عاملاً غير دائم، حيث كنت أعمل مقابل 8.5 دولار في الساعة لمدة «أربعين ساعة»، ولكن بشكل روتيني كان يتعين عليّ العمل من خمسين إلى ستين ساعة مقابل نفس أجر الأربعين ساعة بدون فترة وقت*

إضافي حتى بالأجر المعتاد. لذلك لا تدفع إدارة الأراضي في كاليفورنيا حداً أدنى للأجور. لا أقصدُ بكلمة «العمل» الوقت الاحتياطي، ولكن ثماني ساعات كاملة من التجريف المكثف، ورفع الأنقاض وتنظيفها، وتنظيف العديد من حفر المراحيض عدة مرات في اليوم، وحفر النار، وتأهيل الطرق وما إلى ذلك، ثم القيام بالتسجيلات حتى الساعة 9 مساءً تقريباً. لقد عملوا معي في الأسبوع الأول ستة أيام متتالية، من 11 إلى 12 ساعة في اليوم. بعد عدة مناقشات عبّرتُ أخيراً عن بعض هذه المخاوف لمشرفي الذي نعتني «بالشرير» وقال لي: «أغلق مصيدة الشر الخاصة بك» و«خذ شرّك بعيداً إلى ولاية أوريغون».

لقد كتبتُ إلى إدارة الأراضي في كاليفورنيا حول هذه المظالم، وسمعتُ من إريك مارت، رئيس الشركة: «يمكنني أن أؤكد لك أن سياساتنا (التي هي متماثلة ومتاحة بالنسبة إلى جميع الموظفين)، وتدريبنا، ومعيار عمليات الإنتاج لدينا، تتعارض مع ما يدّعيه هؤلاء الموظفون». وتابع: «إن إدارة الأراضي في كاليفورنيا حققت في ثلاثِ شكاوى على الأقل، ووجدت أنه لا أساس لها» (على الرغم من ذلك، تم تعويض أحد العمال بناءً على مطالبة بساعات غير مدفوعة الأجر). وأضاف أنَّ آخر هذه القضايا – التي أشارت إلى قيام مدير بالإساءة إلى موظف ووصفه له بأنه «فاسق» – أثارت تحقيقاً منفصلاً بواسطة دائرة الغابات الأميركية.

لكن المسؤولين الفيدراليين قالوا عكس ذلك. عندما تواصلتُ مع إدارة الغابات الأميركية بشأن الرسائل المحددة لهؤلاء الموظفين، قيل لي إن الوكالة لا تنظر في مثل هذه المظالم مباشرة. وبدلاً من ذلك، فإنها تحول الرسائل الموجهة إلى صاحب الامتياز الذي يتظلم منه العمال، والتي بدورها – في هذه الحالة – ستذهب إلى إدارة أراضي كاليفورنيا. هذه هي السياسة

الرسمية للوكالة، على الرغم من أن خدمة الغابات الأميركية هي المسؤولة عن إصدار وتجديد تصاريح الامتياز، وفي النهاية، عن كيفية إدارة الأراضي العامة.

وأوضح المسؤول الصحفي جون سي هيل الثالث في رسالة بالبريد الإلكتروني أن «دائرة الغابات ليس لديها سلطة التصرف في الشكاوى المتعلقة بانتهاكات قانون العمل أو التمييز أو أي نوع آخر من الشكاوى ضد أرباب العمل الخاصين، بما في ذلك إجراء أي تحقيق».

أثناء متابعة المكالمة الهاتفية، سألته إذا كان حقاً يريد ذلك، على أن تكون الاستجابة الكاملة للوكالة. وأضفت: «من الغريب أن يبدو أصحاب الامتياز، ظاهرياً تحت سيطرتك، لكن يبدو أن لا سلطة لك عليهم». فأوضح هيل أنه أجرى بحثاً عن بروتوكول خدمة الغابات، والذي يهدف إلى إعادة توجيه جميع الرسائل، ولم يكن لديه شيء أكثر ليقوله.

***

عندما تعوّدت ليندا على هانا فلات التقيت بها بعد أسبوعين ونصف، جلسنا معاً لساعات في مقطورتها ليلاً، وسردت قصة حياتها على مراحل؛ هي أكبرُ أشقائها الثلاثة. كانت ليندا تعشق والديها على الرغم من عيوبهما، فوالدها يعاقر الشراب، حيث كان يعمل بشكل متقطع ميكانيكياً في أحواض بناء السفن في سان دييغو، بينما كانت والدتها تعاني من الاكتئاب المزمن. تنقلوا بين العديد من الشقق، وانتقلوا سبع مرات في عام واحد، وفي وقت من الأوقات غادروا كاليفورنيا ليقضوا فترة قصيرة مع العائلة في بلاك هيلز في ساوث داكوتا. في طريقهم إلى الشرق، انحشرت ليندا في شاحنة مع والديها وأخويها، بالإضافة إلى كل ما يتعلق بهم من أثاث وبرفقة كلب ألماني يُدعى بيتر جونز بيري. اضطرت والدة ليندا إلى قلع بعض الأسنان في الوقت نفسه تقريباً. تتذكر ليندا قائلة: «لم يستطع والدي أن يوفر لها طقم أسنان تضعه في

فمها، ها نحن هنا في هذه الشاحنة مع كل هذا الأثاث في الخلف؛ والدتي بلا أسنان، ثلاثة أطفال، وكلب لعين».

بمرور الوقت، أصبح مزاج والد ليندا عنيفاً بشكل متزايد. في بعض الأحيان، كان يضرب شقيقها على رأسه بملعقة الطعام الكبيرة على مائدة العشاء، ويضرب والدة ليندا، ويطرحها على الدرج، ويقذف بها كدميةٍ محشوة. خلال إحدى المعارك، اختبأت ليندا، التي كانت في السابعة من عمرها تقريباً، في الزاوية الخلفية لغرفة نومها في الطابق العلوي. وهناك قطعت وعداً على نفسها: لن يحدث هذا أبداً معي.

في غضون ذلك، عانت ليندا من عسر القراءة، على الرغم من عدم معرفة أحد بذلك. عندما وصلت ورقة علاماتها، ذُكر بها شيء من قبيل: «ليندا تتمتع بقدرات اجتماعية، ولكنّها لا تطبقها». شعرت ليندا وكأنّها بطة، بدت للناظرين من الشاطئ وكأنها تنجرف بدون أي جهد تبذله، لكن تحت الماء كانت قدماها تتمايلان بشدة.

لقد تركت المدرسة الثانوية، ولكنها نجحت في النهاية في اختبارات التطوير التعليمي العام، إلى جانب شهادة في تكنولوجيا البناء، وشغلت وظائف من بينها سائق شاحنة، ونادلة، ومقاولة عامة، ومالكة متجر أرضيات، ومندوبة تأمين، ومفتشة بناء، وممثلة لدائرة الإيرادات الداخلية، ومقدمة رعاية في منشأة جراحة الإصابات الدماغية، ومطعمة كلاب، ومنظفة دار رعاية المسنين الحكومي – وهي لا تزال تحمل ندبة من عضة كلب نوع شيه تزو – وعملت بإزالة ريش البط والسمان في نُزل للصيد. وربت ابنتين بمفردها تقريباً.

لقد استمعتُ باهتمام، واستوعبتُ قدر ما يمكن أن يساعدني في فهم بعض الأسئلة المزعجة: كيف ينتهي الأمر بامرأة تبلغ من العمر أربعة وستين عاماً تعمل بجد من دون منزل أو مكان دائم للإقامة، معتمدة على عمل

منخفض الأجر لا يمكن أن تتوقع منه أن يبقيها على قيد الحياة؟ والعيش في برية جبال يبلغ ارتفاعها ميلاً، مع تساقط الثلوج بشكل متقطع وربما مع وجود أسود الجبال، في مقطورة صغيرة، وتنظيف المراحيض تحت رحمة أرباب العمل الذين – في نزوة – يمكن أن يخفّضوا ساعات عملها أو حتى يطردوها؟ كيف يبدو المستقبل بالنسبة إلى شخص مثلها؟!

على الرغم من أنه لم يكن لديّ شيء مهم، فقد حان الوقت للعودة إلى المنزل. تركت ورائي كثيراً من الطعام: بعض اللحوم الباردة، والطماطم، والبيض، واللحم المقدد، والجبن، واللفت، والحساء، والجزر، والتورتيلا. ذهب معظمها إلى حصة ليندا بسبب النظام الغذائي المحدود لسيلفانا.

قالت ليندا: «سيساعد هذا كثيراً، سيهبط دخلي إلى أقل من عشر دولارات عندما يحين موعد الدفع».

عندما حزمت أمتعتي للمغادرة، قامت ليندا وسيلفانا بإشعال نار المخيم. استخدمتا كدسة من النسخ الورقية القديمة من تقارير الوصول اليومي، والتي توضّح مواقع المخيمات التي تم حجزها. كان من المفترض أن يتم حرق التقارير أو تمزيقها. سألتها: إذا كان الدخان المنبعث من الأوراق يحمل رسالة إلى السماء، فماذا ستكون؟ أجابت ليندا: «ذهبنا للتخييم! قضينا وقتاً رائعاً! كانت الحمامات نظيفة!».

قاربت الشمس على المغيب وتسلل البرد.

ارتجفت ليندا وسيلفانا، وهما تعتمران قلنسوتين وسترتي عمل مبطنتين بالصوف، وتحدثتا عن بدء العشاء. لن يكون هناك المزيد من المخيمين لتسجيل الوصول الليلة. لقد وضعتا بالفعل لافتة عند المدخل كُتب عليها «المخيم ممتلئ».

ودَّعْتُهما، وبدأت بتشغيل عربتي. وقفت مضيفتا المخيم ولوحتا لي. صرختُ: «لا تدعا المُخيمين يحرقون الغابة!». هزّت ليندا رأسها، وأخذت

تصرخ.

«عندها سأكون بلا عمل!».

الفصل الثاني
النهاية

في يوم الشكر عام 2010 – قبل أن تبدأ حياة الترحال – جلست ليندا ماي بمفردها في المقطورة حيث كانت تعيش في نيوريفر، أريزونا. كانت الجدة الستينية ذات الشعر الفضي تفتقر إلى الكهرباء والمياه الجارية لأنها لا تستطيع تحمل فاتورة الكهرباء. لم تستطع العثور على عمل، بعد أن نفدت إعانات البطالة الخاصة بها. عائلة ابنتها الكبرى، والتي عاشت معها لسنوات عديدة أثناء عملها في سلسلة من الوظائف منخفضة الأجر، انتقلت مؤخراً إلى شقة أصغر، بثلاث غرف نوم لستة أشخاص؛ لم تكن هناك مساحة كافية تتيح لها العيش معهم. لقد كانت محاصرة في مقطورة مظلمة ولا مكان تذهب إليه.

قالت لنفسها: «سأشرب كل هذا الشراب. وسأفتح قارورة البروبان، وسأفقد الوعي وهذا ما سيكون، وعندما أصحو سأشعل السيجارة وسننفجر جميعاً ونتجه إلى الجحيم».

كان كلباها الصغيران، كوكو ودودل، يحدقان إليها (دودل– كلب صغير أجعد الشعر، سيموت قبل أن تنتقل ليندا إلى سكويز إن) لقد ترددت، إذ لا يمكنها أن تتخيل قيامها بتفجيرهما حقاً؟ لم يكن ذلك خياراً. لذا، وبدلاً عن ذلك، قبلت دعوة للعشاء في بيت أحد أصدقائها في يوم الشكر. لكن اللحظة التي رأت فيها أن عزمها متزعزعٌ، لم تكن شيئاً يمكن أن تنساه بسهولة. تعتبر ليندا

نفسها شخصاً مرحاً وسعيداً، ولم يسبق لها أن فكّرت بجدية في فكرة التخلي عن كل شيء. كما تذكرت لاحقاً: «لقد كنتُ محبطة للغاية لدرجة أنني لم أستطع رؤية مخرج». كان لا بد من تغيير شيء ما.

بعد ذلك بعامين، وجدت ليندا نفسها قريبة من الحافة. كانت تعمل أمينة صندوق في هوم ديبو مقابل 10.50 دولارات في الساعة في ليك إلسينيور، في كاليفورنيا. في بعض الأسابيع، كان من المقرر لها أن تعمل فقط بين عشرين إلى خمس وعشرين ساعة، وهو ما يكفي بالكاد لتأمين مبلغ 600 دولار شهرياً، وهو المبلغ الذي تحتاج إليه لتغطية كلفة المقطورة التي كانت تستأجرها في منتزه البيوت المتنقلة على شاطئ إكريس، وقد استغرق الحصول على هذه الوظيفة شهوراً، بغض النظر عن أن سيرتها الذاتية تضمنت شهادتين في البناء، بالإضافة إلى عام ونصف في هوم ديبو في لاس فيغاس، حيث كانت تكسب قرابة 15 دولاراً في الساعة كمنجزِ أعمال، وهو منصب كانت تستمتع به لأنه كان يُعنى بحل المشكلات بشكل فردي للعملاء. كان العمل وفقاً للحاجة يشعرها بالإحباط بعد كل ذلك. ومع هذا، حاولت تحقيق أقصى استفادة منه. تتذكر: «لقد جعلوني أمينة صندوق، وأنا لديَّ كل تلك الخبرة، ولذلك قلت: حسناً، سأكون أفضل أمين صندوق هنا». كانت ليندا تتحادث مع الزبائن وتسألهم عن مشاريعهم وتساعدهم ما أمكنها ذلك. عندما وصل أحد أصحاب المنازل إلى المنضدة مع لوح خشبي غير مناسب للسقف، نصحته بمادة أخرى تسمى «اللوح المضفور المنحني»، وبأنها ستؤدي المهمة بشكل أفضل (وهي أرخص بـ 500 جنيه). فقال: «لماذا يضيع الهوم ديبو هذا النوع من المعرفة في وظيفة أمينة صندوق؟»، فأجابته: «أرى أنهم متحيزون لصغار السن».

تساءلت ليندا، ولأكثر من مرة، كيف يمكن لأي شخص أن يتحمّلها حتى تكبر. من بين الوظائف العديدة التي شغلتها في حياتها، لم يجلب أي منها قدراً يسيراً من الاستقرار المالي الدائم.

قالت: «لم أتمكن من الحصول على معاش تقاعدي لنفسي». علمت ليندا أنها ستكون مؤهلة قريباً للحصول على الضمان الاجتماعي. لم تهتم أبداً ببياناتها السنوية، وفوجئت عندما قرأت إحداها وعلمت أن فوائدها الشهرية ستكون قيمتها 500 دولار تقريباً، وهي لا تكفي لتغطية الإيجار.

قامت ليندا بتنشئة ابنتين بمفردها بصفتها أماً وحيدة. لقد عرفت ما تعنيه عبارة «العناية بشخص ما».

علّمتها والدتها أنه يمكنها بباوند واحد من الهامبرغر تحضير وجبات تكفي لمدة أسبوع لإطعامها هي وأخويها. ولمّا كان العشاء عبارة عن معكرونة بولونيز – وكانت قِطع اللحم غير ظاهرة في صحونهم – فقد كان الأطفال يمازحون أمهم قائلين إنها وضعتْ اللحم المفروم في جورب ولوّحت به فوق القدر لإضفاء خلاصة النكهة على الطعام. من وقت إلى آخر، عندما كانت الأسرة تستقبل طفلاً إضافياً، وكان الوالدان يواجهان مشكلة، كانت ليندا تقول مازحة إن والدتها «كانت تلوح بالهامبرغر الموجودة في الجورب فوق المقلاة مرة أخرى»، لاستيعاب الوافد الجديد.

ربما بسبب هذا، كانت ليندا متعاطفة مع الأشخاص الذين لم يحالفهم الحظ. في أوائل العام 1990، كانت تدير متجراً للسجاد والبلاط يسمى شيروكي إنتيريير في مدينة بولهيد، أريزونا؛ حيث كان الرجال المشردون يتجمّعون بعد ساعات العمل عند صنبور مفتوح خلف المبنى للاغتسال، وملء أباريق المياه الخاصة بهم. قالت لهم: «هذا أمرٌ جيد تماماً، فقط تأكدوا من إغلاقه عند الانتهاء. لا تنسوا ذلك!». كان الهيكل المصمّم على طراز الكابينة الخشبية يحتوي على شرفة فيها أعمدة ربط مطوية أسفل طبقةٍ معلقة. عندما بدأ أحد الرجال يقضي الليل هناك، قامت بتفويضه قائلةً: «حسناً، إذا كنت ستنام هنا، فإن وظيفتك هي حارس ليلي»، مشيرةً أن عليه أن يخبر ذلك لأيِّ ضابط شرطة قد يحاول طرده.

أخبر أحد الرجال، الذي كان يعمل في تقليم الأشجار سابقاً، ليندا أنه يريد مغادرة الشارع. وكان يعتقد أنه يمكنه أن يجني بعض المال من العمل في المدينة التي أرسلت متعاقدين لإزالة الحشائش التي تملأ الممتلكات. ساعدته في جمع التبرعات للبدء بالعمل: مكانس، جزازة عشب، القليل من المال للحصول على الوقود. تجولا معاً وبحثاً عن أراضٍ فيها حشائش وضعتها المدينة ضمن مزاد. حاولت ليندا باستخدام رخصة عملها، الحصول على العديد من العقود.

ثم حدث أمران سيّئان. أفلس متجرها لأن شريكها في العمل احتفظ بمجموعتين من الدفاتر (البيانات المالية)، لتحقيق مكاسب وأرباح لصالحه الشخصي. وتهرُّبُ قاطع الأشجار السابق من الوظائف التي كانت ليندا تؤمنها له. فعندما عُرض عليه طلاء منزل في لاس فيغاس، هرب من المدينة من دون طلاء ما اتفق عليه.

ما زالت ليندا تشعر بأنها محظوظة: «الحمد لله، أعلم أنه ترك العمل لي».

تذكرتْ: «لم يكن لديّ أيُّ وسيلة لكسب المال، ولكن كان لدي كلُّ هذه العقود». قبل فترة طويلة، كانت تضغط على جزّازة العشب في أيام الصيف الحارة. وعندما كانت درجات الحرارة ترتفع أحياناً إلى 120 درجة فهرنهايت، أصبحت على معرفة بأعراض ضربة الشمس: «إذا خرجت في الشمس أكثر من أيِّ وقت مضى وبدأت تشعر بالقشعريرة، اخرج من هناك». أكسبتها العقود قرابة 150 دولاراً. غالباً ما بدأت العمل عند الفجر وانتهت بحلول الظهيرة، وعادت في وقت لاحق من اليوم لإنهاء جمع الأنقاض وتعبئتها.

«قبل أن أقبض أوّل أجر لي، لم يكن لديَّ نقود لنقل الأنقاض إلى مكب النفايات، لذلك أخذناها إلى البحيرة» ثم قالت وهي تتذكر رحلة إلى بحيرة ميد: «لقد اشتعلت النيران وكانت الرياح شديدة، أججت الريح النيران المشتعلة

بالأعشاب الجافة وقادتها باتجاه الشاطئ». نزل الحارس وقال: «لا يمكنك فعل ذلك». قالت في سرها: «أحبُ القيام بهذا العمل، لقد قمتُ به فعلاً. فأنا بالفعل ألقيت التراب عليه؛ وأطفأته».

تتذكر ليندا، التي درست تقنية البناء: «من هناك اقتنعتُ أنه لا يمكنني البقاء في الخارج في درجة حرارة تصل إلى 48 درجة وأنا أنبش الحشائش. لم أذهب إلى الكلية من أجل هذا». في تلك الأثناء وجدت ابنتها البكر وزوجها عملاً في كازينو الصاخبة، كانت الابنة تعمل في مطعم وزوجُها يعمل في خدمة ركن السيارات. وسرعان ما حصلت ليندا على وظيفة بائعة سجائر في كازينو ريفر سايد في مدينة لاوغلين المزدهرة للمقامرة في نيفادا. أراد مالك الكازينو التي تحمل الاسم نفسه (ريفر سايد دون لافلين) – أن يطلق عليها اسم «كازينو» لكن تم رفض طلبه من قبل خدمة البريد الأمريكية.

كانت ليندا ممتنة للغاية لإتاحة الفرصة لها لدرجة أنها أرسلت إلى دون لافلين عشرين وردة. تم استدعاؤها إلى مكتبه، وسألها في حيرة من أمره: «ما هذا؟».

قالت: «إنه شكر صادق يا دون، ليس هناك سبب آخر. أردت فقط أن أشكرك على الوظيفة، أنا لا أبحث عن أي شيء آخر».

في الكازينو، باعت ليندا الحلوى والزهور والتبغ من صينية على حزام كتف. كانت الصينية ثقيلة جداً لدرجة أنها اضطرت لارتداء دعامة الظهر للمساعدة في حملها. حتى مع الدعامة، حصلت على تمرين جديّ. تتذكر قائلة: «لقد انتقلت من سجائر قياس أربع عشرة إلى قياس عشر».

اشترت ليندا الورود بالجملة مقابل 96 سنتاً للوردة الواحدة ثم باعتها مقابل أربعة دولارات مع دولار بقشيش. اشترت السجائر بالكرتون، ثم باعتها بربح 50 سنتاً للعلبة الواحدة. وبالتدريج تعرفت على المقامرين، فالمقامر كرجل يعاني من صداع دائم، ويمكنك أن تبيعه علبة الأسبرين والتي يساوي

ثمنها 25 سنتاً بخمسة دولارات. وفي ليلة سعيدة كانت تبيع بما قيمته مئتين إلى ثلاثمئة دولار. وقد حصلت أيضاً على مصدر دخل ثانٍ، وهو توظيف الناس والإشراف عليهم لتنظيف نباتات الزينة الاصطناعية في الكازينو.

لكن، وبعد أن وصل عمل بائعات السجائر إلى أفضل حال في ريفر سايد، انتهى فجأة مع وصول آلات بيع التبغ. دعا دون ليندا مرة أخرى إلى مكتبه لينقل لها خبر انتهاء مدة عملها لديه. لكنه لا يريد طردها. واقترح عليها التحدث مع ديل، وهو المدير العام، لإيجادِ عمل آخر لها. قصدت ليندا مكتب ديل، ودخلت معه مباشرة في صلب الموضوع، سألته:

«من الذي يكسب أكبر قدر من المال في هذا المكان؟».

أجاب ديل: «حسناً، ربما البائعة أو النادلة».

قالت ليندا: «أعتقد أنني أفضل أن أكون نادلة».

ترافقت الوظيفة الجديدة مع زيٍّ رسمي: معطف ذي ذيل صغير، تحته قميص أحمر مع سروال قصير للرقص من النايلون ومعه كعب. هذا الزي لم يترك مجالاً للخيال، وهذا ما جعل ليندا متوترة، فكرت: «لا أعرف إن كان بإمكاني ارتداء ذلك»، لكنها قررت أن تجربها. عندما ارتدتها للمرة الأولى، أخبرها المشرف عليها أنها تبدو جميلة به. ولدهشة ليندا فقد وافقت. في داخل الكازينو شعرت بالحماية من قبل الحراس، الذين لم يتسامحوا مع المقامرين الذين يتصرفون بشكل غير محترم مع النادلات. قالت ليندا: «لقد رأيت رجال الأمن يمسكون الناس من مؤخرة أعناقهم دافعين أبواب الكازينو الأمامية بوجوههم».

تنظر ليندا إلى السنوات التي أمضتها في ريفر سايد باعتزاز، وما زال لديها صورة لنفسها وهي ترتدي زيّها الرسمي الكامل، مبتسمة، بشعرها الداكن القصير ونهرُ كولورادو خلفها. لكنها كانت في الأربعين من عمرها.

ستتضاءل خياراتها في العمل مع تقدّم العمر، بدل من أن تتسع لتعكس سنوات خبرتها. يبدو أنّه لا مجال للخروج من دوامة الوظائف منخفضة الأجر.

في الستينات من عمرها، كان السؤال الذي يلوح في الأفق، كيف ستتحملُ التوقف عن العمل؟

ليندا بالزي الرسمي في كازينو ريفر سايد

لقد أمضت معظم حياتها تدفع أقساطاً هنا وهناك دون أن تدّخر شيئاً يذكر. شبكة الأمان الوحيدة بالنسبة إليها والتي هي الضمان الاجتماعي، كانت ضعيفة على نحو خطير. كيف سيبدو التقاعد بالنسبة إليها عندما يترافق مع مبلغ قدره 500 دولار؟

في الوقت نفسه كان لدى ليندا كثير من الأحلام عن مستقبلها، وهذا لا يتضمن أيّاً من السيناريوهات القديمة؛ مجتمع مسيّج في فلوريدا أو حتى عدة جولات من الغولف. كانت آمالها بالمعنى الحرفي للكلمة ممسوحة مع الأرض، مملوءة بالأوساخ ونفايات الآخرين.

لقد أرادت بناء سفينة أرضية: وهي منزلٌ يعمل بالطاقة الشمسية السلبية، مَبنيٍّ باستخدام مواد مهملة مثل العلب والزجاجات، مع إطارات مملوءة بالتراب محمولة على الجدران. وقد اخترعها المهندس المعماري الراديكالي مايكل ريونالدز من نيو مكسيكو، وكان يعمل على هذا منذ عام 1970. صُممت السفن الأرضية لإبقاء سكانها خارج الشبكة الكهربائية تماماً. حيث تعمل جدران الإطارات، مثل البطاريات، على امتصاص حرارة الشمس من خلال مجموعة من النوافذ الموجهة للجنوب نهاراً، ثم يتم تحريرها في الليل لتنظيم درجة الحرارة الداخلية. إن مياه الأمطار والثلوج الذائبة تجري عبر مصرف من السقف إلى خزان يعمل على تنقية المياه وإعادة استخدامها للشرب والغسيل، فتروي حدائق الفاكهة والخضروات الداخلية، وتؤمن المياه للتنظيف والمراحيض، وتوفر الكهرباء من خلال الألواح الشمسية، وفي بعض الحالات من خلال طواحين الهواء.

على الرغم من الجانب النفعي فيها، فإن العديد من السفن الأرضية لها لمسةٌ خيالية – أبراج وأبراج، وأعمدة وأقواس، وجدران مكسوّةٌ بالطين بألوان زاهية، أو بصفوف من الزجاجات المطعّمة بحيث تشبه الزجاج الملون. لا يتطلب بنائها أي تقنيات متطورة، وهذا ما يترك مجالاً للإبداع ويجعلها سهلة على البنائين الهواة. ينتشر العشرات منها في الصحراء خارج مدينة تاوس، في نيو مكسيكو، في تقسيم يعرف باسم مجتمع الأرض العالمي الأكبر. تبدو مع بعضها وكأنها مستعمرة على سطح القمر شارك في إنتاجها الدكتور سوس أنتوني غاودي ومجموعة مصممي ستار وور (حرب النجوم).

إن فكرة إنشاءِ مسكن فريد من نوعه صديق للبيئة ويتمتع بالاكتفاء الذاتي جذبت ليندا بشدة. قالت: «إنه ليس إنتاجاً جماعياً. إنه مثل العيش في قطعة فنية، وهو شيء أستطيع أن أبنيه بيدي». بدأ افتتانها بسفن الأرض بعد انتقال الممثل في غنسموك (دخان وبارود) دينيس ويفر إلى كولورادو في العام 1989 لبناء واحدة من هذه السفن. لقد صنع فيلماً وثائقياً حول العملية،

وتم بثه على مدار سنوات على شاشات التلفاز العامة، حيث قدم توضيحاً لهذا المفهوم للتيار الرئيسي في أميركا. عندما يُفتتح الفيلم، يقف الممثل ذو الشعر الرمادي، فوق جدار منخفض، يدق التراب بمطرقة ثقيلة ويضعه في إطار. ينظر إلى الأعلى ويخطو بشكل هادف نحو الكاميرا، ويسأل: «كيف تريد أن تعيش في منزل من دون فواتير كهربائية، ولا مكيف، ولا قنوات تدفئة، وتظل مرتاحاً تماماً في أشد شتاء برودة أو أشدّ صيف حرارة؟ هل هذا يبدو جنونياً؟». بفرحٍ ينضم إلى طاقم البناء. يكشط اللحاء عن جذوع الأشجار ليصنع دعامة للسقف ثم يقطع مزيجاً من الطين والرمل والقش فوق الإطارات المليئة بالعلب والتي ستصبح جدار غرفة نومه.

لم يفهم الجميع شغف الممثل بالعيش في كدسة إطارات متألقة، فأطلق عليها السكان المحليون لقب «قصر ميشلان». في برنامج تونايت شو سأله جاي لينو ما إذا كان جيرانه يعتقدون أنه يضيف إلى البناء كلما أخرج القمامة، وأضاف: «عندما يأتي جامع القمامة، كيف يعرف أين تبدأ القمامة وينتهي المنزل؟».

بغض النظر عن المواد المتواضعة، فقد كلف بناء مسكن دينيس ويفر الذي تبلغ مساحته 10آلاف قدم مليون دولار، وهو حالة متطرفة لما يمكن أن نطلق عليه «سفن الأرض للأثرياء والمشاهير». كانت كلفة بناء معظم سفن الأرض، تتقارب مع أي منزل تقليدي، على الرغم من أن إحدى العائلات النيوزيلندية تمكنت من بناء سفينة أرض بما يقل عن عشرين ألف دولار. كتب بريان جوب، وهو أب فخور لخمسة أطفال: «أنا أؤمن بعمالة الأطفال»، مضيفاً أن زوجته اعتقدت في البداية أنه «مغفل» لرغبته في بناء سفينة على الأرض. في سياتل، قررت مجموعة من المتحمسين لسفن الأرض صنع نسخة صغيرة ومبسطة لاستخدام مواد الكسح مجاناً، عن طريق العمل التطوعي، والتبرع السخي في طريق صديق. هيكلهم المصغر –الذي أطلق عليه المناوب الأسبوعي المحلي اسم «الزورق الأرضي» – هو عمل قيد التطوّر.

توجد سفن الأرض في كل قارة باستثناء القارة القطبية الجنوبية. قام المتطوعون المتنقلون للإغاثة في حالات الكوارث ببنائها في أعقاب كوارث مثل تسونامي المحيط الهندي عام 2004، وزلزال هاييتي، وإعصار هايان في الفلبين في عام 2013. وربما كانت هيفنز غيت أكثر شركات بناء السفن شهرة حتى الآن، حيث أقام أعضاؤها منزلاً من الإطارات في مجمع نيو مكسيكو. وفي أعقاب الغليان الإعلامي الذي تبع انتحارهم الجماعي عام 1997، أكد الفنان مايكل رينولدز لأمريكا أن السفن الأرضية لا علاقة لها بذلك، وقال لوكالة أسوشيتيد بِرِس إن «الأشخاص الغامضين المجانين يحتاجون إلى سكن تماماً مثل أي شخص آخر. نحن نعلّم الناس هنا أن يبقوا على صلة مع الكوكب، لا أن يتركوه».

كانت ليندا واحدة من أكثر المعجبين المتحمسين لرينولدز، إنها تحترم مدى صعوبة كفاحه لتحقيق رؤيته من خلال وقوفه ضد البيروقراطيين الذين أيدوا لوائح الإسكان الغامضة، وهو صراع أُرِّخَ في فيلم غاربدج واريور.

قالت متحمسة: «ألا تحب أن تعرف ما يدور في عقل مايكل رينولدز؟ لقد كان يقاتل منذ السبعينيات، وسحبوا رخصة الهندسة المعمارية الخاصة به لأن منازله الأولى كانت فاشلة».

في السنوات الأخيرة، جادل رينولدز بأن سفن الأرض الخاصة به يمكن أن تؤدي دوراً في توفير الضروريات البشرية الأساسية ولا تخضع لرحمة السوق. يقول: «علينا أن نؤمّن للناس مصدر رزق مضمون لا يتحكم فيه الوحش الذي يدعى الاقتصاد». لقد قرأت له هذا التصريح على موقعه الإلكتروني: «إن الاقتصاد لعبة. ويجب أن تشمل هذه اللعبة أشياء غير أساسية (الدراجة النارية، الحاسوب، التلفاز)، أما الأشخاص المعيلون لأسرهم، والأمور الضرورية للحياة، والحصول على مأوى... هذه الأشياء ينبغي ألّا تخضع للاقتصاد».

منذ قرابة عقد من الزمن، بدأت ليندا تجوب الإنترنت بحثاً عن خطط لأرضية سفينتها الأرضية؛ مخططات رسوم بيانية، تصوير داخلي. وأكثر ما أعجبها هو المطبوعات المجمّعة بعناية في ملحق من ثلاثة مجلدات مع أنماط لأرضية خشبية مغطاة بالفينيل. على صفحتها على الفيسبوك صورة جانبية برزت فيها السفينة الأرضية من خلال الأحراج الصحراوية وخلفها غروب نيو مكسيكو الوردي، وكتبت بمحاذاة الصورة: «هذا منزل أحلامي». وأضافت موضّحة: «تُصنع السفن الأرضية من الإطارات المعاد تدويرها، والعلب والقناني الزجاجية. إنها قائمة بذاتها، لا تتطلب وصلات وتمديدات، ويمكن أن نستخدم كبديل، الشمس أو ريحاً للطاقة، وماء من السماء. تُستخدم المياه لأربع مرات، وتمنحنا الحدائق الداخلية الطعام. هذا يعني أنك تعيش مجاناً دون فواتير. كم من المرات قلتُ إن عليّ فعل ذلك».

أملت ليندا أن تجد قطعة أرض رخيصة في مكان ما، لقد دعا رينولدز مكاناً كهذا بـ «علب الحرية» كان لديها أفكار تقريبية للحصول على مواد مجانية وتجنيد المتطوعين للمساعدة في العمل. ولكن كيف يمكنها الشروع في مثل هذه الرؤية الطموحة بينما هي عالقة في عمل منخفض الأجر ويتم تحويل شيكات رواتبها لدفع الإيجار، مع علمها أن الضمان الاجتماعي قد يجلب القليل من الراحة؟ كانت بحاجة إلى طريقة جديدة لتعيش، استراتيجية تمكنها من الحصول الدائم على دخل مع التقليل من تكاليف معيشتها الضئيلة. بمعنى آخر كانت بحاجة إلى جسر للوصول إلى السفينة الأرضية.

كانت ليندا تعلم أنّه لا يمكنها الانتظار. وأنها لم تعد شابة، وبناءُ بيتها الجديد بحاجة إلى مستويات معقولة من اللياقة البدنية. إن تجميع المصادر سيأخذ وقتاً طويلاً، لكن إذا نجحت، فإن المشروع لن يكون مكاناً سيئاً للتقاعد. كانت السفينة الأرضية ميراثها للأجيال القادمة، النصبَ التذكاريَّ الذي سيقف لقرن أو أكثر. قالت: «سأضع فيه كل ثقافتي، ومعرفتي، وعواطفي وأترك شيئاً وراء ذلك كله ليبقى لأولادي وأحفادي».

كانت ليندا تتوق إلى الاكتفاء الذاتي. لقد استنتجت أن نظامها المستقل لتوفير الطعام، والتحكم في الكهرباء، والماء، سيتصرف تقريباً مثل زوج لها، إذا تمكنت من إنشاء مثل هذا المسكن والحفاظ عليه، فسوف يعتني بها أيضاً. هذا النوع من الاستقرار كان مطمئناً. فبعد كل شيء كانت ليندا تتقدم بالعمر لتصبح في فئة ديموغرافية محفوفة بالمخاطر. وفقاً لتعداد العام 2015، فإن من بين النساء الأكبر سناً اللائي يعشن بمفردهنّ، توجد أكثر من امرأة واحدة من بين كل ستٍّ تحت خط الفقر؛ وكذلك فإن ما يقرب من ضعف عدد النساء المسنات في أميركا هنّ فقيرات (1.71 مليون)، وهذا أكثر من نظرائهن من الرجال (1،49 مليون)، وعندما يتعلق الأمر بمزايا الضمان الاجتماعي، تحصل المستفيدات على متوسط 341 دولاراً شهرياً، وهو أقل مما يحصل عليه الرجال بسبب انخفاض إجمالي المساهمات الضريبية على الرواتب، وهو نتيجة غير معترف بها لفجوة الأجور بين الجنسين. في عام 2015، كانت النساء يكسبن 80 سنتاً مقابل كل دولار يكسبه الرجال، ومن المرجح أنهن كنّ يَعمَلْنَ كمُقدِّماتِ رعاية من دون أجر للأطفال الصغار والآباء المسنين (بصرف النظر عن تربية ابنتيها، أصبحت ليندا بشكل مباشر ترعى أمها التي أصيبت بسرطان الدماغ في أواسط التسعينيات). تحصل النساء على دخل أقلَّ في الحياة، ويقلُّ ادخارُهُنَّ. وبما أن أعمارهن أطول من أعمار الرجال بخمس سنوات في المتوسط ، فإن تلك الدولارات يجب أن تمتد لفترةٍ أطول في المستقبل.

في الأول من حزيران 2012، بلغت ليندا ماي الثانية والستين.. ووصل أول شيك موجهٍ لها من الضمان الاجتماعي في البريد. وقد ذكرت لاحقاً: «لم يكن عليّ أن أبدأ بالجمع حتى أبلغ الخامسة والستين من عمري، لكن الفائدة كانت قليلة جداً، حسب ما أعتقد. لا يهمني ما النسبة المئوية التي ستقوم عليها، فهي لن تزيدها كثيراً».

في الحالتين، كانت لديها مشكلة. تساءلت: «كيف سأعيش وأعمل لبقية حياتي ولا أكون عبئاً على ابنتي؟». عرفت ليندا أنها أرادت أن تصبح سفينَتُها

الطويلة سفينَةً أرضيَّةً، لكن كيف ستصل إلى هناك؟!

الفصل الثالث
البقاء على قيد الحياة في أميركا

بعد أسبوع تماماً، وبعد أن قررت ليندا عدم تفجير مقطورتها في يوم الشكر في عام 2010، جاءت الأخبار السيئة إلى إمباير، وهي قرية صناعية يقطنها ثلاثمئة شخص وملتصقةٌ بالجزء الخلفي من صحراء الصخور السوداء في شمالي غرب نيفادا. كواحدةٍ من آخر قرى الشركات التقليدية في أميركا، كانت ملكية إمباير تعود بالكامل لشركة جبس الولايات المتحدة، والتي تصنّع الشيتروك (ألواح الجبس). يوحي المكان لرائيه وكأنه عودة إلى ذروة التصنيع الأميركي الحالمة، عندما قدّمت وظائف المصنع لعمّالها إمكانية العيش على قدم المساواة مع الطبقة الوسطى وفرصة لتنشئة أسرهم دون خوف من الطرد.

تبعد إمباير ستة أميال شمالي المعمل، وهو عبارة عن منجم جبس مفتوح يقع عند سفح سلسلة جبال السيلينيت. فجّر عمال المناجم متفجّرات الآنفو – وهو عبارة عن مزيج متفجّر مكوّن من نترات الأمونيوم وزيت الوقود – لإزاحة كتلة بيضاءَ طباشيرية من المعدن الخام من خمس حفرٍ مُدرّجات، أكبرها يبلغ نصف ميل عرضاً.

نقل سائقو الشاحنات ستين شاحنة من الجبس على دفعاتٍ على الطريق السريع إلى معمل الألواح الجافة في طرف القرية. حيث سحقها

العمال وسخنوها إلى درجة حرارة 500 فهرنهايت في غلايات ضخمة، وشكلوها لتصبح مثل ألواح الحائط الموجودة في منازل الغرب الأميركي.

وراء مصنع إمباير، تقع الأكواخ المكوّنة من طابق واحد، والتي تصطفُّ على جانبي أربعة شوارع سكنية رئيسية مزروعة بالقطن، والدردار، وأشجار الحور الفضية. قامت شركة الولايات المتحدة للجبس بدعم الإيجارات، فهي دون 110 دولارات للشقة و250 دولاراً للمنزل (يكسب الميكانيكيون العاملون في تصنيع ألواح الجبس ما يصل إلى 22 دولاراً في الساعة، ويحصل مشغلو المعدات على ربح أقل بقليل منهم، وهذا يعني أن الموظفين يمكنهم عادةً تغطية إيجار شهر في يوم أو يومين من العمل). تدفع الشركة أيضاً من أجل التلفاز، والنفايات، وتصريف المجارير، وخدمة الإنترنت. ونظراً لأن نفقات الموظفين كانت منخفضة ودخلهم لا يمكن الاعتماد عليه، فإن فكرة العيش بشيكات الأجور والدفع المتلفة للأعصاب – وهو الشكل الأولي من أشكال العيش على الكفاف والشائع جداً في العالم الخارجي – كان غريباً نسبياً هنا. تشعرك إمباير بأنها قرية عالقة في خمسينيات القرن الماضي، كما لو أن اقتصاد ما بعد الحرب لا ينتهي أبداً. أخبرتني آنا ماري ماركس، الموظفة البالغة من العمر خمسة عشر عاماً والتي عملت في مصنع لاختبار جودة الشيتروك (ألواح الجبس): «إنه مكان جيد حقاً لتوفير المال».

في قمة تشي تاون، يعيش أكثر من 750 شخصاً، كما هو مذكور في عدد حزيران 1961 من مجلة الولايات المتحدة للجبس، أخبار الجبس. ذكرت المجلة أن «الأشخاص الذين يعملون في إمباير هم عائلة واحدة كبيرة وسعيدة»، وعلى الرغم من تضاؤل عدد السكان إبّان عمليات التحديث، بحيث أصبح أقل من نصف ذلك بحلول عام 2010، إلا أن هذا الشعور لم يتغير. إذ إن جميع مواطني إمباير يعرفون بعضهم بعضاً. لا تزال الأبواب الأمامية للمنازل غير مقفلة، والسيارات مركونة والمفاتيح بداخلها. تونيا لينش، والتي كانت تعيش

في البلدة مع زوجها، وهو مشرف في المصنع، تحدثت بحماسة قائلة: «لا عصابات، لا صفارات إنذار، لا عنف».

بالنظر إلى أن إمباير كانت معزولة جداً – فقد تم ولسنوات وضع علامة عليها على الطريق السريع 447 الخاص بالولاية مع بيان بارتفاع طابقين يقول: «مرحباً بكم في أي وقت»، فلم يكن لدى الناس خيار سوى الترفيه عن أنفسهم والترفيهِ عن بعضهم. كان هذا يعني الكثير من الحفلات الجماعية، وحفلات العشاء الجماعية، والتجمعات للعب لعبة النرد التي تدعى بانكو، وجنباً إلى جنب في الرحلات إلى البرية الصحراوية العالية لاصطياد الغزلان والظباء والشوكار، والحجل ذا الأجنحة المخططة والمنقار الأحمر الفاتح. زرع الكثيرون من سكان القرية مروجاً خضراء بشكل لا مثيل له، وهذا ما أجبر الطبيعة القاحلة على التقهقر، وأشعرهم بالفخر. عند نهاية امتداد العشب الذي ميّز أراضيهم، امتدت صحراء بلاك روك اللامتناهية الأطراف على طول الطريق. في صور الأقمار الصناعية، تبدو إمباير علامة واضحة: بقعة خضراء في أرض قاحلة بنية اللون.

لكن كان للعزلة جانبٌ سلبي. قال آرون كونستابل عامل الصيانة في المصنع: «لدينا برنامج مراقبة في الحي، يراقبك جيرانك، سواء كنت ترغب في ذلك أم لا». كانت هذه هي الطريقة المحلية لممارسة الحياة على مدى عقود من الزمن، حيث كان زملاء العمل يقيمون في أماكن قريبة. في العام 1923، أنشأ العمال مستعمرة خيام في الموقع الذي أصبح فيما بعد هذه القرية. حسب بعض الروايات، تفاخرت إمباير بأنها موطن المنجم الذي عمل بشكل متواصل لأطول فترة في البلاد، حيث قامت بالتنقيب عن مطالبة أسستها شركة باسيفيك بورتلاند للأسمنت للمرة الأولى في العام 1910.

في الأول من كانون الأول عام 2010، يتوقف التاريخ بشكل مفاجئ. يجتمع عمال ينتعلون أحذية ذات أصابع فولاذية ويعتمرون قبعات صلبة في قاعة الاجتماعات عند الساعة 7:30 صباحاً لعقد اجتماع إلزامي. أصدر مايك

سبيلمان، مدير مصنع الجبس معسول الكلام، قراراً محبطاً لوجوه ممتلئة بالذهول: كانت إمباير في طور الإغلاق، وعلى الجميع المغادرة قبل 20 حزيران. ساد الصمت للوهلة الأولى، تلته الدموع. يتذكر مايك لاحقاً ذلك متنهداً بشدة: «عليّ أن أقف أمام اثنين وتسعين شخصاً وأقول، ليس فقط أنك بلا وظيفة، لكن ليس لديك منزل بعد الآن أيضاً». أنهى الموظفون نصف دوامهم فقط، وعادوا إلى منازلهم في صباح شتوي بارد وملبّد بالغيوم؛ هذه المرة لن تكون استراحتهم لفترة طويلة، بل هي للتفكير في الأخبار ونقلها إلى عائلاتهم.

الجبس الأميركي، الذي تقدر قيمة الأعمال المتعلقة به بأربعة مليارات دولار، تعرض لخسائر فادحة في العام 2010، حيث خسر 284 مليون دولار بنهاية الربع الثالث.

عزا ويليام سي فوت، الرئيس التنفيذي آنذاك، تراجع أعمال الشركة إلى «استمرار ضعف ظروف السوق، وانخفاض أحجام الشحن بشكل غير عادي». خلف تلك المصطلحات كانت هناك قصة أبسط: لم يكن الطلب مرتفعاً بما يكفي لما تقدّمُهُ إمباير بعد الآن.

ترتبط عائدات مصنعي ألواح الجبس بصناعة البناء المحلية، وقد استمر الركود الناجم عن انهيار سوق الإسكان لفترة طويلة. لذلك، في الوقت الذي تضررت فيه كثير من المدن بسبب الركود، فإن ذلك الركود سيجعل إمباير تختفي.

في كانون الثاني 2011، زرتُ إمباير من أجل كتابة مقال لصالح إحدى المجلات. أخبرني كالفين رايل، الذي كان مشرف مراقبة الجودة ورئيس العمال العام قبل ذلك، أنه بدأ العمل في المصنع في 1 تموز 1971: «أنا هنا منذ تسعة وثلاثين عاماً وسبعة أشهر». لقد تحدث لي بشكل واقعي: «لم أتغيّب يوماً واحداً، ولم أُصَبْ أبداً». ولأنه كان يحمل الرقم القياسي لأطول خدمة مستمرة، فقد نال شرف إيقاف خط الإنتاج. وقف الرجل الذي يبلغ من العمر

62 عاماً بجانب حزام ناقل في المصنع، حيث كان ابنه يعمل أيضاً في الصيانة الميكانيكية، رافعاً يده اليمنى بينما كان زملاؤه في العمل ينظرون إليه. ضغط على زر التوقف وبكى. «إنّ أسوأ ما يمكن أن تسمعه في مصنع الألواح هو الصمت». شرح كالفين: «أنت جزء من بناء أميركا؛ إذ لا يقتصر الأمر على صنع ألواح الجبس هنا». إن إمباير كانت مكاناً رائعاً لتربية الأطفال في الطبيعة حيث يكسبون صحة وافرة. لقد خطط لانتزاع شجيرات الورد التي زرعها في فناء منزله وإحضارها معه، ظناً منه أن الأعشاب الضارة سوف تتغلب على القرية بسرعة. قال بهدوء: «من المحتمل أن تبدو القرية مثل فيلم» التلال لها عيون» (قرية التجارب النووية المهجورة المليئة بالمنازل المتداعية وآكلي لحوم البشر القاطنين فيها بشكل واضح، في طبعة جديدة من عام 2006 لفيلم الرعب هذا). «ستكون مدينة الأشباح في نيفادا 2011».

على مرأى من المصنع، كانت البعثة الكاثوليكية للقديس يوسف تحتفل بالاجتماع بواحد من حشودها الأخيرة. علقت على واجهة الكنيسة لوحة خشبية جديدة منحوتة من قبل أحد أبناء الرعية. توم أندرسون، 61 عاماً، والذي كان يعمل كهربائياً بدوام كامل في المصنع طيلة واحدٍ وثلاثين عاماً. مثل كالفين مع نباتاته، قال توم إنه سيستعيد لوحته المنحوتة قبل المغادرة. لقد حضر الخدمة الكنسية مع قرابة عشرين من الجيران. في النهاية، سأل القس عما إذا كان لدى أيِّ شخص صلاة خاصة ليقدمها. تحدثت فتاة تبلغ من العمر ست سنوات ترتدي فستان أميرة الخزامى. «أريد أن أصلي من أجل بعض الأشخاص الذين يحتاجون إلى المساعدة لإيجاد منازل». وتابعت بتردد «والأشخاص الذين يحتاجون إلى كفاف العيش». ساد الصمت المكان.

في المحجر، إلى الجنوب من المدينة، كانت الطرق قد سدت بالفعل بسواتر حصوية عملاقة لمنع المركبات من الدخول والخروج. قبلها بفترة قصيرة، كانت علامات زوال إمباير قد بدأت تظهر، وارتفع سورٌ بطول ثماني أقدام تعلوه أسلاك شائكة على طول محيط القرية، حيث قال السكان

المحليون إنه جعل المكان يبدو «وكأنه معسكر اعتقال». مؤخراً أنشأ العاطلون عن العمل نصباً تذكارياً مؤقتاً، ملقين بخوذات البناء بين فروع شجرة مقابل مكتب البريد (لقد جلبت الخوذات الصلبة المصنوعة من الجبس في الولايات المتحدة الفخر لمن يرتديها، وهو ما يعادل قمصان الفريق للشركات. وقد تم إضفاء الطابع الشخصي على العديد منها بالملصقات، وبعضها بالطلاء أو بواسطة علامات دائمة، وكانت هناك خوذات ذهبية مميزة للعمال مثل كالفين، الذي ظل متميزاً طوال خمسة وعشرين عاماً من الخدمة).

ببطء بدأ الرحيل. نفس الاقتصاد الذي دُمِّر جراء انهيار قطاع الإسكان، شهد ارتفاعاً حاداً في أسعار الذهب، وبدأت مناجم نيفادا في الإعلان عن التوظيف. غادر العشرات من موظفي إمباير السابقين للالتحاق بوظائف لدى شركة باريك غولد، التي تمتلك العديد من المواقع القريبة. لكن بين العمال كان هنالك آخرون يمرون بأوقات عصيبة.

أخبرني دان موران، مدير سلسلة التوريد السابق: «لقد أرسلت بعض السير الذاتية، ولم أتلقَ أي ردّ، قد ينتهي بي الأمر إلى تقطيع الحطب من أجل لقمة العيش». مؤخراً عادت مونيكا بيكر، البالغة من العمر 22 عاماً، والتي نشأت في إمباير إلى المدينة من أوهايو مع طفلين صغيرين وكانت تأمل بالعمل في المصنع، لكنها صدمت بواقع الإغلاق. وقالت: «لقد كنت غاضبة حقاً من ذلك لأنهم ظلوا يخبرونني أنني سأحصل على وظيفة هنا». على الرغم من أنها سمعت أن مناجم الذهب تقوم بالتوظيف، إلا أن مونيكا كانت قلقة بشأن العمل بالقرب من بركة ترشيح سامة، مشيرة إلى أن الزئبق الناتج عن تلك الصناعة جعل من تناول الأسماك التي يتم اصطيادُها في شمال نيفادا أمراً محفوفاً بالمخاطر. وأكملت القول أنها ستجرب حظها على بعد سبعين ميلاً جنوباً في مدينة فيرنلي الصغيرة، التي تحتوي سلسلة متاجر. إذ كانت بصدد

ركوب موجة الاقتصاد الوطني بعيداً عن التصنيع، متجهة إلى قطاعات التجزئة والخدمات. قالت: «كنت سأحصل على وظيفة إما من وول مارت أو لوي».

استمرت الهجرة الجماعية لأسر العمال خلال شهر حزيران. وعندما غادر آخرهم، تم إغلاق القرية خلف بوابات مقفلة بالسلاسل، مع كاميرات أمنية ولافتات تُذكّر بعدم التعدي على أملاك الغير. تُركت الأكواخ وإلى جانبها مسبح عام، وكنيستان، ومكتب بريد، وملعب غولف من تسع حفر، عُرْضَةً للتلف. حتى الرمز البريدي المحلي، 89450، تم محْوُهُ نهائياً. وللقضاء على الأعشاب الضارة، استوردت الشركة اثني عشر رأساً من الماعز، جابت مدينة الأشباح الجديدة مثل مجموعة من حصاداتِ العشب العضوي. بعد سنوات، كان الزوار يقارنون المكان بتشرنوبل، وهو مؤشر على انقطاع للحياة. في مكتب المصنع، بقيت فناجين القهوة التي لم تُرتشف على المكاتب، ولا تزال لوحات التقويم تظهر تاريخ الإغلاق.

المخيف في الأمر، أنه قد ظلّ هناك مكانٌ واحد تعيش فيه إمباير، فاعتباراً من عام 2017، يمكنك الانتقال إلى التجوّل الافتراضي في خرائط غوغل، وإسقاط صورة رمزية صغيرة على سيركل درايف، والتجول حول السيارات المتوقفة وأثاث الحديقة والناس الذين يَسقون ساحاتهم دون انقطاع، فكلُّ ذلك كان مُجَمَّداً في مشهد فوتوغرافي لم يتم تحديثه منذ العام 2009.

***

في الوقت نفسه الذي كانت فيه إمباير تحتضر، كان نوعٌ جديد ومختلف تماماً من قرى الشركات يزدهر على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب. من نواحٍ عديدة، بدا الأمر مختلفاً عما كان عليه الوضع في إمباير. وبدلاً من ذلك، كانت هذه القرية تقدم الاستقرار للطبقة المتوسطة، وكان يسكنها أعضاء عابرون: عمال مؤقتون يقومون بوظائف قصيرة الأجل مقابل أجور منخفضة. وبشكل

أكثر تحديداً، كان مواطنوها مئات العمال المتجولين الذين يعيشون في عربات سكن متنقلة، ومقطورات، وعربات صغيرة، وحتى عددٍ قليل من الخيام. هم في بداية كل خريف، يملؤون حدائق المنازل المتنقلة في فيرنلي، ولم تكن ليندا تعرف ذلك، لكنها ستنضم إليهم قريباً. كان العديد منهم في الستينات والسبعينات من العمر، في سن التقاعد التقليدي أو يقتربون منه. لقد سافر معظمهم مئات الأميال؛ وخضعوا للإهانات الروتينية المتمثلة في الفحوصات عن الخلفية الجنائية، واختبارات تعاطي المخدرات بالتبول في الكوب، كُلُّ ذلك من أجل الحصول على فرصة لكسب 11.50 دولاراً في الساعة، بالإضافة إلى العمل الإضافي في وظائف المستودعات المؤقتة. لقد خططوا للبقاء حتى أوائل الشتاء، على الرغم من حقيقة أنّ معظم منازلهم المتنقلة لا تؤهلهم للعيش في درجة حرارة تحت الصفر. كان المسؤول عن التوظيف هو أمازون دوت كوم.

جندت أمازون هؤلاء العمال كجزء من برنامج أسمته كامب فورس: وحدة عمل مكونة من الرحّل الذين يعملون موظفين موسميين في العديد من مستودعاتها، والتي تسميها الشركة بـ «مراكز التعبئة» أو إف سي. إلى جانب الآلاف من الموظفين المؤقتين التقليديين الذين تم تعيينهم لتلبية طلبات الشحن الكثيفة «لموسم الذروة» والتي تشير إلى الفورة الاستهلاكية التي تمتد من ثلاثة إلى أربعة أشهر قبل عيد الميلاد.

لا تُطلِع أمازون الصحافة على أرقام التوظيف الدقيقة، لكن عندما سألتُ مدير كامب فورس في مكتب أمازون للتوظيف في أريزونا عن حجم البرنامج، كان تقديره أنهم قرابة ألفي عامل (كان ذلك في موسم 2014، أما بالنسبة إلى موسم 2016 فقد توقفت أمازون عن توظيف عمال كامب فورس في وقت أبكر من المعتاد لأنه «كان عاماً صعباً بالنسبة إلى الطلبات»، وفقاً لما ورد على فيسبوك بواسطة مدير برنامج سابق).

تستمرورديات العمال لعشر ساعات أو أكثر، حيث يقطع بعض العمال أكثر من خمسة عشر ميلاً على أرضيات صلبة، ينحنون، ويجثمون، يتمددون، ويتسلقون سلالم أثناء مسح البضائع وفرزها وتعبئتها. عندما ينتهي موسم الأعياد، لا تعود أمازون بحاجة إلى كامب فورس وتنهي برنامج العمل للعمال. والذين يبتعدون بموكب يسميه المنفّذون بمرح «موكب الضوء الخلفي».

أول من قابلته في كامب فورس، على مدى أشهر، هو رجل سأسميه دون ويلز (هذا ليس اسمه الحقيقي، لأسباب سأشرحها لاحقاً). أمضى دون العامين الأخيرين من حياته المهنية الرئيسية مدير برمجيات تنفيذي يسافر إلى هونغ كونغ، وباريس، وسيدني، وتل أبيب. وفي العام 2002 تقاعد، وهذا كان يعني أنه يمكنه أخيراً البقاء في مكان واحد: منزل كولونيال ريفيفيال الإسباني الذي يعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي، والذي كان يتقاسمه مع زوجته في بيركلي في كاليفورنيا. كما أنه أتيح له الوقت للاستمتاع بهوس حياته وهو السيارات السريعة. اشترى سيارة ميني كوبر إس باللونين الأحمر والأبيض وزاد قوة محركها إلى 210 أحصنة، وتدرّب حتى حصل على المركز الثالث في بطولة الولايات المتحدة للمحترفين عن فئة السيارات السياحية.

لكن الأوقات السعيدة لم تدم. فعندما بدأتُ بتبادل رسائل البريد الإلكتروني مع دون، كان عمره تسعة وستين عاماً، وكان مُطلقاً، ويقيم في منتزه روز للمقطورات بالقرب من المستودع في فيرنلي. حصلتْ زوجته على المنزل. وقد أدى انهيار السوق في العام 2008 إلى تبخّر مُدخراته. كما أنه أُجبر على بيع الميني كوبر.

يعيش دون مع ريزو، كلب الصيد جاك فوسيل الذي يبلغ وزنه خمسة عشر رطلاً. في عربة سكن إيرستريم طراز 1990 دعاها «إيلي» – إشارة إلى رقم طرازها 300 لي – مع دمية فتاة هولا بلاستيكية معلقة على لوحة القيادة وملصقات سيارات السباق المثبتة على الستائر المسحوبة. في حياته

الماضية، كان ينفق حوالى 100 ألف دولار في السنة. وفي هذه الفترة، تعلّم أن يحصل على أقل من 75 دولاراً في الأسبوع.

بحلول نهاية موسم الأعياد عام 2013، توقع دون أنه سيعمل في مستودع أمازون خمس ليالٍ في الأسبوع حتى الفجر، في ورديات العمل الإضافي التي تستمر لمدة اثنتي عشرة ساعة، مع ثلاثين دقيقة في استراحة لتناول الطعام واستراحتين كل منهما لمدة خمس عشرة دقيقة. كان يقضي معظم الوقت واقفاً، يستقبل الشحنات الواردة ويمسحها ضوئياً.

أوضح دون: «إنه عمل شاق، لكن المال جيد». كان دون أصلع الرأس ويضع نظارة ذات إطار سلكي وله لحية بيضاء. كان لديه مفصل أيمن اصطناعي، تم استبداله عندما سقط من شاحنة صغيرة أثناء وظيفة مؤقتة أخرى في مخيم أوريغون. لم يكن دون من المتذمرين. ومع ذلك، فقد كان مثل معظم زملائه في العمل، يعدُّ الأيام حتى 23 كانون الأول، نهاية موسم كامب فورس.

أخبرني دون أنه جزء من ظاهرة متنامية. أطلق هو ومعظم العاملين في كامب فورس – مع مجموعة واسعة من العمال المتجولين – على أنفسهم اسم «عُمَال مخيم». على الرغم من أنني كنت مستعداً لتخطي هذه الكلمة، إلا أنني لم أسمع أبداً أي شخص يعرّفها بالقدر نفسه من الذوق مثل دون. لقد كتب لي في رسالة مباشرة على الفيسبوك:

> *«عمال المخيم هم مسافرون حديثون متنقلون يؤدون وظائف مؤقتة في جميع أنحاء الولايات المتحدة مقابل موقع تخييم مجاني – عادة ما يشمل توصيلات الكهرباء، والمياه، والصرف الصحي – وربما راتب. قد تعتقد أن العمل في المخيم هو ظاهرة حديثة، لكننا أتينا من تقاليد عريقة جداً. فقد تبعنا الجحافل الرومانية، التي تشحذ السيوف وتصلح الدروع. وجلنا*

المدن الأميركية الجديدة، نصلح الساعات والآلات وأواني الطهو، ونبني الجدران الحجرية مقابل بنس واحد لكل قدم مربعة، ونشرب عصير التفاح المخمر. اتبعنا الهجرة غرباً في عرباتنا مستفيدين من أدواتنا ومهاراتنا، نشحذ السكاكين، ونصلح أي شيء مكسور، ونساعد في تنظيف الأرض، وسقف الكابينة، ونحرث الحقول، ونساعد في موسم الحصاد للحصول على وجبة ومصروف الجيب، ثم ننتقل إلى الوظيفة التالية. إن أسلافنا هم المصلحون.

لقد قمنا بتطوير عربة تينكر إلى عربة مريحة بمحرك أو مقطورة ذات عجلة خامسة. معظمنا من المتقاعدين الآن، أضفنا إلى ذخيرتنا المهارات التي اكتسبناها طوال العمر في مجال الأعمال. يمكننا المساعدة في إدارة متجرك، والاعتناء بالجزء الأمامي أو الخلفي من منزلك، وقيادة مقطورتك أو رافعتك المشعّبة، واختيار البضائع الخاصة بك وتعبئتها للشحن، وإصلاح أجهزتك، وترميز أجهزة الحاسوب والشبكات الخاصة بك، والعمل على حصاد الشمندر، وتنظيف أراضيك أو تنظيف حماماتك. نحن المصلحون التقنيون».

كان للعمال الآخرين الذين تحدثت إليهم طرقهم الخاصة في وصف أنفسهم. قال كثيرون منهم إنهم «متقاعدون»، حتى لو كانوا يتوقعون العمل بشكل جيد في السبعينات أو الثمانينات من العمر. دعا الآخرون أنفسهم «مسافرين»، «رُحّلاً»، «رحالة متسكّعين»، أو «غجراً ساخرين».

أعطاهم المراقبون الخارجيون ألقاباً أخرى، من «المستخدمين النموذجيين في الركود الاقتصادي الكبير» إلى «اللاجئين الأميركيين»، و«المشردين الأغنياء».

أياً يكن ما تريد تسميتهم به، فإن العمال يعملون ضمن دائرة وطنية من الوظائف تمتد من الساحل إلى الساحل وحتى كندا، وهو اقتصاد الظل الذي أنشأه مئات من أصحاب العمل الذين ينشرون إعلانات مبوبة على مواقع الويب ذات أسماء مثل عمال على عجلات وأخبار عمال التخييم (ووركامبر). اعتماداً على الوقت من العام، فقد يُطلب من الرحّل قطف التوت في فيرمونت، والتفاح في واشنطن، والبلوبري في كنتاكي، كما أنهم يقومون بجولات على مزارع تربية الأسماك، يأخذون بطاقات ناسكار للسباق، وتوكل إليهم مهمة حراسة بوّابات حقول النفط في تكساس[3]. قالت إحدى العاملات في وظيفة حراسة البوابة في غوانزاليس في تكساس، حيث كانت هي وزوجها يكسبان قرابة 125 دولاراً خلال الأربع وعشرين ساعة يومياً، أي يتقاضيان في الساعة خمسة دولارات، وكانا سريعاً ما يشعران بالإرهاق لأنهما لم يتمكنا من النوم إلا على فترات قصيرة: «إنه لأمر مرعب، عليك تسجيل أرقام لوحات ترخيص الجميع، وشارة الاسم، طوال ساعات الليل. عندما تركنا المكان، كنا أنا وزوجي قد أصبحنا كائنات زومبي بالكامل». كانا يقلّبان البرغر أثناء لعبة البيسبول في كاكتوس ليغ، في سلسلة تدريبات الربيع في فينيكس في أريزونا. وكانا مطالبين بتشغيل منصات الامتياز في مسابقات رعاة البقر وسوبر بول 2017 في ملعب إن آر جي في هيوستن («يجب أن يكون مربحاً مع البيع الإضافي»، كما كان يظهر على قائمة الوظائف).

إنهم يحافظون على المئات من أراضي المخيمات وحدائق المقطورات من غراند كانيون إلى شلالات نياغارا، ويُعيّنون من قبل القطاع الخاص جنباً إلى جنب مع خدمة الغابات الأميركية. كما أنهم يعملون في بعض المقاصد السياحية الأولى في البلاد، بما في ذلك وول دراغ مع الديناصور الذي يبلغ طوله ثمانين قدماً، حيث تصدح أغاني رعاة البقر، ومتحف الشيء؟ وهو متحف للفضول على امتداد مقفر من طريق أريزونا السريعة حيث عشرات اللوحات الإعلانية الصفراء التي كتب عليها: «الرؤية هي الإيمان» و«لغز الصحراء».

يعمل المهاجرون في أكشاك على جانب الطريق خلال العطلات، ويبيعون اليقطين في الهالووين والألعاب النارية في الرابع من تموز (مع تخييم لمدة أسبوع بجانب خيمة من المتفجرات.. أنا أو الجوز؟ كتبت أرملة كانت تستعد لتولي وظيفة ألعاب نارية). البعض يبيعون أشجار عيد الميلاد («حاول تجربة شجرة عيد الميلاد في مخيم!». يشير إعلان يستهدف مقطورات عربات السكن. «لا أحد طبعاً يستدعي التذمر»). يدير البعض أكشاكاً في مراكز التسوق، ويبيعون الهدايا الموسمية لمزارع كانيز وهيكوري فارمز. ويتم التعاقد مع آخرين لكي يكتشفوا التسرب في خطوط أنابيب الغاز الطبيعي، حيث يمشون على طول أميال من القنوات المدفونة مع «حزم من اللهب» ويراقبون مستويات الهيدروكربون لمنع الانفجارات.

كذلك يستخدمهم قسم الأسماك والطرائد في فلوريدا لتشغيل محطة فحص للصيادين، حيث يقومون بوزن جثث الخنازير البرية والغزلان ويزيلون العينات البيولوجية – وعلى وجه التحديد، عظام فك الغزلان – لاختبار ومراقبة عمر وصحة القطعان المحلية. وتم افتتاح نزل لصيد الدرّج في جنوب داكوتا في قسم «معالجة الطيور». يدير العمال الجولات في المتنزهات الترفيهية من دولي وود في تينيسي إلى أدفنتشر لاند في آيوا، حتى بحيرة دارين في نيويورك وستوري لاند في نيو هامبشاير («لا يقتصر الأمر على لقاء العامل بأشخاص جدد من جميع أنحاء العالم فحسب، بل يمكنه أيضاً الاستمتاع بتجربة البهجة العارمة للأطفال الذين تتحقق أحلامهم كل يوم!». كما تعد بإعلان توظيف الأرض).

كتعويض، يدفع بعض أصحاب العمل مقابل أجر الساعة كل يوم، وتبحث إحدى المزارع في جورجيا عن عمال من أجل التدريب اليدوي اليومي وهي توفر مكاناً لعربة نقل متحركة مع وصلات مقابل عشرين إلى أربع وعشرين ساعة من العمل في الأسبوع، وتدفع 5.7 دولاراً في الساعة بعد ذلك. يقدم آخرون سريراً ومكاناً لركن العربة، لا يكون بالضرورة مرصوفاً ولكنه مستوٍ

ومسطح، بالإضافة إلى وصلات للمياه والكهرباء والصرف الصحي (يسأل إعلان مبوب لأحد هذه المواقع الأقل أجراً «هل يمكنك قيادة قارب؟ وهل تستمتع بذلك؟»، وذلك من أجل توظيف سائق تاكسي مائي «متطوع» لمنطقة ميناء سان لوس هاربور في كاليفورنيا. وقت العمل يصل حتى أربعين ساعة في الأسبوع مع الحصول على عربة سكن متنقلة – ولكن بدون مقابل – عند العودة)؛ ثم هناك حصاد الشمندر السكري السنوي. في الأسبوع الأخير من أيلول، جلبت شركة كريستال الأميركية للسكر المئات من سكان المقطورات المتنقلة إلى مونتانا، ونورث داكوتا، ومينيسوتا. عملوا ليلاً ونهاراً في ورديات عمل من 12 ساعة. وعند العودة، يحصلون على أجر ابتدائي من 12 دولاراً في الساعة للوقت الإضافي، إلى جانب مساحة محددة لركن عرباتهم.

ليس هناك إحصاء واضح لعدد الأشخاص الذين يعيشون رحّلاً في أميركا. المسافرون بدوام كامل هم كابوس ديموغرافي. حسب إحصائيات الدولة، إنهم يندمجون مع بقية السكان، لأن القانون يتطلب منهم الاحتفاظ بعناوين ثابتة، بمعنى آخر، عناوين مزيفة. بغض النظر عن مدى توسعهم في التجول، يجب أن يقيم الرحّل رسمياً في مكان ما. إقامتك هي المكان الذي تُسجل فيه مركباتك، وتجدد فيه رخص القيادة، وتدفع الضرائب، وتُصوّت، وتخدم في هيئات المحلفين، وتُسدد فيه اشتراكات التأمين الصحي (باستثناء تلك الموجودة في ميديكير)، والوفاء بسلسلة من الواجبات الأخرى. إن العيش في أيِّ مكان – كما اتضح – يعني أنه يمكنك العيش في أيِّ مكان تريده، على الأقل على الورق. لذلك يختار العديد من الأشخاص الإقامة في الأماكن التي يعانون فيها أقل عدد من المتاعب – فلوريدا، ساوث داكوتا، وتكساس، حيث تفرض أقل نسبة من الضرائب، فهي المفضلة منذ فترة طويلة – واستخدام خدمات إعادة توجيه البريد للبقاء على اتصال مع تلك المؤسسات. إن أنظمة ساوث داكوتا مريحة بشكل خاص. اقضِ ليلة واحدة في فندق محلي وتسجّل في خدمة إعادة توجيه بريد ساوث داكوتا، ثم أرسل الإيصالات إلى وزارة السلامة العامة بالولاية، تصبح مُقيماً.

على الرغم من الافتقار إلى الأرقام الدقيقة، تشير الأدلة إلى أن صفوف المتجولين الأميركيين بدأت تشهد ازدهاراً بعد انهيار قطاع الإسكان واستمرت في النمو. قال وارين ماير رئيس إدارة الموارد الترفيهية والذي يدير 110 مخيمات ويوظف 300 عامل، إلى مراسل قناة الجزيرة: «وجدنا منذ عام 2008 كثيراً من الأشخاص يبحثون عنا. في الواقع، لديّ قائمة بالأشخاص المهتمين بمعرفة المزيد عن الوظائف. لقد اضطررتُ إلى تحديد سقف القائمة بـ 25 ألف اسم». وأضاف: «معظم الناس هم من الأزواج، لذا فهذه مشكلة حقيقية، فقد تقدم خمسون ألف شخص للوظائف الخمسين التي أنا بحاجة إليها؛ أما في العام 2008، فقد كنت مضطراً للذهاب إلى مؤتمرات المتقاعدين ومحاولة التوسل للناس للعمل من أجلي».

معسكرات التخييم الأميركية (كوا)، وهي جهة توظيف رئيسية للعمال، تستخدم قرابة 1500 زوج كل عام لمنتجعاتها ومناطق امتيازها في جميع أنحاء البلاد، وقد أخبر أحد المندوبين مجلة أخبار عمال التخييم، وهي مجلة نصف شهرية يقدم موقعها الإلكتروني خدمة شهيرة لإدراج الوظائف، أنها تضم 14 ألف عضو، مع انضمام المزيد منهم طوال الوقت.

وفي الوقت نفسه، فإن «العيش في عربة أصبح الآن مألوفاً»، كما أعلنت نيويورك تايمز في أواخر عام 2011، مضيفة أنه من المتوقع أن يتم بناء 1.2 مليون منزل من هذا النوع، مع ملاحظة أن مبيعات العربات ارتفعت بنسبة 24 في المئة.

من بين جميع البرامج التي تبحث عن عمال كانت أمازون كامب فورس هي المُوَظِّفُ الأقوى. «توقع جيف بيزوس أنه بحلول عام 2020، فإن واحداً من كلِّ أربعة مخيمات في الولايات المتحدة سيعمل لصالح أمازون». ومن أجل العثور على أماكن آمنة، أنشأت الشركة أكشاكاً للتجنيد في أماكن مناسبات الرحّل، والتي غالباً ما تكون بين عروض وتجمعاتٍ لمقطورات الشحن المتنقلة، في أكثر من اثنتي عشرة ولاية في جميع أنحاء البلاد. يرتدي

المجندون قمصان كامب فورس ويوزعون منشورات تقول: «نُوظِّفُ الآن»، بالإضافة إلى الملصقات الترويجية، ودفتر ملاحظات، ومراوح ورقية، وعبوات بلسم الشفاه، وتقاويمَ تحمل صوراً لمناظر طبيعية، وحافظات النيوبرين الصلبة التي تحافظ على علب البيرة باردة. وكلُّ هذه الأشياء تحمل شعار الكامب فورس وهو عبارة عن: صورة ظليلة سوداء لعربة سكن متنقلة، تحمل شارة الـ «ابتسامة» الخاصة بأمازون.

في الآونة الأخيرة، ظهر هذا الشعار ورابط لموقع التوظيف على الإنترنت على مظلات كبيرة، مصممة لتغطية الزجاج الأمامي لسيارات الشحن المتنقلة عندما تركن. في العام 2015، كانت هذه الهدايا تُقدم إلى حفنة من عمال كامب فورس، الذين تم حثّهم على أخذها معهم أينما ذهبوا. وقد عُرض على العمال الجدد الذين سجلوا أيضاً مكافأة إحالة من 50 دولاراً إلى 125 دولاراً في عام 2012.

المروجون يوزعون مواد ترويجية في تجمعات العربات في شتى أنحاء البلاد

كما نشرت كامب فورس أيضاً رسائل إخبارية رقمية موجهة للموظفين القادمين، تحمل نصائح من المخضرمين في البرنامج، ومنها ما يلي:

تقول دونا بونيت: «لا تحاول العمل بأحذية جديدة تماماً! تأكد من أن تجربها قبل العمل».

تقول جويس كولي: «أهم نصيحة هي أن يكون لنا موقف إيجابي، يجب أن لا نتوقع أن يتم تقديم كل شيء لنا. علينا أن نعمل من أجل الحصول على ما نريده».

تقول كارول بيتي: «إن النظرة الصحيحة من البداية ستساعد بالتأكيد. هذه وظيفة وليست مهنة».

يقول جورج نيلسون: «انطلق مع التيار ولا تشتكي لأن هذه ليست مهنتنا. إنها مجرد وظيفة موسمية».

أما برين نيلسون فيقول: «لقد اتخذتُ وجهة نظر ومفادها أنني كنت أتقاضى أجراً لممارسة الرياضة بصفتي جامع بضائع. عندما يكون لديك مسافات طويلة بين نقاط الالتقاط، يمكنك الإسراع في المشي. ستحرق سعرات حرارية أكثر وتكون أكثر إنتاجية في الوقت نفسه».

وتقول شارون سكوفيلد: «قد تتعرض يداك لجروح طفيفة، أو قشط بسبب التعامل مع الصناديق. توفر أمازون قفازاتٍ لحماية يديك. اشترِ غسولاً جيداً لليدين ودلّك جيداً».

أوصت الرسائل الإخبارية أيضاً بمناطق الجذب بالقرب من متاجر أمازون التي قد يحصل فيها العمال على بعض المتعة خارج ساعات العمل. وجاء في أحد الاقتراحات: «في تشرين الأول، تحتفل فيرنلي برقصة الأوقات الصعبة». وقال آخر: «يأتي الحاضرون وهم ينتظرون أوقاتاً عصيبة». وقال آخر وهو متوجه إلى كوفيفيل في كانساس: «هناك أيضاً أشجار الجوز في الحدائق [و] ويمكنك قطف الجوز الأسود، والبقان مجاناً. قام زوجان بقطف وبيع أكثر من مئة رطل من البقّان العامَ الماضي».

تحذر إحدى وحدات التوظيف في أمازون مرشحي كامب فورس أنهم قد يحملون إلى حدٍّ خمسين رطلاً في كل مرة، في بيئة قد ترتفع درجة الحرارة فيها في بعض الأحيان إلى 45 درجة؛ تكرّرُ الرسائل الإخبارية للبرنامج شعار الشركة التحفيزي: «اعمل بجد. استمتع. اصنع التاريخ»، ويؤكدون على المكافآت غير المادية في البرنامج: «ستكون محاطاً بزملاء من كامب فورس، والذين يجتمعون معاً لتكوين صداقات جديدة ويعيدون التواصل مع الأصدقاء القدامى، يتشاركون الطعام الشهي، والقصص الممتعة، والأوقات السعيدة حول نار المخيم أو حول المائدة. في بعض الأيام، سيكون هذا أكثر قيمة من

المال!»[4]. في مجموعة مغلقة يديرها العاملون على الفيسبوك تسمى «مجموعة كامب فورس لأمازون»، تحدثت امرأة عن خسارة خمسة وعشرين رطلاً خلال ثلاثة أشهر في العمل. ردت أخرى: «من السهل حصول ذلك، إنقاص الوزن عن طريق المشي نصف ماراثون كل يوم. المكافأة: أنت متعب جداً بحيث لا يمكنك تناول الطعام!». تباهى فوركر بالسير لمسافة 547 ميلاً في عشرة أسابيع من العمل. في وقت لاحق تفوّق عليه شخص آخر نشر في سجّل فيتبيت يظهر أنه سار 820 ميلاً خلال «اثني عشر أسبوعاً ونصف الأسبوع».

***

أردت رؤية هذا النوع الجديد من «الشركة المدينة» بأم عيني، ذكرت ذلك لعامل توظيف سابق في كامب فورس، فاقترح أن أفضل وقت للزيارة يكون في أواخر تشرين الأول، لأن الناس لن يكونوا قد شعروا بالإنهاك بعد».

أخذتُ بهذه النصيحة، حيث وصلت إلى فيرنلي قبل أسبوع من الهالويين في العام 2013. بحلول ذلك الوقت، كان العمال قد حُشروا بالفعل في أماكن العمل بما في ذلك منطقة ركن السيارات الترفيهية في منتجع وكازينو غراند سييرا في رينو (كانت ليندا من بين هذا الحشد، حيث كانت تقيم في بلدة فالون القريبة، لكنني لم أكن أعرف ذلك في ذلك الوقت ولم أقابلها إلا بعد ثلاثة أشهر في أريزونا). لقد حُجز العديد من متنزهات عربات السكن قبل أشهر وفقاً لقوائم انتظار طويلة. كان متنزه حديقة ديزرت روز للمقطورات هو الأكثر شعبية حيث يمكن أن تجد أفضل موقع لعربات السكن، وهي رقعة من الحصى تحدّها الطريق السريعة 50 وهي مقسّمَةٌ وتحيط بها أسلاك كهربائية عالية الجهد تصدر طقطقة بشكل مسموع.

كان عمال كامب فورس هناك قد وضعوا مماسح وأثاثاً خارجياً. لقد علقوا أجراس الرياح ومغذيات الطيور من خشب القطن ورفعوا راية مزينة

بعبارة «أميركا الجميلة» و«إنها الخامسة في مكان ما». وعرض البعض منهم بعض الأعمال الفنية الخارجية محلية الصنع ووضع آخرون زينة الهالوبين: القش المجفف، واليقطين المغطى ببريق وردي. وعندما لم يتمكن أولئك العمال من تجميل أماكن وقوف السيارات الخاصة بهم، كانوا ينخرطون في الإجراءات الاجتماعية الصغيرة التي جعلت هذا المكان يبدو وكأنه مجتمع: النقل المشترك بواسطة السيارات لتوفير أموال الوقود، وتبادل النصائح بشأن المطاعم الرخيصة للحصول على عطلة ممتعة (من المفضل لديهم؟ غولد بان المميّز في كازينو بيانير كروسينغ في فيرنيلي: بيضتان وفطيرتان من فطائر اللبن مع لحم الخنزير المقدّد أو النقانق أو قليل من اللحم المهروس أو البطاطا المقلية، كلٌّ ذلك مقابل 2.70 دولاراً فقط، بالإضافة إلى حسم بمقدار عشرة بالمئة بالنسبة إلى كبار السن).

لقد أُقيم ذلك على افتراض أن معظم قاطني عربات السكن المتنقلة هم من المتقاعدين الذين يتجوّلون في جميع أنحاء أميركا، لمشاهدة المعالم السياحية والاستمتاع بالراحة التي حصلوا عليها بعد عقود من العمل. إن عربات السكن المتنقلة تعني وقبل أي شيء «السيّارة الترفيهية». هؤلاء المتقاعدون السعداء الحظ ما زالوا موجودين، ولكن انضم إليهم الرحّل الجدد. إن معظم سكان ديزرت روز، على سبيل المثال، ما كانوا يفكرون في الاستجمام. كان القادمون الجدد منشغلين بـ «تقوية العمل»، وهي فترة تأقلم من مناوبات نصف يومية، فيما كان الوافدون في وقت سابق يجهدون بالفعل لمواكبة وتيرة العمل في المستودع.

عاملان في كامب فورس، أنجيلا وكيني هاربر في بيغ شيف لعربات السكن المتنقلة في كانساس

أخبرتني ليندا شيسر، وهي مستشارة أكاديمية سابقة في جامعة واشنطن في ولاية واشنطن: «إنها المرة الأولى التي أعمل فيها في مصنع. أنا أحترمه كل الاحترام». كانت تعلق القمصان في غرفة الغسيل في ديزرت روز، حيث كانت رفوف الكتب تحتوي على مكتبة إعارة متواضعة وأحجية مكونة من 1000 قطعة. كانت تبلغ من العمر ثمانية وستين عاماً، وقالت لي إنها ممتنة للإيبوبروفين: «آخذ أربعة منها عندما أذهب للعمل في الصباح وأربعة عندما أعود في الليل». بالنسبة إلى بعض العمال، لم يكن الإيبوبروفين كافياً. بدورها أخبرتني كارين تشامبرلين، وهي سائقة حافلة سابقة تبلغ من العمر ثمانية وستين عاماً، وسبق لها أن أجرت عملية استبدال مفصل ورك، أنها غادرت كامب فورس بعد خمسة أسابيع لأن ركبتيها لم تستطيعا تحمل المشي لساعات طويلة على الخرسانة. أثناء زيارة معسكر أمازون للتخييم – بيغ شيف

لعربات السكن المقطورة في كوفيفيل – قابلتُ كيني هاربر، الذي استقال بعد فترة وجيزة. وقد أوضح لي في وقت لاحق وفي رسالة بريد إلكتروني أنّ «جسده لم يتحمّل مشاق هذه الوظيفة». وتحدث عمال آخرون عن «إصبع الزناد»، وهي حالة شدٍّ الوتر التي يمكن أن تنشأ بسبب متاعب المهام المتكررة مثل استخدام الماسح الضوئي. في العديد من عربات السكن المقطورة التي دخلتُها، وجدت فيها صيدليات متنقلة تحتوي على جِلٍّ بارد، ومسكن ألم، وأحواض لنقع الأقدام المتعبة، وأملاح إبسوم وزجاجات أدفيل وإلفي. إذا نفدت الحبوب من العمال، فتلك ليست مشكلة؛ تقوم أمازون بتوزيع مسكنات ألم مجانية تقدّم على منضدة في المستودعات.

***

قال بوب متذكراً ما كان يعتقده لزوجته آنيتا عندما وصلا إلى فيرنلي وانضما إلى كامب فورس: «إنها مجموعة كاملة من مساكن اللاجئين!». اعتقد آل بيرلي أنهما سيتقاعدان ليعيشا على متن مركب شراعي، ويموّلا هذا الحلم من خلال عائدات الأسهم وهما جالسان في منزلهما المكوّن من ثلاث غرف نوم في بيفرتون، في أوريغون. لقد اشتريا المنزل مقابل 340 ألف دولار عندما كانت السوق مزدهرة وأنفقا عليه حوالى 20 ألف دولار. ثم انفجرت فقاعة الإسكان، وانخفضت قيمة المنزل إلى 260 ألف دولار. قبل الانهيار، كانا يعملان في وظائف جيدة، عمل بوب محاسباً في شركة منتجات خشبية – لقد ضاق ذرعاً بهذه الوظيفة، لكنها كانت جيدة الأجر – بينما كانت آنيتا مصممة ديكور داخلي ومقدمة رعاية بدوام جزئي. لم يكن بإمكان أيٍّ منهما تخيّل قضاء بقية حياتهما في الحصول على قرض بقيمة تزيد على قيمة منزلهما. لذلك اشتريا كاردينال 2003، وهي مقطورةٌ ذات خمس عجلات وانطلقا في طريقهما. قالت آنيتا: «يجب أن نسير في الطريق، كنا قد فكرنا أننا لن نلعب هذه اللعبة مجدداً».

ألقى بوب باللوم على الأشرار في وول ستريت. وقد دافع عن قراره بالتخلي عن المنزل. قال بوب وهو يهزّ رأسه: «لم تكن لديّ أيُّ فكرة عن أنّ قيمة المنزل ستنخفض». وقد قارن «واقع حياته الجديدة البطيئة بالاستيقاظ في ماتريكس: حيث تكتشف أن العالم اللطيف الذي كنت تقيم فيه سابقاً كان سراباً، وكذبةً مبنية بشكل جيد لإخفاء وحشية المدينة الفاسدة». وأضاف: «ذلك الأمن الذي يشعر فيه معظم الناس بالراحة، أنا مقتنع بأنه وهم»، عندما تكتشف أن ما كنت تعتقده صحيحاً لم يكن كذلك، عندها تشعرُ بالارتباك. إن ما تعتقد أنه حقيقي هو راسخ للغاية، ويتطلب الأمر تغييراً جذرياً للسماح بسقوطه. عندما قابلت آل بيرلي، كانا على بعد بضع سنوات من الحصول على الضمان الاجتماعي. خطّط بوب لمواصلة العمل الموسمي في كامب فورس حتى يبلغ الخامسة والستين من عمره، ولم تكن آنيتا مؤهلة لمنصب المستودع لأنها كانت تفتقر إلى شهادة الثانوية العامة، فعملت مع جيرانها في وظائف غريبة. إنّ وقوع معسكرهم جنباً إلى جنب مع معسكر عمال كامب فورس، جعلهم يطوّرون مشاريع اقتصادية صغيرة تُدار من البيت من قبل شركاءَ لعمال المستودع. قاموا بتسويق خدماتهم؛ تنزيه الكلاب، طهو وجبات الطعام، الخياطة، إصلاح المفروشات، دروس الرسم للمبتدئين، ولوحات إعلانات في غرف الغسيل المشتركة.

لم يكن آل بيرلي الوحيدين اللذين كانا ضحايا حبس الرهن من بين الذين وجدتهم في صفوف أمازون كامب فورس. لقد تحدثت إلى عشرات العمال في نيفادا وكنساس وكنتاكي، وكانت قصص المشاكل المالية متفشية جداً. شعرتُ أحياناً أنني كنت أتجوّل في مخيمات اللاجئين في فترة ما بعد الركود، حيث إن الملاذ الأخير الذي تم شحن الأميركيين إليه، والذي يسمى بـ «إنعاش العاطلين عن العمل»، قد أبعدهم عن القوى العاملة التقليدية. شعرت أنني كنت أتحدث إلى سجناء في السجن. وكان من المغري أن نتخطى المجاملات ونسأل: «لماذا أنتم هنا؟».

من بين الذين قابلتهم، أشخاص قُضي على مدخراتهم الشخصية من خلال الاستثمارات السيئة أو رأوا مكاسب قانون 401(ك)[5] تتبخر في انهيار السوق عام 2008. لم يتمكّن البعض من إنشاء ما يكفي من شبكة الأمان لتحمل الصدمات التي يمكن النجاة منها عادة بخلاف ذلك: الطلاق، والإصابة بالمرض. البعض الآخر تم تسريحهم من العمل أو انهارت أعمالهم التجارية الصغيرة خلال الركود. وعلى الرغم من أن العمال تحت سن الخمسين كانوا أقلية، إلا أنني قابلتهم أيضاً. لقد وصفوا الوظائف التي فقدوها – أو التي لم يجدوها بعد ليبدؤوا بها – وتحدثوا عن المشكلات التي تفاقمت، وخصوصاً أولئك الطلاب الذين اتضح أن لاختصاصاتهم القليل من القيمة العملية. كان العديد منهم يأملون في أن تكون الحياة على الطرقات هروباً من مستقبل خاوٍ.

لقد انطلقت كامب فورس كتجربة، لكنها تزامنت مع انهيار الإسكان. كانت مستودعات أمازون النائية تكافح لسنواتٍ لتوفير عدد كافٍ من الموظفين لتأمين الطلبات في عيد الميلاد، لذا فقد جربوا العديد من برامج التوظيف، حتى أنهم وظّفوا عمالاً في ورديات عمل من ثلاث إلى خمس ساعات. بعد ذلك، في العام 2008، استعانوا بوكالة تدعى وكالة مِهَنِيِّي التوظيف السريع المؤقتة، والتي جلبت مجموعة من قاطني المقطورات للعمل قبل عيد الميلاد في مستودعات الشركة في كوفيفيل، في كنساس. وبفضل النتائج، سمّت أمازون البرنامج باسم وشعار كامب فورس، ووَسّعت نطاقه ليشمل مستودعاتٍ في فيرنلي وكامب بيلسفيل، كنتاكي، وبدأت في التوظيف إليه مباشرة، ما جعلها تتخلّص من الوكالات المؤقتة. في وقت لاحق، أنشأ المديرون فرقاً صغيرة من – المخضرمين الأوائل في كامب فورس – أُطلق عليهم اسم «الفرق الخارجية»، لتدريب العمال في المرافق التي افتتحت للتو في تريسي، في كاليفورنيا؛ مورف ريسبورو، تينيسي؛ وروبنزفيل، نيو جيرسي. في أوائل عام 2017، أعلنت أمازون عن الجولة الأخيرة من عمليات كامب فورس في مستودعاتها في كامب بيلسفيل

ومورف ريسبورو، هاس ليت، سان ماركوس وتكساس (تم إغلاق موقعي فيرنلي ونيفادا، وافتتح موقع جديد في رينو لم يعمل به موظفو كامب فورس).

إن عمال التوصيل والتشغيل، هم مثال للراحة لأصحاب العمل الباحثين عن التوظيف الموسمي. يظهرون أين ومتى تكون هناك حاجة إليهم؛ فهم يجلبون منازلهم، ويحولون متنزّهات المقطورات إلى قرى شركات سريعة الزوال تفرغ بمجرد انتهاء الوظائف منها. ليس لديهم الوقت الكافي لتكوين نقابات، وكثيرون منهم متعبون ولا رغبة لديهم بالتواصل الاجتماعي بعد ورادياتِ عملهم بسبب الجهد الجسدي الكبير الذي تحتاجه الوظيفة.

كما أنهم يتطلبون القليل من الفوائد والحماية. على العكس من ذلك، فمن بين أكثر من خمسين عاملاً قابلتهم في السنة الأولى من تحضيري للتقرير عن العمال، أعرب معظمهم عن تقديرهم لأيِّ نوع من الاستقرار قد توفره وظائفهم قصيرة الأجل. خذ على سبيل المثال جوان جونسون البالغة من العمر 57 عاماً، والتي أثناء صعودها إلى الطابق العلوي في منشأة كامبلسفيل في أمازون تعثّرت وسقطت، فاصطدم رأسها بحزام ناقل مزود بقضيب. تم تضميدها في مركز إم كير في – مرفق طبي داخلي – ثم نُقلت إلى غرفة الطوارئ. تركتها الحادثة بعينين معتمتين وتسع قطب على طول خط شعرها. استذكرت بحرارة ذلك الحادث: « لقد سمحوا لي بمتابعة عملي ولم يطردوني». في اليوم التالي لإصابتها، زارت ممثلة الموارد البشرية عربتها المتنقلة التي تسكنها مع زوجها جونسون البالغ من العمر سبعة وستين عاماً، وهو عامل سابق. والذي كان قد وعد أصحاب عملها بأنها لن تركض على الدرج مرة أخرى أبداً.

تساءلتُ عن سبب ترحيب شركة مثل أمازون بالمرشحين الأكبر سناً للوظائف التي تناسب الموظفين الأصغر سناً، فأجاب جونسون: «هذا لأننا جديرون بالثقة، نحن نعلم أنك إذا التزمت بشيء ما، فإنك تبذل قصارى جهدك لإنجاز هذه المهمة. نحن لا نأخذ أيام عطلة ما لم نضطر إلى ذلك» (غاب

جونسون عن يوم عمل واحد كان غير مدفوع الأجر ريثما تتعافى زوجته من جرح رأسها).

يؤكد الأشخاص الذين يديرون كامب فورس الاعتقاد بأن العمال الأكبر سناً يجلبون أخلاقيات عمل جيدة، قالت كيلي كالميز، مديرة البرنامج في كامبل خلال ندوة برعاية أخبار العمل عبر الإنترنت: «لقد كان لدينا أشخاص في الثمانينات من عمرهم يقومون بعمل استثنائي بالنسبة إلينا. إن الفائدة التي تعود على العمال، في الغالب، تتمثل في أنكم يا رفاق قد باشرتم الحياة العملية في سن أكبر قليلاً. أنتم تفهمون ما هو العمل، وتركزون عليه، ونحن نعلم أنه سباق ماراثون، وليس سباقاً سريعاً. إنّه يشبه نوعاً ما سباق السلحفاة والأرنب. لدينا بعض الأشخاص الأصغر سناً الذين سيتسابقون. أنتم يا رفاق منهجيون جداً، وما عليكم سوى العمل حيثما تذهبون. وفي نهاية اليوم، صدقوا أو لا تصدقوا، أنتم تعبرون خط النهاية في الوقت نفسه تقريباً».

علاوة على ذلك، تحصل أمازون على حسومات الضرائب الفيدرالية – والتي تتراوح من 25 إلى 40 في المئة من الأجور – لتوظيف العمال المحرومين في العديد من الدوائر، بما في ذلك المسنون المستفيدون من مؤشر الضمان التكميلي، وأيِّ شخص موجود على قسائم الطعام. يعرف أعضاء في كامب فورس كل شيء عن هذا الحافز، كما أشارت إحدى العاملات المتجولات على مدوّنتها: «إنّ فرصة العمل والتخفيض الضريبي هو السبب الذي يجعل أمازون تتحمل مثل هذه القوة البطيئة وغير الفعّالة».

***

إن موقف العمالة الموالي لكبار السن ليس فريداً من نوعه بالنسبة إلى أمازون. في ندوة توظيف عبر الإنترنت لموسم حصاد الشمندر السكري السنوي، أشاد سكوت ليند غرين، الشريك الإداري لوكالة التوظيف السريع

المؤقت بصمود المسنين القاطنين في عربات السكن المتنقلة، وذلك عندما قال:

«لقد وجدنا أيضاً أنكم، يا عمال المخيم، تتمتعون بأخلاقيات عمل رائعة، لهذا فإننا نحييكم، ونعلم أنكم عملتم بجد طوال حياتكم، وأنه يمكننا الاعتماد عليكم لإنجاز المهمة، وأنكم من أفضل العاملين لدينا».

وافقه الرأي ديفيد رودريك، العامل البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً. والذي قال لي: «إنهم يحبوننا نحن المتقاعدين لأننا جديرون بالثقة. سنعمل بجد، ونكون أساس عمالة السخرة». ثم تحدث متذكراً شتاء عام 2012 عندما باع هو وزوجته، البالغة من العمر سبعين عاماً، أشجار عيد الميلاد في مركز أحداث سان ماثيو في كاليفورنيا أثناء إقامتهما في عربة السكن المتنقلة الخاصة بهما ديزي ليزي التي يعود تاريخ صنعها إلى اثنتي عشرة سنة خلت، والتي يصل ارتفاعها إلى تسع أقدام. كانت وظيفته تتضمن تحميل أشجار الصنوبر التي يصل طولها إلى تسع أقدام بسيارات وشاحنات العملاء، لمدة ثماني إلى عشر ساعات في كل مرة، ولستة أيام في الأسبوع. وقد قال عن الفريق: «أحب البيع، لكن العمل خلف كواليس قطع الأشجار ونقلها هو عمل صغير جداً جداً».

لولا قميص كامب فورس الفيروزي الذي كان يرتديه ديفيد عندما التقينا للمرة الأولى في موقف ديزرت روز للمقطورات، لما بدا الجد، ذو الشعر الأبيض واللحية الصغيرة، مرشحاً محتملاً للعمل المتواصل. بعد أن بدأ مسيرته المهنية في تدريس الكيمياء وعلوم المحيطات في كليات المجتمع بكاليفورنيا، أطلق شركة سياحة بيئية ودرّس اللغة الإنكليزية في الأردن (تلقى ديفيد أيضاً عروضاً للتدريس في السعودية والكويت. لكن العروض سحبت عندما أدرك مقدموها أنه يبلغ من العمر سبعين عاماً، وهو بذلك يتجاوز العمر الذي يسمح به قانون العمل في البلدين).

اختفت الركيزة المالية التي ربما كان ديفيد سيعتمد عليها عندما يتقاعد، فخلال الطلاق في وقت مبكر من حياته، أُجبر على صرف معاشه التقاعدي قبل الأوان، وذلك بعد أن عمل في التدريس في كليات المجتمع في كاليفورنيا لستة عشر عاماً. لو ترك المبلغ الذي كان قد وفّره آنذاك، فإنه كان سينمو ليصبح 500 ألف دولار؛ في ذلك الوقت كانت قيمة مدخراته للمعاش التقاعدي 22 ألف دولار وكان لا بد من تقسيمها بينه وبين زوجته الأولى. لاحقاً تزوّج ديفيد مرة أخرى، وكانت المرأة التي تزوجها قد تلقت أيضاً ضربة مالية، حيث خسرت مبلغاً سنوياً قدره 650 ألف دولار من زواجها الأول في عام 1991 بسبب الانهيار الإداري في صناعة التأمين، والذي كان، في ذلك الوقت، أكبر فشل في تاريخ صناعة التأمين.

عرض لي ديفيد حركات القرفصاء والتمدد التي يقوم بها مئات المرات يومياً في مستودع أمازون، وقال إنه محظوظ لأنه، على عكس زوجته، لا يعاني من أوجاع ولا آلام. وقال إنه يجني في أمازون خُمس ما كان يجنيه في ذروة أيام عمله. قال ديفيد: «أعني، لم أواجه أي مشكلة في العثور على عمل بأجور السخرة هذه، هذا هو العصر الجديد للمتقاعدين».

عندما روى عمالٌ مثل ديفيد قصصهم، بدأت مخيمات الأمازون تبدو أكثر فأكثر كأنها عوالم مصغرة لكارثة وطنية. كانت متنزهات عربات السكن مزدحمة بالعمال الذين قطعوا شوطاً طويلاً بعيداً عن وسائل الراحة للطبقة الوسطى التي كانوا دائماً يعتبرونها أمراً مفروغاً منه. لقد كانوا حاملي لواء كل مغامرة اقتصادية تصيب الأميركيين في العقود الأخيرة. كل شخص منهم لديه قصة؛ أحدهم كان تشاك ستاوت، الذي يبلغ من العمر سبعين عاماً، الذي قدّر أنه يقطع ثلاثة عشر ميلاً في اليوم باعتباره «جامعاً للسلع» في المستودعات، أي يسحب المنتجات من الرفوف لتلبية الطلبات. قال لي: «يسميها الناس سجناً لأنك على مدار الساعة، تكرر الأمر نفسه ولا ترى شيئاً جديداً». في ما مضى من حياته، أمضى تشاك خمسة وأربعين عاماً في مؤسسة ماكدونالدز،

حيث كان موظفاً من ذوي الياقات البيضاء، وعمل مديراً لتطوير المنتجات في أواخر السبعينيات في المقر الرئيسي للشركة العالمية. لكن الأمر انتهى بتشاك مفلساً في عام 2011 بعد أن رأى هو وزوجته باربرا، مدرّسة الموسيقى البالغة من العمر 57 عاماً، 410 آلاف دولار تتبخّر في سوق الأسهم. لقد فقدا منزلهما في هيرون بوينت، ساوث كارولينا فانتقلا إلى حافلة إنترناشيونال سي بريز موديل 1996 والتي يسميانها تي سي (وقد أوضحا أنّ هذا المصطلح يعني في اليوم الجيد «مريح تماماً»، وفي اليوم السيء «علبة من الصفيح»). في الداخل كُتب بأحرف متداخلة «المنزل هو المكان الذي يوجد فيه العناق». بعد أمازون، كانت وظيفتهما التالية هي بيع البيرة والبرغر في فترة تدريبات الربيع في أوكلاندز.

فيل دبيل شخص آخر، وهو من قدامى المخضرمين في ديزرت ستورم يبلغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً. قال: «ما زلت أقول لنفسي إن الأمر مجرد شهرين، إذا كان بإمكاني الخدمة في الجيش، يمكنني أن أعمل في أمازون». بدأ فيل وزوجته روبن، البالغة من العمر ستة وأربعين عاماً، العمل بعد انهيار السوق في العام 2008، بعد ذلك استولى البنك على منزلهما. وهما يعيشان الآن في مقطورة ذات خمسِ عجلات. وقد قاما بسحبها بشاحنة بيك آب دودج 350، الذهبية والكستنائية موديل 1993. وعلى جانب الشاحنة كان هناك ملصق كُتب عليه «أموال سهلة».

قال فيل: «كان الملصق موجود عليها عندما اشتريناها».

***

إن العديد من العمال الذين قابلتهم في مخيمات أمازون كانوا جزءاً من مجموعة سكانية نمت في السنوات الأخيرة بسرعة مقلقة: كبار السن الأميركيين الذين ينحدرون إلى أسفل. في ذروة مكان مثل إمباير – عصر الطبقة الوسطى القوية الكامل مع الاستقرار الوظيفي والمعاشات التقاعدية

– فإنه لا يمكن تصور ظروفهم الحالية. تحدثت معي مونيك موريسي، الخبيرة الاقتصادية في معهد السياسة الاقتصادية، عن الطبيعة غير المسبوقة لهذا التغيير، وأوضحت: «إننا نواجه أول انعكاس على الإطلاق في تأمين التقاعد في تاريخ الولايات المتحدة الحديث. بدءاً من الأطفال الأصغر سناً، فإن أداء كل جيل كان أسوأ من الأجيال السابقة من حيث قدرته على التقاعد دون رؤية انخفاض في مستوى معيشته».

هذا يعني أنه لا راحة للشيخوخة. هناك ما يقرب من تسعة ملايين أميركي، ممن بلغوا الخامسة والستين وما فوق كانوا لا يزالون يعملون في العام 2016، يتوقع الاقتصاديون أن تستمر هذه الأرقام بالارتفاع، إلى جانب ارتفاع النسبة المئوية لكبار السن في القوى العاملة. أظهر استطلاع حديث للرأي أن الأميركيين يخشون الآن تجاوز أصولهم أكثر مما يخشون الموت. وجد استطلاع آخر أنه على الرغم من أن معظم الأميركيين الأكبر سناً ما زالوا ينظرون إلى التقاعد على أنه «وقت فراغ»، فإن 17 بالمئة فقط منهم يتوقعون عدم العمل على الإطلاق في سنواتهم اللاحقة.

***

إن فكرة التقاعد هي اختراع جديد نسبياً. في معظم تاريخ البشرية، عمل الناس حتى ماتوا أو حتى أصبحوا ضعفاء للغاية بحيث لا يستطيعون تحريك أصابعهم، عند هذه النقطة على أي حال ماتوا بسرعة كبيرة. في العام 1795، قام الأب المؤسس، ذو التفكير المستقبلي توماس باين، بصياغة كتيب يسمى «العدالة الزراعية» والذي اقترح معاشاً سنوياً قدره عشرة جنيهات إسترلينية بدءاً من سن الخمسين، والذي اعتبره متوسط العمر المتوقع. لقد تجاهله الأميركيون ومرّ أكثر من قرن قبل أن ينشئ رجل الدولة الألماني أوتو فون بسمارك أول تأمين ضد الشيخوخة في العالم. تم اعتماد خطة بسمارك في العام 1889، حيث منح العمال الذين وصلوا إلى السبعين من عمرهم معاشاً. تم تصميم هذه الخطوة لدرء التحريض الماركسي، وللقيام بذلك بثمن

بخس، حيث إن قلّة من الألمان بلغوا هذا العمر. لقد جعلت خطوة بسمارك منه عرضة للانتقاد من الجناح اليميني، لكنه تجاهل الانتقاد لسنوات. كما قال للرايخستاغ في العام 1881، في مناقشة مبكرة حول التأمين على الموظفين: «أطلقوا عليها اسم اشتراكية أو ما تريدونه، إنه الشيء نفسه بالنسبة إليّ».

أُعلنت فكرة التقاعد في أوائل القرن العشرين في أميركا من قبل ويليام أوسلر، وهو طبيب مشهور ساعد في تأسيس كلية جونز هوبكنز للطب. جادل في خطاب ألقاه عام 1905 بأن العمال يبلغون ذروة العطاء في سن الأربعين، ثم ينحدرون إلى أسفل التل حتى يصلوا إلى الستينات من العمر – وعند هذه النقطة، قال بطريقة مازحة، يبدأ الكلوروفورم بالاقتراب منهم. أصبحت هذه التصريحات تعرف باسم «خطاب الكلوروفورم» وأثارت فضائح وطنية. شبهت هيئة التحرير في صحيفة نيويورك تايمز موقفه بـ «القبائل المتوحشة التي من عادتها ضرب شيوخها على رؤوسهم كلما وجد الصغار أن الشيوخ يعترضون طريقهم الخاصة». في العام 1912، عبّر المدافع لي ولينغ سكوييير عن رأي مماثل:

> *بعد بلوغ سن الستين، يعد الانتقال من عدم الاعتماد إلى التبعية مرحلة سهلة – انتهت الملكية، توفي الأصدقاء أو ذهبوا، وأصبح الأقارب قليلين، وانهار الطموح، ولم يبقَ سوى بضع سنواتٍ قصيرة للعيش، وأصبح الموت نهاية مُرحباً بها – كل هذه الاستنتاجات تُحوّل المسن من عامل مستقل متفائل إلى فقير لا حول له ولا قوة.*

حذا العديد من الدول الصناعية حذو ألمانيا في اعتمادها شكلاً من أشكال التأمين ضد الشيخوخة. لكن الولايات المتحدة تخلفت، وهي أرض الفردانية القاسية؛ بحلول أوائل القرن العشرين، كان أمام الأميركيين المتقدمين في السن خياران للعمل بهما. يمكنهم أن يبقوا في المنازل المعدمة التي ربُّوا فيها أطفالهم، إذا كان لديهم أيٌّ منها. أو يمكنهم الذهاب إلى

دار الفقراء، وهي مؤسسة كئيبة تم استيراد فكرتها من بريطانيا العظمى، حيث كانت الحياة بائسة للغاية، لدرجة أن السكان الذين يُطلق عليهم اسم «النزلاء»، ربما يفضلون في الواقع أن يكونوا موتى. وصف أحد المراقبين لمثل هذه المنشأة في ساندوسكي، بولاية أوهايو، الأمر على النحو التالي: «البناء قديم جداً ومتداعٍ؛ الجدران في حالة سيئة، لا يوجد شاش، أسراب الذباب في كل مكان، لا توجد كراسٍ مريحة، الغرف في غاية القذارة، النزلاء يقومون بالعمل، الطعام فقير جداً وما يسمى بالمستشفى مكان بائس أشبه بالسجن». وبالقدر نفسه من البؤس وصف تقرير صادر عام 1920 مجلس المؤسسات الخيرية بولاية كولورادو بأنه: « كنيسة قديمة وصفت قبل خمس سنوات على أنها غير صالحة للسكن؛ الجدران غير آمنة وآيلة للسقوط، ولا تقي من البرد، الأرضيات القديمة متصدعة وقذرة، أما الأسرّة فعادية وبطابقين وهي بائسةٌ جداً. هناك نزيل طريح الفراش مصاب بالسل في هذا السرير منذ أيلول ولم يستحم... في غرفة متداعية أخرى، تجلس امرأة في ثياب بالية، تبلغ من العمر تسعين عاماً، فوق موقدٍ قديم تستجدي الدفء».

كانت دار الفقراء صادمة ومخيفة لدرجة أنها ذُكرت في أقدم نسخة من لعبة مونوبولي. تقع على زاوية مربع مجلس الإدارة، كانت هذه المؤسسة المدنية الملاذ الأخير لأي لاعب «ليس لديه ما يكفي من المال لدفع نفقاته، ولا يمكنه استثمار أيٍّ من ممتلكاته أو لا يمكنه بيعها أو رهنها»، وفقاً لقواعد عام 1904. في الإصدارات الأحدث، قام مصممو الألعاب بتهيئة منزل فقير وتعبيد مساحة «مجانية لوقوف السيارات».

لقد جعل الكساد الاقتصادي الكبير من نظام التقاعد أمراً حقيقياً في الولايات المتحدة. كان هناك عدد كبير جداً من العمال، وعدد قليل جداً من الوظائف، وبالتالي كان هناك شعور بوجوب إخراج كبار السن من سوق العمل، وفي الوقت نفسه، لم يكن أداء كبار السن من الأميركيين جيداً. بحلول العام 1934، كان أكثر من نصفهم يفتقرون إلى وسائل لإعالة أنفسهم. ابتكر

بعض الولايات بشكل فردي مزيجاً من أنظمة معاشات الشيخوخة، لكنها تمكنت من خدمة جزء صغير فقط من كبار السن المعوزين. بدأ فرانسيس تاون سند، وهو طبيب في كاليفورنيا، وأدار مصنعاً فاشلاً للثلج الجاف، بالضغط من أجل ما أصبح يُعرف باسم خطة تاون سند: إذا تقاعد العامل في الستين، فإن الحكومة الفيدرالية ستقدم له مبلغاً شهرياً يبلغ 200 دولار. في وقت قصير، ظهرت الآلاف من «نوادي تاون سند» في جميع أنحاء البلاد. كان رد فعل الرئيس فرانكلين روزفلت والكونغرس الذي كان يسيطر عليه الديمقراطيون جزئياً على هذه المبادرة الشعبية هو إقرار قانون الضمان الاجتماعي لعام 1935، والذي – على عكس خطة تاون سند – يتطلب من المتقاعدين المستقبليين الانضمام إلى صندوق مشترك طوال حياتهم العملية. بعد خمس سنوات، تم إصدار أول شيك ضمان اجتماعي لإيدا ماي فولر، وهي سكرتيرة متقاعدة تبلغ من العمر خمسة وستين عاماً في فيرمونت. كانت قيمته 22.45 دولاراً.

بعد الصفقة الجديدة، بدأ الاقتصاديون يشيرون إلى نموذج تمويل التقاعد الأميركي على أنه «مقعد ذو ثلاثة أرجل». يتكون من الضمان الاجتماعي والمعاشات التقاعدية الخاصة والاستثمارات والمدخرات المدمجة. في السنوات الأخيرة، بالطبع، تم التخلص من اثنتين من تلك الأرجل. رأى العديد من الأميركيين أن الاستثمارات والمدخرات المدمجة فقدت قيمتها بسبب الركود العظيم. وحتى قبل الانهيار الاقتصادي، كانت مدخرات كثيرين منهم تنخفض أكثر وأكثر وتفقد قيمتها. فمنذ ثمانينيات القرن الماضي، استبدل أصحاب العمل معاشات التقاعد ذات المزايا المحددة التي يُموّلها أصحاب العمل ويضمنون بها مبلغاً شهرياً إلى الأبد، خطط 401 (ك)، والتي غالباً ما تعتمد على مساهمات الموظفين، ويمكن لها أن تجفَّ قبل الوفاة. لقد تم اعتبارها أدواتٍ للتحرر المالي من شأنها أن تتيح للعمال اتخاذ خياراتهم الاستثمارية الخاصة، وكانت 401 (ك) جزءاً من تيار ثقافي كبير في أميركا بعيداً

عن المسؤوليات المشتركة نحو فردية أكثر خطورة. ويمكن شرح ذلك بأن 401 (ك) كانت أرخص للشركات بكثير من خطة المعاش التقاعدي.

كتب عالم السياسة في جامعة جاكوب، أس هاكر في كتابه تحول المخاطر الكبرى: «على مدى الجيل الماضي، شهدنا مخاطر اقتصادية من الهياكل العريضة للتأمين، والتي يرعاها قطاع الشركات وكذلك الحكومة، على الميزانيات العمومية الهشة للعائلات الأميركية». الرسالة واضحة وشاملة: «أنت وحدك». كل هذا يعني أن الضمان الاجتماعي هو الآن أكبر مصدر منفرد للدخل لمعظم الأميركيين في سن الخامسة والستين وما فوق. لكنه دخلٌ غير كافٍ على الإطلاق. قال الاقتصادي بيتر برادي ساخراً: «بدلاً من موقد بثلاثةِ أرجل، لدينا عصا البوجو».

هذا يعني بالكاد ما يكفي للضروريات. قد يُجبر ذلك قرابة نصف العمال، الذين ينتمون عادة إلى الطبقة الوسطى عندما يتقاعدون على العيش على ميزانية طعام لا تزيد على 5 دولارات في اليوم، وفقاً لتريزا غيلاردوتشي: «هذا ما أسميه نهاية التقاعد». لا يستطيع العديد من المتقاعدين ببساطة البقاء على قيد الحياة دون نوع من الراتب. وفي الوقت نفسه، أشارت إلى أن وظائف كبار السن من الأميركيين تدفع يوماً بعد يوم رواتب أقلّ وبالمقابل يكون الجهد الجسدي المبذول كبيراً. إنها قلقة من أننا نعود إلى العالم الذي وصفه لي ولينغ سكوير منذ أكثر من قرن. وأضافت أن أي مناقشة جادة لهذه المشكلة هي وصمة عار ثقافية. قالت: «أنا لا أتحدث أبداً عن هذه المسألة من حيث الرغبة في التقاعد. فالأميركيون يمقتون فكرة أنّك تتحرك وأنك لست منتجاً».

بعد كل شيء، فإن مجرد ذكر «التقاعد» يهدّدُ باستدعاء الصورة النمطية: رجل البعبع الذي استحضره منتقدو الضمان الاجتماعي في مطلع القرن الحادي والعشرين، وفي مقدمتهم السيناتور الأميركي السابق آلان سيمبسون من وايومنغ. يقضي» الجشِع» سنواته الذهبية في أوقات الفراغ الغنية بينما يستنزفُ شريان الحياة من أجيال الشباب. إنه مصاص دماء

شيخوخة، نسخة سبعينية من «ملكة الرفاهية» لرونالد ريغان، الاّ أنها كانت تقود سيارة كاديلاك، فيما وصف الكاريكاتير آلان سيمبسون وهو يقود سيارة لكزس. كما اُشتهر سيمبسون بأنه شجب آراء مجموعة «الفهود الوردية»، وهي مجموعة ضغط مؤيدة للضمان الاجتماعي، وهي ليست موجودة في الواقع؛ لقد اخترعها كرجلٍ من القش – أو امرأة قش؟ – ليقدّم جدالاً. وعندما اتهمته مجموعة رابطة النساء المسنات، وهي مجموعة مناصرة فعلية، بإلقائه النقد اللاذع ضد الشيخوخة والتحيّز الجنسي، قام بالتعمق في الحديث عن ذلك، وأرسل لهم رسالة بريد إلكتروني ليقول لهم فيها إن الضمان الاجتماعي أصبح «مثل بقرة حلوب فيها 310 ملايين ثدي!».

انتهى هذا البريد الإلكتروني بصيغة ساخرة. يبدو أنه يظهر إلى أن هذا المُشَرِّع لم تطأ قدمه مكاناً مثل قرى شركة أمازون الجديدة، كما أنه لم يلتقِ بأيٍّ من العديد من كبار السن الأميركيين الذين يجب عليهم أن يعملوا لساعات طويلة لتكملة مزاياهم الضئيلة، والتي كتب عليها: «اتصل عندما تحصل على عمل نزيه!».

الفصل الرابع
خطة الهروب

عندما واجهت مشكلة لا يمكن التغلب عليها – استحقاقات ضمانها الاجتماعي المنخفضة – قامت ليندا بما سيفعله أي شخص في مكانها: استعانت بالإنترنت. صادفت موقعاً على شبكة الإنترنت يذكر ما يلي:

> *ربما كنت متشرداً في الماضي من الأيام، فهل تظن أنك لن تستطيع أبداً تحمل نفقات حياة الحرية التي تتوق إليها؟*
>
> *ربما سئمت من حياتك العملية التنافسية الصعبة، وتريد تبسيط حياتك. لدينا أخبار سارة لك؛ تستطيع ذلك، ونحن هنا لنوضح لك كيف.*

كانت ليندا قد اكتشفت موقع CheapRVLiving.com، والذي أنشأه عامل رفوف سابق في متاجر سيفواي من ألاسكا يُدعى بوب ويلس. تخيل أن عقيدة مناهضة النزعة الاستهلاكية تم التبشير بها بحماسة إنجيل الرخاء؛ تلك كانت رسالة بوب. لقد بشر بالعيش بسعادة بالقليل.

تمحورت جميع كتاباته حول مبدأ واحد؛ اقترح أن أفضل طريقة للعثور على الحرية هي أن تصبح ما يعتبره المجتمع السائد مشرداً. كتب بوب: «السر هو التخلص من أعلى تكلفة فردية يملكها معظمنا، وهي مساكننا». وحث القراء على تجنب المنازل والشقق التقليدية لصالح ما يسميه بعض الرُحل (ملكية متنقلة): شاحنة، أو سيارة، أو عربة سكن متنقلة. وأشار إلى أن سكان

العربات المتنقلة يعيشون بكلفة 500 دولار شهرياً أو أقل – وهو مبلغ منطقي بالنسبة إلى ليندا– وصاغ نموذجاً للميزانية حيث يوزع هذا المبلغ الزهيد ليؤمن ضروريات الحياة، بما في ذلك مخصصات الطعام، والتأمين على السيارات، والغاز، وخدمة الاتصال، وادخار مبلغ صغير للطوارئ.

بدأت رحلة بوب الطويلة بالعيش في مركبة قبل حوالى عقدين من الزمن، بحماسة قليلة نوعاً ما. في العام 1995 عانى من طلاق مرير من زوجته، أم ولديه الصغيرين، بعد أن استمر زواجهما لمدة ثلاثة عشر عاماً. وكان (مدمن ديون) كما لقب نفسه، حيث تجاوز الحد الأقصى لبطاقات الائتمان بما يقارب ثلاثين ألف دولار، وكان يستعد لإعلان إفلاسه. عندما حان الوقت ليخرج بوب من مقطورة عائلته المزدحمة في أنكواريج، رحل إلى واسيلا، حيث اشترى قبل سنوات بضعة هكتارات مخططاً لبناء منزل هناك. حتى الآن لم يكن لديه سوى أساس وأرضية، عاش في خيمة ولم يبالِ، واستخدم المكان كمعسكر أساسي يمكنه من خلاله السفر لمسافة خمسين ميلاً إلى أنكواريج للعمل.

قبل فترة طويلة، كان يتوق إلى أن يكون أقرب إلى ولديه وإلى متاجر سيفواي حيث عمل هناك بوظيفة ثابتة. (كان والده مديراً في متاجر سيفواي، وكان بوب قد عمل هناك لأول مرة في حياته في مجال التوضيب، في عيد ميلاده السادس عشر). لكن الشقق في أنكواريج كانت باهظة الثمن، وبدا أن إعالة أسرتين منفصلتين شبه مستحيلة. من أصل 2400 دولار، التي كان يتقاضاها كل شهر، كانت طليقته تأخذ نصفها، قال بوب: «هي تأخذ 1200 دولار من راتبي، ويتبقى لي 1200 دولار، ولا يمكنك استئجار شقة في أنكواريج بهذا المبلغ. في معظم الأماكن يمكنك هذا، لكن بالتأكيد ليس في أنكواريج». في هذا الوقت، كان يضيع الوقت، وأموال الوقود بالتنقل بين أنكواريج وواسيلا كل يوم. بدأ يشعر باليأس، لذا حاول إجراء تجربة.

لتوفير الوقود، بدأ في قضاء أسبوع العمل في المدينة، والنوم في شاحنة صغيرة قديمة من طراز فورد كورير مزودة بمكان للتخزين، ثم العودة إلى واسيلا في عطلات نهاية الأسبوع، وهذا ما خفف بعض الضغط. عندما كان في أنكواريج، ركن سيارته بجانب السيفواي مباشرةً، ولم يمانع المدراء. وإذا تخلف شخصٌ ما عن وردية عمل، كانوا ينادون بوب، نظراً لأنه يعيش بجانب السيفواي مباشرة، وكان يسجل وقتاً إضافياً بهذه الطريقة. كل ذلك جعله يتساءل: هل يمكنني أن أفعل هذا بشكل دائم؟ لم يتخيل بوب العيش على الدوام في عربته الصغيرة، لكنه بدأ يفكر في الخيارات الأخرى. في تنقلاته، كان يقود سيارته متجاوزاً شاحنة صغيرة محطمة من طراز تشيفي عليها لافتة (للبيع)، مركونة أمام متجر للأدوات الكهربائية. وذات يوم دخل المتجر ليسأل عنها، وعلم أن السيارة ليس فيها أي مشاكل ميكانيكية. لقد كانت قبيحة للغاية ومدمرة لدرجة أن المدير شعر بالحرج لإرسالها لخدمة الزبائن. كان السعر المطلوب 1500 دولار، وهو المبلغ نفسه الذي تركه بوب في المدخرات، فجازف بكل ما يملك. كانت جدران الشاحنة الصندوقية بطول سبعة أقدام، وباب خلفي قابل للطي. كانت أبعاد الأرضية (8×12) قدماً. قال بوب إنها بحجم غرفة نوم صغيرة، عندما يفرش وسادة نومه وبطانياته. ولكن عندما استلقى في تلك الليلة الأولى، وجد نفسه يبكي. بغض النظر عما قاله لنفسه، فإن الانغماس في هذه الحياة الجديدة كان يحطم الروح.

لم يكن بوب في الأربعين عاماً من عمره شخصاً مبتهجاً أو متفائلاً. منذ الطفولة، تعلم دروساً صعبة بشأن عدم الثبات بينما كانت الأرض تهتز حرفياً تحت قدميه. عندما كان طفلاً صغيراً، كان والداه المتزوجان وغير السعيدين قد انتقلا بين فلاغستاف وبريسكوت، أريزونا، وبونكا سيتي، أوكلاهوما. في العام 1961، وهو العام الذي بلغ فيه السادسة من عمره، استقرت عائلته في أنكواريج. وبعد ثلاث سنوات، انتهى العالم، أو على الأقل هذا ما شعر به بوب. ضرب ثاني أكبر زلزال مسجل في التاريخ جنوب وسط ألاسكا عند الساعة 5:36 من بعد الظهر في 27 آذار 1964، عندما حدث تصدع بين الصفائح

التكتونية في المحيط الهادئ وأميركا الشمالية. سُجل زلزال ألاسكا العظيم، المعروف أيضاً باسم زلزال الجمعة العظيمة، 9.2 درجة على مقياس ريختر، واستمر أربع دقائق ونصف مرعبة، وحصل بعد ذلك سلسلة من الهزات الارتدادية، واجتاح تسونامي مدن ألاسكا الساحلية. تعرّضت مدينة أنكواريج للدمار بسبب الانهيارات الأرضية التي دمرت مجمعات سكنية بأكملها، وانهار برج المراقبة الذي كان يبلغ ارتفاعه ستين قدماً في مطار أنكواريج الدولي، وانهارت الألواح الخرسانية من واجهة مبنى جي سي بيني المكون من خمسة طوابق، وهذا ما أدى إلى موت الناس وتحطيم السيارات من تحته. وفي مدرسة بوب، دينالي الابتدائية، انتشرت الشقوق في الأساس وانهار، وتحطمت المدخنة القرميدية فوق سقف المبنى، وهذا ما أدى إلى إغلاق المبنى حتى العام التالي.

كان بوب منكمشاً في منزله من دون إنارة أو تدفئة. في الخارج كان درجة الحرارة تحت الصفر وكانت الثلوج تغطي الأرض، قال بوب: «أعني أن الأرض كانت تنفتح حولك، ثم تتالت الهزات طوال الليل، كنا نسمع انفجار المنازل. قد ترقد هناك في السرير وتسمع انفجار منزل ما. بسبب التسرب الطبيعي للغاز، وهذا ما يؤدي إلى اندلاع النيران فيه». لم ينفجر منزله تلك الليلة، لكن هذا حدث بشكل ما، بعد سبع سنوات، عندما كان في السادسة عشرة من عمره وانفصل والداه أخيراً، واختارت أخته العيش مع والدتهما. وشعر بوب بالأسف على والده، وقرر البقاء معه. لم يمض وقت طويل حتى أصبح يعيش مع زوجة أب يكرهها تحت سقف واحد. عندما بلغ بوب سن الرشد، تخلص من مشاعر الفراغ. في السنوات التالية، سيحاول ملء هذا الفراغ بكل ما هو في متناول اليد: الديون، والطعام، والجنس، والدين.

عموماً لم يكن بوب فخوراً بالحياة التي كان يبنيها، ولكن عندما انتقل إلى شاحنة صندوقية في سن الأربعين، ولم يبق لديه أي مشاعر تتعلق بتقدير الذات، كان يخشى أن يصل إلى الحضيض. لقد كان ينظر إلى نفسه بشكل

نقدي: رجل من الرُحل عامل، وأب لطفلين، لم يستطع الحفاظ على زواجه، وأصبح يعيش في سيارة. قال لنفسه أنه مشرد، وفاشل. وقال: «البكاء حتى النوم كان روتيني اليومي». تلك الشاحنة الصندوقية الصغيرة ستكون منزله على مدار السنوات الست المقبلة. مع ذلك، العيش هناك لم يكن بائساً كما توقعه. بدأت الأمور تتغير حيث جعل المكان صالحاً للسكن، وبنى أسرة من طابقين من الخشب بأبعاد 2×6، نام في الطابق السفلي واستخدم الجزء العلوي كمخزن، وجلب كرسياً مريحاً. وعلّق رفوف بلاستيكية على الجدران. في مطبخه المؤقت كان لديه صندوق ثلج، وموقد برأسين من نوع كولمان. أما بالنسبة للماء، فكان يذهب إلى دورات المياه في المتاجر ويملأ منها غالوناً.

يأتي ولداه لزيارته في أيام إجازته من العمل، كان أحدهما ينام على السرير والآخر على كرسي الاستلقاء. عندما تذكر بوب كيف كان يعيش في الماضي، وجد أنه لم يفتقد الكثير. على العكس من ذلك، فإن التفكير في بعض الأشياء التي يفتقر إليها الآن – على وجه الخصوص فواتير الإيجار والخدمات – جعله يشعر بالدوار.

جعل بوب عربته أكثر راحة بالمال الذي كان يوفره؛ قام بعزل الجدران والسقف، واشترى سخاناً مزوداً بخزان بروبان سعته أربعون غالوناً ليظل دافئاً عندما تنخفض درجات الحرارة في الشتاء إلى ما دون 30 درجة تحت الصفر، وركّب مروحة في السقف للحفاظ على البرودة في الصيف. بعد أن أضاف مولداً وبطارية ومحولاً، كان من السهل تشغيل المصابيح في الليل، وسرعان ما أصبح لديه ميكروويف وتلفاز قياس 27 بوصة. لقد أصبح متعلقاً جداً بأسلوب الحياة الجديد هذا، لدرجة أنه عندما انفجر المحرك في عربته، لم يتداع. باع بوب أرضه في واسيلا، وكذلك منزله الذي كان قيد البناء والذي استعان ببطاقات الائتمان في تشيده. ذهب جزء من المال لإصلاح محركه، واعترف بوب على موقعه: «بصراحة لا أعرف إن كنت سأتحلى بما يكفي من الشجاعة للقيام بذلك إن لم أكن مجبراً». لكن عند التفكير بما حدث، يبدو سعيداً بحدوث

هذا التغيير، عندما قابلته قال لي: «عندما انتقلت إلى العربة، أدركت أن كل ما قاله لي المجتمع كان كذبة – أنني يجب أن أتزوج وأعيش في منزل مع سياج أبيض، وأن أذهب إلى العمل، وسأكون سعيداً في نهاية حياتي، بينما سأكون تعيساً حتى ذلك الوقت، كنت سعيداً للمرة الأولى على الإطلاق عندما عشت في عربتي».

في العام 2005، بدأ بوب في موقع CheapRVLiving.com كمجموعة متواضعة من المقالات الإرشادية للقراء الذين يأملون العيش في سيارة بميزانية صغيرة، كان السر هو: (بوندوكينغ) أي الانفصال عن شبكة الطاقة بدلاً من الاعتماد على توصيلات المياه والصرف الصحي والكهرباء التي تحصل عليها في مكان مدفوع الأجر في حديقة المقطورات. على الرغم من اتساع نطاق استخدامها غير الرسمي، فإن كلمة (بوندوكينغ) – كما سيشير الأصوليون سريعاً – تعني أيضاً أن يركن المرء عربته في الخلاء، ولكن هذا لا ينطبق على سكان المركبات الذين يقومون بهذا في المدن. (إنهم يركنون مركباتهم أو يخيمون في أماكن غير مخصصة لقضاء الليلة). على أي حال، شارك موقع بوب على الإنترنت استراتيجيات لنوعي المعيشة هذين.

بعد الانهيار المالي عام 2008، ازداد عدد زوار موقع CheapRVILiving.com بشكل كبير جداً. كتب بوب لاحقاً: «بدأتُ أتلقى رسائل البريد الإلكتروني كل يوم تقريباً من الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم، كانت مدخراتهم تنفد، وكانت منازلهم تحت الرهن العقاري». لقد نُبذ هؤلاء القراء من الطبقة الوسطى، وكانوا يحاولون تعلم كيفية البقاء على قيد الحياة. عبارات غوغل مثل (الميزانية) و (الذين يعيشون في سيارة أو عربة) جلبتهم إلى موقع بوب. وفي حين تم إلقاء اللوم على ضحايا هذه المصيبة الاقتصادية، قدم لهم بوب التشجيع بدلاً من الازدراء. يقول: «في وقت من الأوقات، كان هناك عقد اجتماعي مفاده أنه إذا اتبعت هذه القواعد (ذهبت إلى المدرسة، وحصلت على وظيفة، وعملت بجد) سيكون كل شيء على ما يرام». يمكنك

فعل كل شيء بشكل صحيح، تماماً بالطريقة التي يريدها المجتمع، وسينتهي بك الأمر مفلساً، وحيداً، ومشرداً». اقترح بوب أنه بالانتقال إلى العربات الصغيرة والمركبات الأخرى، سيستطيع الناس أن يعبروا بصمت عن اعتراضهم على النظام الذي خذلهم. يمكن أن يولدوا من جديد في حياة الحرية والمغامرة.

***

لم يكن هذا جديداً، في منتصف الثلاثينيات، كانت أميركا في قبضة الكساد الكبير، وتم إنتاج المقطورات المنزلية للمرة الأولى. الهواة وبناة المنشآت الصغيرة كانوا يصنعونها للتسلية منذ سنوات، لكن الآن ارتفعت شعبيتهم. روت مجلة (فورشن) منذ سنتين: «في البداية... كانت المقطورة مجرد طريقة مختلفة للتخييم... ثم اكتشف الناس أنهم قادرون على العيش هناك».

في ذلك الوقت، تشارك الملايين من الأميركيين المحرومين من ممتلكاتهم ذاك الشعور الذي عبر عنه بوب لاحقاً. لقد أيدوا نهاية العقد الاجتماعي، لأن النظام قد خذلهم. كان لدى بعض هؤلاء الأشخاص إيحاء بأنه يمكنهم الهروب من قبضة الإيجار عن طريق الانتقال إلى المقطورات المنزلية، ليصبحوا من الرحّل، ويتحررون. تباً، كان ذلك سيتفوق على هوفرفيل، كما جاء في مقالة في صناعة السيارات لعام 1936: «اذهب إلى أي مكان، توقف في أي مكان، الهروب من الضرائب والإيجار؛ هذا شيء لا يقاوم. لا شيء سوى الموت يمكن أن يقدم لك كل هذه الميزات في رزمة واحدة».

كتب أحد علماء الاجتماع البارزين في صحيفة نيويورك تايمز في العام 1936: «لقد أصبحنا بسرعة أمة تسير على عجلات، اليوم حشد مئات الآلاف من العائلات ممتلكاتهم في منازل متنقلة، ودّعوا أصدقاءهم، وانتقلوا إلى

الطرق المفتوحة.... [قريباً] سيعيش المزيد من العائلات في المقطورات، وهذا سيجعل نسبة كبيرة من شعبنا رُحلاً متجولين».

روجر وارد بابسون، المحلل المالي الذي توقع انهيار سوق عام 1929، لفت الأنظار عندما أعلن أن نصف الأميركيين سيعيشون في مقطورات منزلية بحلول الخمسينيات، أعلنت مجلة هاربر أن: «المنازل ذات العجلات (تمثل) طريقة جديدة للحياة ستغير في النهاية هندستنا، وأخلاقنا، وقوانيننا، ونظامنا الصناعي، ونظامنا الضريبي». على مدار ربع القرن التالي، اشترى الأميركيون أو بنوا في مرائبهم أو في ساحاتهم الخلفية ما يُقدر بمليون ونصف إلى مليوني مقطورة منزلية. انتهت هذه البدعة قرابة العام 1960، بظهور ما يسمى (المنزل المتنقل): وحدات سكنية مُصنعة غير مكلفة، كانت أكثر اتساعاً من المقطورات، ولكنها توفر قدراً أقل من الحرية نظراً لأنها سُحبت إلى مكانها المخصص، ومكثت هناك.

انقسم النقاد الاجتماعيون حول سكان المقطورات والبيوت المتنقلة، واصفين إياهم برواد محبين للحرية أو أنهم منذرون بالتفكك الاجتماعي. الكاتب ديفيد آي ثورنبيرغ، الذي عاش والداه لمدة خمسة عشر عاماً في منزل متنقل، رأى في رغبتهم في تقرير مصيرهم، ثورة هادئة، وكتب في كتابه غالوبينغ بانغالوز:

> *وهكذا، من قلب الكساد العظيم ولد حلم جديد: حلم الهروب، الهروب من الثلج والجليد، ومن الضرائب المرتفعة والإيجارات، من نظام اقتصادي لم يعد يثق به أحد. الهرب! لفصل الشتاء، لعطلة نهاية الأسبوع، أو لبقية حياتك. كل ما تطلبه الأمر هو القليل من الشجاعة، ومقطورة يبلغ ثمنها 600 دولار.*
>
> *أضاف موضحاً:*

لقد أدى الكساد الكبير إلى أن يكون ملايين الأميركيين من جميع الأعمار والطبقات في حالة عجز... لكن قلة من الناس رأوا الفرصة وسط كل هذه الفوضى، فرصة لإعادة بناء عالمهم، وقيمهم الشخصية وربما بخطوط أقل عرضة للخطر. وكان من بينهم سكان المقطورات في الثلاثينيات، أكثر من مليون شخص قوي، ومثالي، ومتمرد، ومفكر، ووقور. إنهم الأشخاص الذين اختاروا عدم انتظار الحكومة أو الشركات الكبرى لإنقاذهم، والذين اختاروا أن يتحملوا مسؤولياتهم الاقتصادية. الأشخاص الذين اختاروا أن يفلتوا من حبل المشنقة، ويشكلوا لأنفسهم ثقافة فرعية جديدة تماماً؛ حياة أكثر حرية قليلاً، وأكثر استقلالية قليلاً، وأقل قلقاً، وأقرب قليلاً إلى رغبات قلوبهم.

***

حتّى مع تحسّن سوق الأوراق المالية، ظل بوب يسمع عن لاجئين اقتصاديين جدد جلب لهم (الانتعاش الذي لم يولد فرص عمل) قدراً من الراحة. وبدا أنه، على عكس سكان المقطورات في الثلاثينيات، الذين عاد معظمهم في النهاية إلى السكن في البيوت الاعتيادية – كانت الموجة الجديدة من الرحّل تستعد لانتقال دائم. كتب بوب في منشور لعام 2012 حول وضع الميزانية:

«المال هو مشكلة رئيسية للجميع، خاصة في ظل اقتصادنا الحالي السيئ للغاية. كل أسبوع تقريباً أتلقى بريداً إلكترونياً من قارئ يخبرني فيه أنه فقد وظيفته منذ فترة والآن هو مطرود. يسألونني من بين أسئلة أخرى، عما إذا كان بإمكانهم تحمل تكاليف العيش في مقطورة. أكتب وأجيب على أسئلتهم الأخرى، ثم أسألهم: «كيف يمكنك ألا تكون قادراً على تحمل تكاليف العيش في مقطورة؟». أنا مقتنع بأن العيش في سيارة أو عربة صغيرة أو عربة سكن متنقلة هو إلى حد بعيد أرخص وسيلة ممكنة للعيش على المدى

الطويل». بحلول ذلك الوقت، تضمن موقع بوب تقارير عن الإقامة في المركبات من جميع الأحجام، من فورد فيستيفا الصغيرة، وتويوتا بريوس، إلى عربات من كل طراز يمكن تصوره، حتى أن حافلة تابعة لسلاح الجو الأميركي تم الاستغناء عنها. كما تم عرض قصص لبعض سكان هذه العربات، بما في ذلك تشارلين سوانكي (الملقبة بسوانكي ذات العجلات)، التي انتقلت إلى شاحنة صغيرة في سن الرابعة والستين عندما كانت مفلسة للغاية وغير قادرة على استئجار شقة لائقة، وكانت تعاني من مشاكل في ركبتيها إضافة إلى الربو. لقد ناسبها هذا الأسلوب من الحياة؛ لقد خسرت خمسة وستين رطلاً، وشرعت في رحلة للتجذيف عبر جميع الولايات الخمسين في قارب كاياك أصفر نقلته فوق شاحنتها. (انتهى الأمر بسوانكي بإكمال رحلتها في السبعين من عمرها ووضعت هدفاً جديداً: المشي لمسافات طويلة على طريق أريزونا الذي يبلغ طوله 800 ميل).

في مقالة أخرى، وصف رحال يدعى تروبر دان فقدانه لوظيفته في أوهايو والعيش في عربة بيضاء ذات سقف أحمر من طراز تويوتا، كان يقودها إلى جنوب فلوريدا، وأطلق عليها اسم بي أو في، أو سيارة رحلات. بصفته أحد الناجين المتحمسين، كان مستعداً للمصائب المفاجِئة. وكتب على الموقع الإلكتروني: «أنا مجرد رجل عادي وقع ضحية التباطؤ الاقتصادي الحالي، أشعر أنني أقوم بالتخييم ولا أعتبر نفسي مشرداً، أعتقد أن هذه علامة على أشياء قادمة، وسنرى أشخاصاً يعيشون في الخيام والمركبات في كل مكان. (أتتذكّرون مدن هوفر؟). التشرد في البيوت المتنقلة كان سيئاً للغاية، لدرجة أن الشرطة لم تعد تمنعهم من السكن في المركبات».

لدى سوانكي خريطة في عربتها تخلد ذكرى التجذيف بالكاياك في جميع الولايات الخمسين.

تناول موقع CheapRVLiving.com مواضيع متنوعة، كاختيار مركبة وتجهيزها وإيجاد وظائف موسمية وتناول الطعام الصحي على الطريق. أوضحت البرامج التعليمية كيفية تركيب الألواح الشمسية على السطوح، والتي انخفضت أسعارها خلال العقد الماضي، وهذا ما جعل التكنولوجيا، التي كانت متاحة في السابق فقط للأشخاص الأثرياء نسبياً، في متناول سكان المقطورات ذوي الميزانية المنخفضة. وكي يتجنبوا مضايقات المارة أو الأسوأ من ذلك الاستدعاء والمخالفة من قبل الشرطة، نصح القراء بإخفاء ألواحهم الشمسية بين قضبان عربة الأمتعة.

في حين أن العديد من مقالات بوب التي نشرها كانت واقعية بحتة، إلا أنه انخرط أيضاً في الفلسفة. نشر اقتباسات ملهمة من حقيبة المفكرين، من بريف هارت وديل كارنيجي وجبران خليل جبران وهيلين كيلر وهنري ديفيد ثورو وجون رونالد تولكين. اقترح بوب أن أسلوب الحياة المختزل والمتجول

يمكن أن يتجاوز بكثير تلبية الاحتياجات الأساسية، ليصبح بوابة لطموحات أعلى: الحرية، وتحقيق الذات، والمغامرة.

قد يوحي هذا النوع من الحياة للأميركيين بنسخة حديثة من رواية عناقيد الغضب. لكن من الجدير ذكره أنها كانت عاملاً حاسماً، بالنسبة للاجئين الرحّل الذين عاشوا في فترة قصعة الغبار والذين نُعيوا باسم (أوكيز)، كان تقدير الذات يعني الحفاظ على الأمل الوحيد الثمين: أنه في يوم من الأيام، سيعود الوضع الراهن، ويعيدهم إلى المساكن التقليدية، وسيستعيدون القليل من استقرارهم، جنباً إلى جنب مع العديد من عابري الطريق الذين أتى لإلهامهم: رأى بوب الأشياء بشكل مختلف؛ لقد تصور مستقبلاً أصبحت فيه الاضطرابات الاقتصادية والبيئية هي الوضع الطبيعي الأميركي الجديد. لهذا السبب، لم يضع حياة الرحّل كحل مؤقت، أو شيء يلجأ إليه الناس حتى يستقر المجتمع، وعند هذه النقطة يمكنهم العودة للاندماج مع الوضع السائد.

كان بوب يتطلع إلى إنشاء قبيلة متجولة يمكن لأفرادها العمل خارج – أو حتى تجاوز – النظام الاجتماعي المتدهور: عالم مواز يسير على عجلات. بحلول أواخر عام 2013، جذب منتدى مناقشة على موقع بوب أكثر من 4500 عضو مسجل، وبعد أقل من ثلاث سنوات، ارتفع العدد إلى أكثر من 6500. تبادل الرحّل النصائح حول كل شيء من مواكبة البريد إلى التعامل مع الوحدة ومضايقات الشرطة. في هذه البيئة الداعمة، حتى سؤال أساسي مثل «كيف أستحم؟»، ولّد سيلاً من الحلول الذكية. أوصى بعض المعلقين، على سبيل المثال، بالانضمام إلى سلسلة صالات رياضية – كان بلانيت فيتنس اختياراً شائعاً – وعضوية النادي كانت بمثابة تصريح دخول للحمام على مستوى الدولة. استحمّ البعض باستخدام رشاشات الحديقة المضغوطة، وتعرّف البعض إلى المغاسل المزوّدة بأكشاك استحمام مدفوعة. زار آخرون محطات الشاحنات مثل فلايينغ جي، ولوفز، وبايلوت، والتي تكافئ السائقين بإمكانية الاستحمام عند تزويدهم بالوقود. وغالباً ما كان سائقو الشاحنات لمسافات

طويلة يجمعون هدايا مجانية تفوق حاجتهم فيقدمونها إلى زملائهم المسافرين في خط المغادرة.[6]

أصبحت المحادثات مكثفة، ولم تقتصر على CheapRVLiving.com. كان موقع بوب مجرد عقدة واحدة في شبكة تتوسّع بسرعة لأماكن التجمّع عبر الإنترنت، حيث يمكن للرحل، ذوي الميزانية المنخفضة، أن يتعلموا ويدعموا بعضهم بعضاً.

تعود بداية المجتمع الإلكتروني إلى تشرين الثاني من عام 2000 على الأقل، عندما قام شخص غامض يطلق على نفسه (لانس5جي) بإنشاء لوحة رسائل ياهو باسم (عِشْ في عربتك) مع هذه المقدمة البسيطة:

> *أهلاً بك، أرغب بتعليم المهتمين أسلوب العيش في شاحنة بغرض الادّخار، وماذا أيضاً؟*
>
> *من الواضح أن هذا الموضوع هو أكثر ملاءمة للذكر العازب، ولكن يمكن للمرأة أيضاً أن تتعلم...*
>
> *الفئات: الاستحمام، والنوم، وركن السيارات، والذهاب إلى الحمام، والسلامة، وتجنّب الكشف، والتنظيم الداخلي، وليالي الشتاء.*

بعد ذلك، لم ينشر (لانس5جي) شيئاً آخر. مثل نسخة منخفضة الكلفة من (إله صانع الساعات) التي ابتكرها علماء الدين في عصر التنوير، بنى عالماً، وحرّكه، وابتعد. على الرغم من ذلك، فإن فكرته استمرت بالنمو من دونه، وجمعت العديد من الأصدقاء المتماسكين الذين ينشرون تحت أسماء مثل رُحّل العربات، وفتاة المقطورة. ثم ظهرت مشكلة: قررت ياهو نقل جميع لوحات الرسائل الخاصة بها إلى منصة جديدة. يبدو أنه من غير المحتمل نجاة المجموعات التي لديها مالكون غائبون. كان أحد الأعضاء الأكثر نشاطاً في (عِشْ في عربتك) متجولاً اجتماعياً يُدعى الشبح الراقص. في 1 كانون الثاني

من العام 2002، كان الشبح الراقص يقف خارج ماكدونالدز على الطريق السريعة 41 في فينيس، إنديانا، في منزله، المُتمثل بشاحنة بيك آب بنية اللون من طراز فورد أف 150 موديل 1989. لقد سمع أن الموعد النهائي لتغيير لوحات الرسائل كان نهاية هذا اليوم، وكان قلقاً: هل كان أصدقاؤه الجدد المنتشرون في جميع أنحاء البلاد على وشك خسارة ناديهم على الإنترنت؟ إن عدم معرفة ما سيحدث كان يأكله حياً، مثل مشكلة عام 2000. ومع ذلك، لم يفعل شيئاً.

عندما جاء الحل، بدا واضحاً: لماذا لا ننشئ مكاناً جديداً للتجمع قبل أن يظلم المكان القديم؟ وللقيام بذلك، لم يكن بإمكانه فقط التجول في ماكدونالدز باستخدام حاسوبه المحمول. بالنسبة إلى المبتدئين، لم يكن يمتلك حاسوباً محمولاً، ولن تكون نقاط الاتصال اللاسلكي موجودة في كل مكان لبضع سنوات أخرى. لذا فقد سرق اتصالاً بالإنترنت جلس بين الهاتف العمومي والمعدات المحدودة التي يحملها في عربته. أطلقَ عليه (أسلوب فريغاك). اعتمد الإعداد على مقرنة صوتية من ماركة كونيكس: جهاز متصل بسماعة هاتف عمومي لاستقبال ونقل البيانات التناظرية عن طريق تثبيت ميكروفون على سماعة الأذن ومكبر صوت على موضع الفم.

الشبح الراقص في عربته التي هي منزله الحالي

تم توصيل الطرف الآخر من المقرنة بتلفاز يعمل بواسطة الإنترنت، الذي يحتوي على مودم مدمج ويقدم خدمات التصفح الأساسية؛ بدأت مثل هذه الأدوات تظهر في منتصف القرن التاسع عشر، عندما كانت الحواسيب أكثر تكلفة. لتوفير المساحة، قام الشبح الراقص بربط جهاز التلفزة براديو النطاق المدني، وتم ربطه بتلفاز فيليبس مقاس 13 بوصة الموجود على أرضية المقعد الجانبي. بعد ساعات من العبث بالإعداد، أدخل خمسة وثلاثين سنتاً في الهاتف العمومي للاتصال بالإنترنت، ثم سجل الدخول إلى ياهو، وأنشأ لوحة رسائل تسمى (ساكنو المقطورات: عِش في شاحنتك 2). لقد كان فخوراً بهذا النجاح، والذي كان ابتكاراً إلى حد ما، وقاد أحد المدونين المشهورين إلى تسميته (الأب المؤسس لساكني المقطورات). في وقت لاحق فقط، أدرك الشبح الراقص أنه فشل. فبسبب اختلاف المناطق الزمنية، فوّت الموعد النهائي المزعوم ببضع ساعات.

لم يكن ذلك مهماً. ورغم ذلك، تبعه الأعضاء إلى لوحة الرسائل الجديدة. لم تغلق ياهو أبداً (عش في عربتك) الأصلية، إلا أنها أصبحت مدينة أشباح افتراضية، تم اجتياحها من قبل المتطفلين الذين يصنعون محتوى خاصاً بالبالغين والذين يروجون (لقاءات عابرة) و(ألعاب إلكترونية غريبة) لجمهور من اللاشيء. في غضون ذلك، جذبت لوحة رسائل (عش في عربتك 2) آلاف الوافدين الجدد، بمن فيهم بوب ويلز، واستمرت في اكتساب المزيد. في السنوات الأربع التي أعقبت الانهيار الاقتصادي في عام 2008، تضاعف عدد المشتركين إلى 8560 شخصاً. وكُتب في وصف المجموعة:

> *هذه المجموعة تعد مكاناً لالتقاء قبيلة مترامية الأطراف. إنها دائرة الحكماء، مهد الرعاية لأولئك الذين يجدون أنفسهم يدخلون هذا العالم الثقافي باختيارهم أو تبعاً لظروف معينة،*

ومكان طقوس عبور للمبتدئين، يتقاسم فيه الصيادون وجامعو المعلومات الفضل مع القبيلة.

انتشرت محادثتهم عبر المنصات. وفي عام 2010، أنشأ أحد أعضاء قبيلة ياهو مجموعة على الفيسبوك تسمى (ساكنو المقطورات: عِشْ في عربتك) مع وصف مماثل لما كُتب في ياهو، يظهر في ملف الأسئلة الشائعة:

الأمر كله يتعلق بالرعاية، والمشاركة، وتقديم المعرفة، وتكوين الصداقات، واعتناء بعضنا ببعض.

تناول ذلك الوصف أيضاً، القضية الشائكة المتمثلة في المشاركة في شبكة الدعم المتبادل، التي يعاني أعضاؤها في كثير من الأحيان من ضائقة مالية:

إن معظمنا في المجموعة فقراء، وعندما تقع الكارثة، غالباً ما تتركنا بلا شيء أو بلا نقود ونعتمد على لطف الأقارب والأصدقاء وأحياناً حتى الغرباء. على الرغم من أننا لا نريد أن تتحول المجموعة إلى وكر للتسول عبر الإنترنت، إلا أنه من وقت إلى آخر يُفلس الناس ويكتئبون ويطلبون المساعدة من المجموعة، نحن نشجعك على استخدام حكمك الخاص هنا بما يخص ما يمكنك القيام به، وما تريد القيام به.

على موقع ريديت، بدأ موضوع يُسمى (ساكنو المقطورات) في 2010، ونما ليضم أكثر من 26 ألف قارئ. وعلى موقع يوتيوب، تنافس العشرات من الأشخاص الذين يتّبعون أسلوب (اصنعها بنفسك) على أن يكونوا بوب فيلا بالنسبة إلى ساكني المقطورات، حيث استعرضوا حيلاً لتحويل سيارات الركاب المملة إلى كبائن جيدة التجهيز، وجمعت بعض مواقع الويب نصائح وتحديثات من المسافرين في جميع أنحاء البلاد، وتزويدهم بخرائط قابلة للبحث للأماكن الصديقة للرُحّل. كان موقع FreeCampsites.net واحداً منها،

وأدرج أماكن مثالية في الطبيعة حيث يمكن للزوار الإقامة فيها مجاناً، من حدائق المدينة الصغيرة إلى الغابات الوطنية المترامية الأطراف. وهناك موقع آخر يدعى AllStays.com، يبحث عن الأماكن التي تتيح ركن السيارات طوال الليل، من مواقف الشاحنات إلى الكازينوهات، ومنافذ كابيلاس الرياضية، ومطاعم كراكر باريل. كما باع أيضاً تطبيقاً للهواتف الذكية مخصصاً للذين يبيتون خارج وال مارت.

لطالما حبَبت وال مارت نفسها لساكني المقطورات من خلال السماح لهم بالبقاء طوال الليل في مواقف السيارات الخاصة بها. يعتقد البعض أن المؤسس سام والتون، وهو صياد شغوف للطيور، بدأ التقليد تضامناً مع المغامرين، ويعتقد آخرون أنها استراتيجية حكيمة لجذب المزيد من المتسوقين. في كلتا الحالتين، يقدر الرحّل الدعوة، على الرغم من أنها تحبط المخيمات المدفوعة الأجر وحدائق المقطورات التي لا تحب خسارة أعمالها. ومع ذلك، فإن السياسة ليست سارية المفعول في كل مكان.

حظرت بعض فروع وال مارت في المدن هذه الممارسة، وألغى آخرون هذا الامتياز لأن الزائرين بدأوا في تجاوز مدة ترحيبهم، وقاموا بالشواء واستخدام أثاث الحديقة، وبناء معسكرات شبه دائمة. في آذار 2015، انتهت معركة بين الشرطة وعائلة مكونة من ثمانية أفراد من الموسيقيين المسيحيين من ولاية أيداهو، الذين كانوا يعيشون خارج سيارة تشيفي سابوربان في ساحة انتظار السيارات في وال مارت في كوتون وود، أريزونا، بنزاع على مسدس ضابط مما أدى إلى قتل أحد المسافرين. بعد تلك الحادثة، بدأ المتجر بطرد الأشخاص الذين يبيتون هناك. (كتب محرر موقع Daily RV Report: «إنه لأمر محزن أن يقوم عدد قليل من الحمقى بإفساد صفقة جيدة للجميع»). بقت بعض فروع وال مارت في منطقة رمادية، تعاني من التعامل مع طوابير من الزائرين ليلاً – يعيش كثيرون في السيارات – بسبب الاقتصاد غير المستقر. تقوم شاحنات الطعام من مجموعة داعمة غير ربحية تسمى

(لوفز أند فيشز) بزيارات منتظمة إلى مواقف سيارات المتاجر حول أوستن، تكساس. قال آلان غراهام، مؤسس المنظمة، لمراسل إذاعي محلي: «من المحتمل أن يستاء عملاء وال مارت قليلاً من الأشخاص الذين ينامون في سياراتهم في مواقف سيارات وال مارت»، لكن بارك الله بـالإدارة لسماحها بذلك».

بوجود الآلاف من فروع وال مارت في جميع أنحاء البلاد، كيف يمكن لمسافر متعب أن يدرك أي الفروع يمكنها استقباله؟ يقوم تطبيق أولستيز الخاص بـ (تحديد فروع وال مارت التي تسمح بقضاء الليلة في موقف سياراتها) بتمييز كل متجر في الولايات المتحدة وكندا بحرف (و) صغير، اللون الأحمر يعني أن الوقوف هناك قد يعرضك للعرقلة أو الأسوأ من ذلك، أن تُسحب مركبتك. لكن معظمها باللون الأصفر، ويؤدي النقر فوقها إلى إظهار تقارير تجربة المستخدمين، مثل هذا التقرير في فرع وال مارت في باهرومب، نيفادا:

> *5101# سوبر سنتر تموز 2015: بقيت بأمان في عربتي. كانت هناك عربتان متنقلتان أيضاً.*
>
> *أيار 2015: كانت هناك مقطورة متنقلة أخرى. تم منح الإذن من قبل مدير خدمة العملاء الليلي. ركنتُ بالقرب من رصيف الشاحنات بالقرب من أول شجرة. تصل العديد من الشاحنات في وقت مبكر من الصباح، لذا أفسحوا المجال لهم.*
>
> *أيلول 2010: يرحب المدير بساكني العربات. اركن سيارتك في الطرف الجنوبي من ساحة الانتظار واحرص على عدم إعاقة شاحنات التوصيل الخاصة بهم.*

تبدو رموز وملاحظات (و) الصغيرة وكأنها نسخة محدثة من إشارات المتشردين، وهي الرموز التي يستخدمها المتشردون لمشاركة معلومات عن الأماكن كتعهد جماعي خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

تم وضع علامة على الجدران والأبواب بالطباشير أو الفحم، وأحياناً حُفرت في الأشجار، وتحذر اللافتات من التهديدات – الشرطة المتحمسة، والكلاب الشريرة، والمياه السيئة – أو تشير إلى: موقع التخييم الآمن، سيدة طيبة القلب، عمل متاح.

إن انتشار المدونات في منتصف الألفية، شجع المسافرين المنفردين على تأريخ مغامراتهم لجمهور واسع، وهذا ما أدى إلى صنع مشاهير صغار. ومن أقدمهم وأنشطهم كان جورج ليرار، الذي يُعرف أيضاً باسم (تيوجا وجورج)، أحد الناجين من السرطان، الذي بدأ بالنشر في العام 2003. في منتصف الستينات من عمره وبسبب نقص الدخل وعدم قدرته على تحمل تكاليف شقته وموارده الغذائية، انتقل للعيش في مقطورة من طراز فليتوود تيوجا أورور بطول سبع وعشرين قدماً، مزودة بألواح شمسية وإنترنت عبر الأقمار الصناعية.

على مدونة مغامرات تيوجا جورج، كان هو ومقطورته الوفية (أعظم المتشردين في تاريخ العالم)، وانطلق للمغامرة بشعار مثير: (لا تدفع الإيجار أبداً). نشر جورج عن رحلاته مع «السيدة تيوجا» (عربته)، وباقي فريقه من الشخصيات الخيالية: السيد سوني مافيكا (الكاميرا)، والسيد شيبس (الحاسوب)، والسيد سانني (نظام الطاقة الشمسية)، والسيد داتا ستورم (هوائي الأقمار الصناعية)، والسيد دومتيك (ثلاجة)، والسيد ديلورم (نظام تحديد الموقع)، وآخرين. عادةً ما ينشر العديد من التحديثات طوال اليوم، من حكايات عن مصادقة الزملاء المسافرين، إلى هزيمة اجتياح النمل الصغير، وتعرضه للابتزاز من قبل رجال الشرطة الفاسدين في المكسيك، حيث كان يحب السفر إلى هناك. ونشر تقارير مفصلة عن دخله والنفقات، بما في ذلك الإيرادات من إعلانات غوغل. (في آب 2010، تجاوزت 1300 دولار). وكتب متأثراً حول انتحار ابنه ديفيد، وتذكر النوم على أرضية غرفة الطعام في المنزل ديفيد الصغير بعد أن تسببت فترة الركود في أوائل 1990 بإغلاق

الشركة التي كان جورج يعمل بها لبيع برمجيات الأوتوكاد. بعد أقل من عقد من الزمن من بداية نشر جورج كتاباته، كانت مدونته قد سجّلت قرابة سبعة ملايين زيارة.

أثّر تيوجا جورج بجيل من الرحّل المدونين. وكان من بينهم تارا بيرنز، وهي بائعة هوى في العشرينيات من عمرها لديها مركبة تشيفي استرو 98. أرّخت صاحبة المدونة المشهورة، وراقصة التعري المتشردة، أسلوب (العيش في عربة والقيادة عبر البلاد والتعري للحصول على المال). عندما لم تكن تسافر بين نوادي التعري مع برو، وهو كلب من سلالة بوردر كولي، كانت تكتب دائماً تعليمات للقراء عن كيفية بيع رقصة الحضن، أو كيفية تغيير مضخة المياه لنظام تبريد المحرك.

إحدى المدوّنات الأخرى المفضلة لدى الجمهور كانت (مركبة سو وعصابة الكلاب)، وهي مدوّنة سوزان روجرز، مدرسة رياضيات متقاعدة في الستينات من عمرها، من جورجيا، والتي ألهمها تيوجا جورج للخروج إلى الطريق. نشرت يومياً من مقطورتها وهي من طراز تشيفي إكسبريس 05، التي يبلغ طولها سبع عشرة قدماً. في عام 2012، كانت حديث الأخبار الوطنية بعد أن ساعدت مدونتها على لم شمل راستي ريد، وهو عسكري مخضرم يعيش من بيك آب مموهة، مع تيمبر كلبه من سلالة شيبرد، في أريزونا. تابعت سو ما سمته (المعيشة ذات الميزانية المنخفضة والتجارب الثمينة) و(العيش بالقليل والاستمتاع بالحياة أكثر)، وأصبحت قدوة للعديد من القراء. كتب أحد المدونين الذين يعيشون في عربة ويطلق على نفسه اسم زين أون ويلز: «أفكر في مركبة سو، وكأنها الأم الروحية للمركبات. من خلال حس الدعابة لدى سو وتواضعها، أقرأ القصة بعد القصة عن حياتها اليومية على الطريق وببطء، على مدار عدة أشهر، وأدركت أنه نعم، يمكنني أن أفعل ذلك أيضاً...». وأكمل ممتناً: «أصبحت قادراً على الانفتاح واللطف ورواية القصص بشكل جيد».

على غرار تيوجا جورج، شاركت سو التقارير المالية بدءاً من عام 2013، وتضمنت دخلها من الإعلانات على موقعها. بحلول نهاية العام الأول، لم يكن أمراً غريباً أن تكسب أكثر من ألف دولار في الشهر. وفي بعض الأحيان، أغضب هذا المدونين الأقل شعبية، الذين جرّبوا كسب المال من منشوراتهم لكنهم لم ينجحوا بذلك. (في حين أن معظم القراء لا يبدو أنهم يحسدون المدونين المسافرين على المال الذي يكسبونه من عملهم، فمن السهل رؤية تفاوت الإعلانات على المواقع البسيطة اللااستهلاكية، على سبيل المثال، هناك منشور على موقع CheapRVLiving.com باسم (التخلص من أشيائك) مع اقتباس من برنارد روسل: «إن الانشغال بالممتلكات، أكثر من أي شيء آخر، هو الذي يمنعنا من العيش بحرية ونبل» – من الغريب وضع هذا المنشور بجانب عمود من روابط موقع أمازون التي تقدم منتجات كموقد محمول ذي اثني عشر فولت ومقعد مرحاض محمول).

تحوّلت المحادثات عبر الإنترنت بين الرحّل إلى تجمعات حقيقية. وبينما التقى الرحّل حول نار التخييم في الغابات والصحاري في جميع أنحاء البلاد، بدأوا في تشكيل نوع من العشائر العشوائية التي أطلق عليها الروائي أرمينيد موبين اسم (العائلة المنطقية) عوضاً عن (العائلة البيولوجية). حتى أن البعض منهم أطلق عليهم لقب (عائلة المقطورات). وبالنسبة إلى البعض منهم أصبح قضاء الإجازات معاً أمراً جذاباً أكثر من لقاء الأقارب الفعليين. وهذا مشهد نموذجي: عشاء عيد الميلاد على امتداد صحراء قاحلة تشبه سطح القمر بالقرب من الطريق السريع 10، يضم أكثر من اثنتي عشرة مركبة، تتراوح أعمار قاطنيها بين العشرينات والسبعينات. يتشاركون الديك الرومي الذي يبلغ وزنه خمسة عشر رطلاً، تم نزع عظامه، وتقطيعه إلى نصفين، وطهيه على المشواة، مع البطاطا المهروسة والمرق وصلصة التوت البري ونوعين من الفطائر. حتى الكلاب كانت تشعر بالشبع بعد لعق بقايا الطعام من الأطباق.

يُقام الكثير من هذه التجمعات في الغرب، لكن التجمعات – المعروفة أيضاً باسم جي تي جي أس– كانت تحدث في الشرق أيضاً، من أوهايو نزولاً إلى ألاباما وجورجيا وتينيسي، عندما كان الناس يتنقلون من مكان إلى آخر معاً مثل قطارات العربات القديمة، ويقيمون المعسكر على طول الطريق، ويطلقون عليه اسم (جي تي جي المتجول). في عام 2011، نظّم بوب للمرة الأولى، ما أصبح واحداً من أكثر التجمعات المرتقبة لذلك العام؛ ملتقى ساكني العربات، أو ساكني العربات[7].

بوب ويلز يحمل خريطة للمتنزهات الوطنية أثناء حديثه في ملتقى ساكني المقطورات

***

كان هذا الملتقى مستوحى جزئياً من رجال الجبال الصلبين المتهيئين في القرن التاسع عشر، والذين قضوا معظم العام في المشقة والعزلة، يحاصرون المخلوقات في الأماكن النائية، ولكنهم يجتمعون كل عام في لقاء سنوي لتجارة الفراء. وقد أقيم ملتقى ساكني العربات الشتوي في أرض صحراوية عامة بالقرب من بلدة كوارتزسايت، أريزونا، لمدة أسبوعين في كانون الثاني، وكان فرصة للرُحّل لمشاركة المهارات والقصص، وتكوين

صداقات، وتوجيه الوافدين الجدد إلى أسلوب الحياة هذا. كان ساكنو المقطورات الطموحون يأتون أحياناً مع خيام أو شاحنات صغيرة مستعارة لتعلم كل ما في وسعهم قبل أن يخرجوا إلى الطريق بأنفسهم. كان الحدث مجانياً، وانتشر الوعي في الغالب عن طريق الكلام الشفهي.

بالنسبة إلى هذا المجتمع، لم يكن بذل جهد للتجمع شيئاً تافهاً. يقضي الأعضاء معظم العام منتشرين في جميع أنحاء البلاد، وغالباً ما يفتقرون إلى أموال الوقود التي تلزمهم للقيادة لمسافات طويلة في رحلة واحدة. يعتبر كثيرون أنفسهم وحيدين، ومن بين هؤلاء، اكتسبت سو سمعة بأنها انطوائية، حيث ناشدت قراء مدونتها عدم القدوم إلى أماكن تخييمها دون سابق إنذار، وقالت موضحة: «التدوين على الإنترنت يناسبني جيداً لأنني أستطيع التفاعل مع جميع أنواع الأشخاص المثيرين للاهتمام دون الحاجة إلى مقابلتهم». لقد كتب بعض معجبيها عن مرورهم بجانب مقطورة كاستيا المألوفة التي يبلغ طولها سبع عشرة قدماً، وعندما أدركوا لمن تعود تلك المقطورة، ذهبوا على الفور في الاتجاه الآخر.

يتعمّد بعض الأشخاص الذين يحضرون ملتقى ساكني المقطورات، الوقوف على الحافة الخارجية لمنطقة التخييم، بينما لا يستطيع الآخرون التعامل مع البشر إلا لفترات قصيرة، بدلاً من البقاء لأسبوعين كاملين. عندما وصلت سوانكي إلى جلسة ملتقى ساكني العربات مرتدية قميصاً مكتوب عليه: «اتحاد الانطوائيين: نحن هنا. نحن غير مرتاحين، ونريد العودة إلى المنزل». حصلت على ابتسامات وإيماءات تقدير طوال اليوم.

وجد بوب ويلز نفسه المنسق الاجتماعي الفعلي لهذه المجموعات المتزايدة من المنعزلين. بعد انتهاء الملتقى كل عام، بدأ بعضهم يهاجر مع بوب إلى موقع التخييم التالي. (العديد من مناطق التخييم العامة المجانية، بما في ذلك مكان حدوث ملتقى ساكني العربات، تفرض حداً لمدة أربعة عشر يوماً؛ عندما ينتهي ذلك، يجب عليك الانتقال إلى موقع جديد على بعد خمسة

وعشرين ميلاً على الأقل). رحب بهم بوب، وركنوا مقطوراتهم بعيداً عنه حرصاً على خصوصيته.

عندما لاحظ أحد قراء المدونة أن الناس قد اعتادوا على اللحاق ببوب وأشار إليهم ممازحاً على أنهم «أتباعه»، رد بوب ممازحاً: «على الرغم من بذل قصارى جهدي للتحكم في العقل وغسل الدماغ والتحايل، لا أزال أفتقد إلى أي أتباع!».

لم تكن نبرة بوب دائماً متفائلة، في محادثة أكثر جدية مع أحد القراء، كتب: «أعتقد أنك على صواب، فالكثير والكثير من الناس سيضطرون إلى حياة أبسط بكثير. هدفي هو مساعدتهم على إجراء الانتقال بأسهل ما يمكن، ونأمل في النهاية أن يجدوا السعادة، تماماً كما وجدها الكثير منا».

***

عندما تصفّحت ليندا موقع CHEAPRVLIVING.COM، واستوعبت حكايات الحياة المتغيرة، وكان لديها اكتشاف خاص بها: «تباً، إذا كان بإمكانهم فعل ذلك، فأنا متأكدة من أنني أستطيع فعله أيضاً».

جعل بوب التقشف الشديد يبدو وكأنه طريق إلى الحرية: التحرير بدلاً من الحرمان. أو بكلمات ليندا: «عيش حياة مليئة بما لديك». بالإضافة إلى ذلك، حتى بصفتها مسافرة بمفردها، كان من الواضح أنها لن تكون وحيدة أبداً، فهناك مجموعة كاملة من المتجولين يمكنها مقابلتهم، بما في ذلك العديد من النساء الوحيدات بنفس عمرها تقريباً اللواتي خرجن أيضاً إلى الطريق. لقد كوّنوا معاً ثقافة فرعية، بنوا عاداتهم الخاصة، وجربوا استراتيجيات البقاء وتعميم أفضلها، وكتابة كتاب قواعد للحياة تحت ظل الفقر. كان هذا النوع من الزمالة مهماً لليندا، وأوضحت: «أنا اجتماعية جداً، لم أشعر أنني سأكون وحيدة ومكتئبة وفقيرة، بل يمكن أن تكون حياتي مثيرة وممتعة وخلاقة».

بدأت ليندا تحلم بالسيارة المناسبة وتتصفح موقع كريغزليست. بحثت في عشرات الإعلانات ووجدت مرشحاً قوياً، لكنها لم يكن لديها ما يكفي من المال لشراء أي شيء. لذلك انتهى الأمر بأكبر حفيد لها، وهو مصاب بالتوحّد، إلى اقتنائها لنفسه، بعد أن أغراه إيجارها الرخيص: 500 دولار شهرياً بالإضافة إلى دفع رسوم الكهرباء إلى حديقة المقطورات الذي لم يكن بعيداً عن والديه وأشقائه الثلاثة. كانت ليندا سعيدة برؤيته يحصل عليها نظراً لأنه لم يكن لديه سوى القليل من الخيارات الأخرى للعيش بشكل مستقل. قالت: «العمل بدوام جزئي في برغر كنغ لا يكفي للعيش مستقلاً».

ثم كانت المفاجأة. كولين، صهر ليندا، كان يعمل في المبيعات لشركة تخزين تجارية، وكان يقوم بتركيب كل شيء؛ من خزائن الأسلحة والأدلة إلى خزائن أرشيف المتاحف، وغالباً بموجب عقود حكومية. لاحظ وجود فجوة في خطط مشروع قادم في مستشفى شؤون المحاربين القدامى. ظهرت لافتات جديدة في جميع أنحاء المنشأة، لكن لم يتم اتخاذ أي ترتيبات للقيام بالأعمال التحضيرية: تمزيق اللافتات القديمة، وترقيع الجدران وطلائها. لذا تولت أودرا ابنة ليندا هذه المهمة، وفوّضت ليندا ببعض الأعمال. تتذكر ليندا قائلةً: «خمسون دولاراً في الساعة لطلاء المستشفى وتحضيره، كانت بمثابة نعمة بالنسبة إليّ». في غضون شهرين، جمعت عشرة آلاف دولار.

في نيسان 2013، كانت ليندا تتصفح موقع كريغزليست، عندما شاهدت مقطورة من طراز إلدورادو 1994 ذات خطوط زرقاء وسوداء. وكان عدادها يشير إلى 29 ألف ميل فقط، كان من المفترض أن تبلغ قيمة عربة سكن متنقلة ذات 28 قدماً قرابة 17 ألف دولار. ومع ذلك، كان السعر المطلوب 4000 دولار فقط.

حضرت ليندا بحماسة لرؤية العربة، وجلبت صديقتها للحصول على الدعم، تفحصتا العربة، كان الخارج في حالة معقولة، باستثناء الإطارات المتعفنة وحفرة بحجم كرة القدم في الدور العلوي فوق الكابينة على المقعد

الجانبي. تم ترقيعها بمسحة تشبه معجون أسنان جاف. (قالت ليندا: «لم يكن من الضروري أن تكون هذه البقعة هناك، لا أعرف بما كان يفكر. نحن نسمي ذلك إساءة استخدام مواد البناء».) أوضح المالك أنه كان يقود سيارته على طريق متعرجة، مرتفعة في الوسط ومنخفضة على الجانبين، ما جعل السيارة تميل إلى الخارج – عندما اصطدم بعمود هاتف مائل إلى الداخل. عندما فتحت ليندا باب المقطورة، فاحت رائحة عفن قديمة. كانت البطانة والخشب الرقائقي يغطيان الأرضية، والجدران مغطاة بأكياس النايلون. اعتقدت أن الضرر كان ناتجاً عن المياه، وشعرت بخيبة أمل، ولكن عندما تفحصت الداخل عن كثب، أدركت أن الروائح الكريهة كانت تنبعث من الحمام، الذي كان مثقوباً، ولن يكون من الصعب إصلاحه. كانت باقي الأجزاء الداخلية جيدة، من غرفة نوم مريحة في الخلف إلى حجرة طعام صغيرة بجوار المطبخ. المفروشات وأغطية النوافذ والسجاد كلها بدت رائعة. لقد حكمت على المالك بأنه شخص لم يسبق له أن دخل مقطورته من دون أن يخلع حذائه.

بالمقارنة مع بعض العربات التي كانت تقرأ عنها، كانت هذه المقطورة بمثابة فندق ريتز. كان المولد معطلاً، لكن كل شيء آخر كان يعمل، بما في ذلك المرحاض المتدفق، وهذا ما جعلها سعيدة. (كانت ليندا قد قرأت عن ساكني المقطورات أنهم يبطنون الدلاء ذات سعة خمسة غالونات بالبلاستيك، لاستخدامها كمراحيض محمولة، عندها قررت بالفعل أن هذا ليس مناسباً لها).

شعرت ليندا بالتفاؤل مجدداً. ثم قاطعها صوت مألوف، قالت صديقتها: «أوه، لا. لا يمكنك، لا يمكنك إصلاح ذلك». ولكن كان كلامها متأخر جداً، كانت ليندا قد اتخذت قرارها بالفعل. قالت ليندا: «أوه، هيا، أستطيع ذلك!».

اشترت ليندا المقطورة، وأصلحت الحمام، وأزالت الرائحة الكريهة. لم تعبث بتلك بالحفرة المليئة بالسدادات فوق الكابينة والتي كانت غير جذابة، يبدو أنها صامدة في الوقت الحالي. لا يمكن للإطارات أن تنتظر لذلك أنفقت 1200 دولار لتغييرها. كانت هذه نفقات كبيرة، لكن ليندا كانت تستثمر في

مستقبلها، وحريتها. لديها بالفعل بعض الأفكار حول كيفية الحفاظ على تدفق الأموال بمجرد أن تخرج إلى الطريق.

كتب بوب مدونة حول المواسم الثلاثة التي قضاها في العمل في إدارة أراضي كاليفورنيا، كمضيف معسكر في غابة سييرا الوطنية. وعلى غراره، تقدمت ليندا بطلب إلى الشركة نفسها وحصلت على وظيفة بالقرب من يوسميت، وقالت: «لا أصدق كم أنه من السهل الحصول على وظيفة وأنت تسكن في مقطورة». لقد انتظرت ذات مرة ستة أشهر لافتتاح هوم ديبو في سان كليمنتي، وكان ذلك بمثابة نقطة تحول. عرفت أن التمييز على أساس العمر يمكن أن يجعل إيجاد وظيفة جديدة في سنواتك المتقدمة صعباً للغاية، ولكن يبدو أن الأشخاص الذين وظفوا الرحّل للعمل الموسمي لم يروا الأمور بالطريقة نفسها. قالت ليندا بذهول: «إذا كان لديك عربة سكن متنقلة، فافتح الإنترنت وستحصل على وظيفة في ست ثوانٍ». أصبحت ليندا أيضاً من المعجبين برحلات جيمبو، مدونة جيم ميلفين، بائع أجهزة (لوز) السابق، ذي الشارب الأبيض في أواخر الستينات من عمره. بعد أن أدرك أنه لن يكون قادراً على تحمل تكاليف التقاعد في ولايته الأصلية في كاليفورنيا، انطلق جيم في عام 1992 بعربة ليزي ديزي ذات اللونين الأبيض والأزرق الفاتح، مستلهماً من تيوجا جورج، وتنقل بين الوظائف الموسمية. كان وحده في البداية، ثم سافر مع شيكا، وهي كلبة شيواوا ضالة جائعة تجولت بين عربات السكن المتنقلة، وانتهى بها الأمر عند جيم الذي أطلق عليها لقب (توأم روحي).

قام جيم بمختلف أنواع العمل من حراسة الأرض في ساحة بيني ريدج، في تكساس حيث ارتفعت درجات الحرارة في شهر تموز إلى أكثر من مئة درجة فهرنهايت، إلى إدارة مخيم في موقع أوتشوكو ديفيد وسط ولاية أوريغون، وتقليب البرغر في مدرج تيمبي ديابلو الرياضي في أريزونا أثناء التدريب الربيعي لفريق لوس انجلوس انغيلز؛ والانضمام إلى كامب فورس في مستودع أمازون في فيرنلي. وصف آخر وظيفة بأنها الأصعب على

الإطلاق، وتجاوزها يعني أخذ قرصين من المسكنات كل يوم. لم تهدأ الأوجاع والآلام لعدة أشهر، لكن أجرها كان أعلى من باقي الوظائف، وكان يحب تكوين العلاقات مع زملائه من ساكني المقطورات الذين كانوا يعملون هناك. كتب: «لقد قابلت كثيراً من الأشخاص الودودين والمرحين للغاية، هل سأعود العام المقبل؟ نعم، بالتأكيد!!!».

قررت ليندا التقدم إلى وظائف أمازون أيضاً. كانت الشركة تقدم مكافأة إحالة قدرها 50 دولاراً، لذا دوّنت اسم جيم. قالت: «الحمد لله على المدونين يا رجل، هل يمكنك أن تتخيل؟ لم يكن لدينا أي من ذلك عندما كنت شابة. إذا كنت بحاجة إلى شيء ما، كنت ستسأل هل يعرف جارك أحداً؟ من أين تحصل على هذه المعلومات؟ ما كنت لتعرف عن هذا المجتمع إلا إذا كنت تعرف شخصاً منه».

إذا نجت ليندا من الوظائف الموسمية المتتالية كمضيفة في المخيم وعاملة مستودع في كامب فورس، فقد ظنت أنه من المحتمل أن تأخذ استراحة بعد ذلك وتستمع بالبطالة قليلاً. ستتمكن أيضاً من تحمل تكلفة رحلة إلى ملتقى ساكني المقطورات لمقابلة قبيلتها الجديدة، العائلة التي انضمت إليها ولكن لم تلتقِ بها بعد.

أما بالنسبة إلى أقارب ليندا الفعليين، فقد كانوا داعمين لها عندما أعلنت عن خططها. قالت أودرا: «هذا يبدو مثيراً حقاً!». أصرت على أن ليندا ستحتاج إلى هاتف ذكي للبقاء على اتصال معهم، وعرضت عليها تغطية فواتيرها في الخطة العائلية. أضاف كولين: «سوف نتأكد من وجود الكثير من البيانات».

هل سينجح كل هذا؟ لا توجد طريقة لمعرفة ذلك. كان هناك شيء واحد مؤكد: كانت حياة ليندا على وشك التغيُر، وكان ذلك كافياً في الوقت الحالي.

القسم الثاني

الفصل الخامس
أمازون تاون

في حزيران 2013، بلغت ليندا الثالثة والستين من عمرها، وقادت عربة السكن المتنقلة من نوع إلدورادو والتي اشترتها عن طريق موقع كريغزليست إلى أرض مخيمات جَنكشن، التي تقع على بعد ميلين من المدخل الشرقي لمتنزه يوسميت. في هذا المكان بدأت حياتها الجديدة بصفتها عاملة– مخيمة – محاطة بالمروج المليئة بالأزهار البرية، والجداول البراقة، والساحات المليئة بأشجار الصنوبر الملتوي والصنوبر ذي اللحاء الأبيض، مع هواء جبلي منعش وإطلالة على قمم جبال سييرا المرقطة بالثلج والتي يمكن أن توضع كصورة على البطاقات البريدية بسبب جمالها الفائق. باعتبارها موظفة للمرة الأولى في إدارة أراضي كاليفورنيا، كانت ستعمل ثلاثين ساعة في الأسبوع بأجر يبلغ 8.50 دولارات في الساعة. (بهذا الأجر، حتى وإن أقنعت ليندا رب عملها أن يقوم بتوظيفها بدوام كامل، أربعين ساعة في الأسبوع على مدار السنة – وإن لم تأخذ أية إجازات – سيبلغ أجرها السنوي 17.680 دولاراً، من دون أي عوائد).

كانت ليندا على بعد نصف يوم في السيارة من فرع شركة هوم ديبو التي تقع في مدينة ليك إليسينور حيث سبق لها أن عملت محاسبة، لكن بدت البرية حولها نائية تماماً. كان هذا العمل الجديد باستضافة المخيمات نقيضاً للتعامل مع طابور العملاء تحت الأضواء الشاحبة لمتجر كبير. لم يبدُ الأمر أبداً

كحفلاتها في المطاعم، أو في مواقع البناء، والكازينوهات، ومكاتب الشركات، أو أي مكان قامت فيه بمقايضة الوقت بالمال.

أفضل ما في الأمر، أنها كانت ستتقاضى راتباً من دون أن تدفع بدلاً للسكن. على الرغم من أن موقع التخييم افتقر إلى بعض المرافق الأساسية، فقد أعارها المشرف عليها مولداً كهربائياً، وأرسل صهريجاً للمياه كل يوم ثلاثاء لكي يملأ الخزان الذي تبلغ سعته خمسة وخمسين غالوناً والموجود على عربتها المتنقلة. في هذه الحالة، تقلصت نفقات المعيشة الخاصة بها وحُصرت بشراء البقالة، ووقود الديزل للمولد، وغاز البروبان للموقد. شعرت ليندا بالسعادة.

لم تكن أرض مخيمات جنكشن متطلِّبة جداً. مُلئت مواقعها الثلاثة عشر بناءً على أسبقية الحضور، وأسبقية الخدمة – وقُضي بهذا الإجراء على متاعب الحجوزات المسبقة والأعمال الورقية الناتجة عنها والتي تستغرق وقتاً طويلاً – ولم يكن هناك سوى مرحاضين خارجيين يجب تنظيفهما فقط. لذلك، وكجزء من إقامتها، وافقت ليندا على تولّي أمر أرض مخيمات صغيرة تقع على بحيرة تايوغا القريبة.

أحبّت ليندا الجانب الاجتماعي من عملها، بالتحدّث إلى المستجمّين. كان أحد زائريها المفضّلين رجلاً وحيداً يبلغ تسعة وستين عاماً، وهو متسلق صخورٍ كان يُدعى «السيد براون.» وهو الذي سبق له أن تسلق كل الطرق المشهورة في كل أنحاء يوسميت، وكان يبحث في الصخور بحرصٍ عن المراسي المثبتة التي يبلغ عمرها عقوداً، والتي بدأت بالتآكل. على اعتبار أن هذه المراسي مخصصة لكي تؤمن حبال الأمان الخاصة بالمتسلقين، فمن الممكن أن تكون العواقب مميتة عندما تسوء حالتها. كلما وجد السيد براون قطعة من المعدات غير الصالحة، كان يزيلها ويركب قطعة جديدة صالحة. أخبر ليندا أنه يقوم بهذا الأمر منذ خمسة عشر عاماً. تَعَجَّبَتْ منه ومن الحقيبة التي حَمَلَها «يا إلهي! كم كان متوحشّاً». بينما كانت معجبة بكرمه ولياقته البدنية، كانت قلقة عليه أيضاً،

سألته: «ألا تخاف أن تسقط وتموت؟». أجاب السيد براون بتذمر متسلقي الجبال الخشن: «أوووه، لا، أنا أعلم ما أفعله».

كان هناك زوجٌ آخر من المخيمين الذين التقت بهم ليندا في عملها، بيلي وهيلين أوتلو (أوتلو: الخارج عن القانون) – وكان هذا اسم عائلتهما الحقيقي – كانا في السبعينات ويملكان عربة سكن متنقلة. عندما ذكرا أنهما بحاجة إلى عمل في استضافة المخيمات، قامت ليندا بتقديمهما إلى موظِّفيها. بعد ذلك، لم يمضِ وقت طويل حتى باشرا العمل في بحيرة تايوغا. وفي الوقت ذاته، تعلّمتْ ليندا أن العمل في استضافة المخيمات لم يكن عملاً ملائماً للجميع. كان أحد زملائها في العمل، عضواً سابقاً في حرس الحدود، وقد أصر على القيام بالجولات اليومية وهو يحمل سلاحاً نارياً. شرحَتْ ليندا وضعه بقولها: «قرر أنه ليس بإمكانه أن يكون من دون سلاح إلى جانبه، لكن لا يمكن لمضيف المخيم أن يحمل سلاحاً. لن يتقبل الناس أن يحمل مضيف المخيم سلاحاً في غابة وطنية، لذلك طردوه».

مرّ صيف ليندا بالقرب من يوسميت بسلاسةٍ حتى منتصف شهر آب، حين حدث حريق– كما استنتجت التحقيقات – عندما حاول صياد بالقوس والسهم إشعال نار مخيمٍ صغيرةٍ باستخدام الأغصان وإبر الصنوبر – وهذا ما لم يكن مسموحاً به في ذلك الوقت– لكي يُسخّن الحساء ويُشعل بعض النفايات من حقيبته. كان يبحث عن الغزلان في وادي نهر كالفي النائي الذي يقع في غابة ستانيسلاوس الوطنية، على بعد خمسين ميلاً فقط من أرض مخيمات جنكشن. عندما وصلت جمرات النار إلى شجيرة جافة. بدأ ثالث أكبر حريق في تاريخ ولاية كاليفورنيا. على مدى الشهرين اللاحقين، حولّت حرائق ريم مساحة تزيد على ثلاثة أضعاف مانهاتن إلى رماد.

بحلول شهر أيلول، ومع الهواء المُثقل بالدُّخان في أرض المخيمات التي تعمل فيها، كان الوقت قد حان لتمضي ليندا في طريقها. ودعت زملاءها، ثم

قادت عربتها شمالاً إلى فيرنلي لكي تنضم إلى مشروع كامب فورس الخاص بشركة أمازون – كان هذا عملها الثاني الذي تقدمت له كعاملة مخيمة.

كانت مواقف المقطورات بالقرب من المستودع مزدحمة بالفعل ومحجوزة بالكامل من قِبل العمال المتجولين؛ كانت المساحة ضيقة لدرجة أن مدربي أمازون كانوا يُخبرون أعضاء كامب فورس عند تعريفهم إلى العمل الجديد بأن الشركة كانت تنوي شراء أرضٍ جديدة قريبة لكي تبني عليها موقفاً للمقطورات خاصاً بها. قامت ليندا بالحجز؛ لقد أمضت معظم الصيف بعيدةً عن خدمات الإنترنت والهاتف. على بعد ثلاثة وعشرين ميلاً جنوب شرق المستودع، وجدت ليندا موقف مقطورات سيغ فالي: رُقعة مسيجة بالحصى تقع إلى جانب الطريق السريع 50 في مدينة فالون، نيفادا، تنتشر فيها أشجار الحور القطني ويُعطِّر جوها رائحة مراعي الأبقار القريبة منها. وكانت أيضاً محجوزة بالكامل من قبل كامب فورس، لكنها طلبت من مديرٍ متعاطف أن يُفسح لها مكاناً.

قبل أن تبدأ ذروة موسم الشّحن في العام 2013، كانت أمازون قد أصدرت آخر إصدار من نشرة الأخبار الرقمية للعاملين المرتقبين، وقد كتبت على الصفحة الأولى من طبعة شهر حزيران «كامب فورس: قيمة الصداقة». وكانت كُتيبات استضافة المخيمات تعكس البهجة التي كانت موجودة في هذا العمل. لقد جعلت من عملٍ جسدي صعبٍ يبدو وكأنه مخيم صيفي. فكُتب عليها كدافعٍ للحماس. «إحدى المنافع التي تُعادل وزنها ذهباً هي منفعة التعرف إلى أصدقاء يدومون إلى الأبد! على الرغم من أن المكافأة المالية هي جزء كبير من الأسباب التي تدفعنا (للعمل) فإن الصداقة قريبة جداً من القمة! نسمع في كل سنة قصصاً عن الصداقات والعلاقات التي تُبنى في هذا العمل والتي تستمر حتى بعد مغادرة «تيل لايت باريد» لشركة أمازون. (تيل لايت باريد «موكب الضوء الخلفي»: الاسم الذي تُطلقه شركة أمازون على مجموعة الأشخاص الكبار في السن العاملين لديها).

كان هذا الأمر مغايراً لِما نُشر في طبعة شهر آذار، في قسم يُدعى «الاستعداد لصنع التاريخ في 2013! تمت التوصية بنظام لياقة بدنية للتحضير للعمل، وتم التحدث عن بعض التحديات التي ترافق التقدم بالسن:

> *سيكون استعدادك النفسي والجسدي أمراً مفتاحياً لكي تحظى بموسم ذروة ناجح في أمازون. لا يمكننا التأكيد بشكل كافٍ على أهمية الحضور إلى أمازون كشخص مستعدٍ جسدياً. إن لم تكن تؤدي التمارين الرياضية بانتظام، استشر طبيبك الخاص واطلب منه برنامجاً للتكيف، ثم تحوّلْ إلى شخص نشيط! إليكَ اقتراحاً منخفض التكلفة: اذهب إلى الخارج، ومارس رياضة المشي إن المشي شكل جيدٌ من أشكال التمارين. إنه مجاني بالكامل ولا يتسبب بضغط على المفاصل كالتمارين الأخرى. قبل الانطلاق، قُم بإحماء هذه العضلات عن طريق التمدد. يقول الخبراء إنه كلما كانت حرارتنا منخفضة، تغيرت بنية الكولاجين في أجسامنا، وهذا يقلّص مرونتنا والمجال الحركي الخاص بنا.*

بدأ إصدار شهر نيسان بذكر بعض التحديات النفسية في العمل. تحت عنوان «ما يجب أن تتوقعه في أسابيعك الأولى في برنامج كامب فورس الخاص بشركة أمازون»، وذُكر في هذا الإصدار:

> *من الممكن أن تكون أسابيعك الأولى في أمازون مخيفة قليلاً؛ حجم المنشأة، الاختصارات التي تبدو وكأنها لغة جديدة، الماسحات الضوئية المحمولة في اليد والتي تتصرف وكأنها تمتلك عقلاً خاصاً بها، تساهم كل هذه الأمور في تكريس شعورك بالارتباك...».*

في هذه الأثناء، تصدرت طريقة تعامل أمازون مع عمال المستودعات لديها عناوين الصحف الرئيسية منذ عام 2011. حدث هذا الأمر عندما كشف تحقيق قامت به صحيفة ألِن تاون مورنيغ كول عن ظروف العمل الشاقة التي

يتعرض لها العمال. عندما تجاوزت درجة الحرارة المئة درجة فهرنهايت في مستودع الشركة الواقع في برينينغزفيل، بينسلفانيا، كشف هذا التحقيق أن المدراء لم يقوموا بفتح أبواب أرصفة التحميل في المستودع خوفاً من السرقات. بدلاً عن ذلك، وظفوا المسعفين وطلبوا منهم الانتظار في الخارج في سيارات إسعاف، وأن يكونوا في حالة جهوزية كاملة لكي يقوموا بإخراج الموظفين الذين يعانون من صدمات حرارية على النقالات أو الكراسي المتحركة، وأفاد العاملون أيضاً بأنه قد تم الضغط عليهم لكي يحققوا أهداف إنتاج أكبر، وهي استراتيجية تُعرف باسم «الإدارة بالضغط». تراقب أمازون الإنتاجية لحظياً، وذلك عن طريق تحليل البيانات الصادرة عن الماسحات الضوئية المربوطة مع الشبكة والتي يستخدمها الموظفون لكي ينقلوا البضائع ويرتبوها.

أخبرتني لورا غراهام، عضوة في برنامج كامب فورس عملت كملتقطة سلع في مستودع الشركة في كوفيفيل، كنساس، أنه في كل مرة قامت بها بمسح ضوئي لمنتجٍ ما، يبدأ عد تنازلي على شاشتها. يحدد هذا العد التنازلي الوقت التي ستستغرقه في الوصول إلى المنتج التالي. كان الأمر وكأنها انتقلت إلى مستوى جديد في لعبة فيديو، كما يتم تعقب تقدمها في تحقيق الأهداف التي تسعى إليها. عندما جعلها اختيار ممر خاطئ تتأخر خمس دقائق عن الجدول الزمني، أتى مشرف إليها لكي يوبخها. (بغض النظر عن الضغط النفسي، تمرّد جسد لورا أيضاً على متطلبات الجهاز الذي كانت تحمله، والذي كان يعطيها التوجيهات للمشي مسافة تبلغ عشرة إلى عشرين ميلاً على أرضية إسمنتية في مساحة قدرها 915 ألف قدم مربع وذلك لقاء 11.25 دولاراً في الساعة. قالت لي: «ليس هناك أي شيء بإمكانه وصف البؤس. جسدياً، بدأت أشعر بألم حادٍ جداً في أقواس قدمي... ما تبين لاحقاً أنه التهاب باللفافة الأخمصية في القدم»، ولم يساعدها وضع نعال داخلية جديدة في حذائها. لتحمل الألم، تناولت قرصين من الإيبوبروفين في منتصف ما يسمى مناوبة المقبرة، والتي استمرت من الساعة 5:30 بعد الظهر حتى الساعة 3:30

صباحاً، واثنين آخرين في نهاية المناوبة. في أيام العطل، حاولت أن تريح قدميها بشكل كامل، من خلال الاستلقاء على الفراش طوال النهار، باستثناء زياراتها إلى المرحاض أو الحمام).

***

مع ذلك، لم تكن ليندا خائفة من أي شي سمعته عن المستودعات، ولم يكن العمل المتعب جسدياً أمراً جديداً بالنسبة إليها. قالت: «لقد عملت في البناء، ونادلة في حانة، الأمر الذي كان أكثر صعوبة من العمل في موقع للبناء، فَلمَ القلق؟». كما، أنهت ليندا عملها مضيفة في المخيمات على ارتفاع أكثر من تسعة آلاف قدم عن سطح البحر، لقد استنتجت من هذا الأمر أهمية التمتع بلياقة بدنية وصحة جيدة.

عندما بدأ أسبوعها الأول، حضرت ليندا ورشات عملٍ تتعلق بالسلامة المهنية، والتوجيه، والتعريف بالعمل الجديد. لقد علمت أن عملها الجديد هو تخزين البضائع الواردة في الرفوف. للتعلّم عن تفاصيل هذا العمل، ارتادت ما تسميه الشركة «المدرسة العملية».

يدفع المُخزنون عربات تحتوي على عبوات بلاستيكية صفراء – تُعرف باسم «حقائب اليد» – مليئة بالأغراض التي وصلت حديثاً عبر الممرات التي تحتوي على رفوف تشبه رفوف المكتبات، تخزن أمازون البضائع في هذا المكان. (تدعى هذه المناطق باللغة الاصطلاحية للشركة «وحدات الالتقاط») ويُقسم كل رفٍّ من الرفوف بواسطة حواجز بلاستيكية إلى مساحات تُدعى «الصناديق» ويكون المُخزّنون في حالة بحث دائم عن الصناديق الفارغة، لكي يُفرغّوا سلعهم. عند وضع غرض ما على الرفوف، يجب على المُخزّن أن يوجه ماسحاً ضوئياً محمولاً باليد على الرمز الموضوع على الصندوق وعلى رمز الغرض الذي سيضعه في هذا الصندوق. هذه العملية بطيئة، لأنه يجب على الموظفين أن يوزعوا الأغراض المتماثلة التي وصلت في الشحنة نفسها على

صناديق مختلفة، وأن ينشروا هذه الأغراض في أنحاء المستودع بدلاً من تجميعها في مكان واحد، وهذا ما يجعل العمل أكثر كفاءةً بالنسبة إلى الملتقطين، وهم العمال الذين يندفعون عبر الممرات لالتقاط المنتجات وتلبية رغبات الزبائن. قالت ليندا: «إنه أمر غريب». ثم حاولت أن تتذكر المجموعة المتنوعة من الأغراض التي قد توجد في الصندوق. «زيت للمكابح، حليب أطفال، ظل للعيون، كتاب، شريط لاصق... كل هذه الأشياء موجودة هناك».

بعد أن تعرّفت إلى عمل التخزين، أنهت ليندا أسبوعها الأول في ما تسميه الشركة «التقسية العملية»: سلسلة من أنصاف أيام العمل لكي يتأقلم العاملون الجدد مع المشي على الأرضية الإسمنتية، لكي يصبحوا قادرين على فعل هذا الأمر لعشر ساعات أو أكثر عندما تنتهي فترة التوجيه والتعريف بالعمل. طلبت ليندا العمل في وردية الليل، كونها كانت بأجرٍ أعلى بمقدار 75 سنتاً، ليصل بهذا أجرها إلى 12.25 دولاراً بالساعة عدا العمل الإضافي. قالت ليندا: «لقد أردت كل المال الذي كان بإمكاني أن أكسبه». عندما بدأ دوامها الكامل، عملت من الساعة 6 مساء حتى الساعة 4:30 صباحاً، مع استراحتين قصيرتين مدة كل واحدة منهما خمس عشرة دقيقة، واستراحة لمدة ثلاثين دقيقة لكي تتناول وجبة سريعة. أضافت: « كنت أنام طوال النهار، هذا الأمر يغير حياتك نوعاً ما». بعد الاستيقاظ في فترة بعد الظهيرة، كان لدى ليندا ثلاث ساعات لكي تنهي أعمالها المنزلية، تُحضّر حقيبة الطعام، وتأخذ كلابها في نزهة في موقف المقطورات في سيغ فالي. ثم تذهب بعد هذا في طريق العودة إلى المستودع في رحلة تستغرق 25 دقيقة.

عند بدء كل وردية عمل، ترتدي ليندا سترة عاكسة مع حبلٍ حول رقبتها يحمل شارتها الأمنية. وأحضرت بطارية مشحونة حديثاً لماسحها الضوئي المحمول. ثم ذهبت إلى ما يسمى بالوقوف – وهو تجمع حيث يؤدي العاملون تمارين التمدد الرياضية ويتلو المشرفون بسرعة الأهداف الإنتاجية عليهم. ثم بدأت بالعمل، تمسح رموز الباركود بينما تضع الآلاف من المنتجات على

الرفوف. أخبرتَني: «أنت تملك عربة بعجلات تحتوي على أربعة عشر وعاءً من البضاعة الصينية الرديئة، وأحد الأشياء التي تسبب لي الاكتئاب أنني علمت أن كل هذه الأشياء سينتهي بها الأمر في مكبّ للنفايات». أحبطها هذا الأمر. عندما كانت تفكر في كل الموارد التي استُخْدِمَتْ لكي تصل هذه الأغراض إلى هذا المستودع. قالت متأملة: «وفي نهاية الأمر (استخدمها، ثم ارمِها في القمامة)».

كان عملها متعباً، فبالإضافة إلى مشيها في الممرات التي لا تنتهي، كانت ليندا تنحني، تمد يديها محاولة الوصول إلى الأغراض، وتجلس القرفصاء، وتصعد السلالم وتنزل عليها، وكان كل هذا أثناء اجتيازها لمستودع تزيد مساحته على ثلاثة عشر ملعب كرة قدم تقريباً. كان هذا المكان هائل الحجم لدرجة أن العاملين فيه استخدموا أسماء الولايات لكي يتنقّلوا في المساحات الشاسعة الموجودة في داخله، حيث قاموا بتسمية الجزء الغربي منه بـــ «نيفادا» والجزء الشرقي بـــ «يوتاه».

في أوائل تشرين الأول، بعد مرور أول أسبوعين على بدء ليندا بالعمل، نشرت على فيسبوك: «إن استطعتُ النجاة خلال هذا العمل، سأكون في بنية جسدية جيدة. أنا أستمرّ التفكير في الخاسر الكبير» – مشيرة إلى مسابقة تلفزيونية عن خسارة الوزن – «وإن استطاعوا فعلها يمكنني فعلها أيضاً». رددت إلى نفسها أيضاً شعاراً كانت قد تعلّمَتْه من منظمة «جمعية مدمني الكحول المجهولين» التي تساعد في العلاج من إدمان الكحول: «لا تستسلم قبل أن تحدث المعجزة».

في ذلك الوقت، كانت ليندا صاحية، لم تتعامل مع أي مشروب كحولي لأكثر من عقدين من الزمن. في وقت سابق من حياتها، واجهت معاناةً شعرت أنها أمرٌ لا مفر منه – كان طعم المشروبات الكحولية محفوراً في مورثات عائلتها– وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، بدا والد ليندا المدمن على المشروبات الكحولية أنه كان مصمماً على تمرير هذه الصفة إلى الجيل التالي. مع اقتراب

نهاية سنوات ليندا الدراسية في مدرستها الثانوية، عرّفها والدها إلى مشروب سلو جين فيز، الذي كان يُحضّره في الخلاط في كل ليلة ويضع فيه الليمون ومسحوق السكر. كان يسهر مع ابنته حتى وقت متأخر من الليل، يحتسيان مشروبهما الكحولي ويتحدثان. كان يشاهد سوق الأسهم على التلفاز، ويحاول أن يعلّم ابنته عن الاقتصاد؛ ظنت ليندا أنه شخص عبقري. لقد اعتادا على نمط حياة صباحي؛ كان يفتح باب غرفة نومها ويسألها: «هل ستذهبين إلى المدرسة؟». فتجيبه شاكية: «أنا أعاني من الصداع والدوار». فيقول: «أوه، يا طفلتي المسكينة». ويغلق الباب بهدوء.

عندما أصبحت ليندا شخصاً بالغاً كانت في غاية الانهماك، كان أداؤها عالياً بشكل مثير للإعجاب، وكانت مدمنة شديدة على الكحول وبوتيرة متزايدة. تعاطت ليندا مخدر الميث لفترة وجيزة – لم تتناوله لكي تصل إلى النشوة سريعاً بل لأنه مكنها من شرب كميات من الكحول أكبر بكثير من الكميات التي تؤدي لوصولها إلى حد الثمالة. حاولت ليندا الإقلاع عن هذه العادات، لكنها عادت إلى المعاصي مرات عديدة، وذات يوم وبعد إسرافها في الشراب طوال الليل، كان الكيل قد طفح بالنسبة إليها، عادت إلى المنزل قرابة الساعة السادسة صباحاً. نظر إليها أطفالها بصمت وهي تدخل، تذكّرت ليندا قائلة: «قالت نظراتهم كل شيء – خيبة الأمل – إنه شيء فظيع أن تنتظر عودة أحد ما إلى المنزل. أن تتوقع مجيئه للمنزل، لكنه لا يأتي، هذا ليس أمراً لطيفاً لفعله مع الأشخاص الذين تحبهم».

بعد ذلك، أعادت ليندا تكريس نفسها لكي تُقلع عن الكحول بحيوية جديدة، لكن هذا الأمر التصق بها في هذه المرة. قامت ليندا بالاتصال بمرشدها في كل مرة كانت تقلق فيها بشأن تجاهلها لاجتماعات جمعية مدمني الكحول المجهولين. وبشكل غريب، كانت هذه الطريقة التي تعلمت بها بعض التقنيات التي ساعدتها أيضاً على المضي قدماً في النوبات الطويلة في أمازون. أصبحت خبيرةً بالتركيز على أي تحديات تلوح في الأفق، فجزأت

مشاكلها الكبيرة إلى قطع صغيرة جداً حتى شعرت أنها تستطيع التعامل مع أي شيء.

اعتاد مرشدها أن يقول لها: «هل أنهيت تنظيف الأطباق؟ حسناً، اذهبي ونظّفي الأطباق ثم اتصلي بي بعد ذلك». فتبدأ ليندا بفرك الأطباق والأكواب حتى تصبح لامعةً، ثم تُعيد الاتصال. فيكون السؤال التالي. «هل رتبتِ فراشك؟» فتذهب ليندا لتفعل ذلك أيضاً. وهكذا دواليك، حتى نجحت بالأمر من دون أي جهد يذكر.

***

لم تكن ليندا الشخص الوحيد الذي كان يعاني من أوقات صعبة في المستودع. في 1 تشرين الثاني، تلقّت إدارة السلامة والصحة المهنية في نيفادا شكوى عن تعرض العمال لإصابات في الظهر نتيجة حملهم صناديق ثقيلة. بعد أسبوع، أُرسل مفتشين إلى منشأة فيرنلي، راجعا سجلات الإصابات الخاص بالشركة، وتجولا في أنحاء المستودع، ورافقهما مدراء في أمازون. لم تستغرق هذه الزيارة أكثر من أربع ساعات. في اليوم التالي، أغلقت القضية مع تقرير رسمي تضمّن التالي: «لقد وجدنا أن هذه المنشأة تحتوي على العديد من الإصابات بالإجهاد متضمنة إصابات الإجهاد في الظهر، لكن لا شيء خارج المعايير القياسية لهذا النوع من العمل».

بعيداً عن الإجهاد، قالت ليندا إن الضجر كان أكبر مخاوفها. لعبت ألعاباً عقلية مع نفسها لتمضية الوقت. فقالت لنفسها مراراً وتكراراً. «سأبقى هنا لخمس دقائق أخرى فقط، وسأغادر بعد هذا. سأترك هذا العمل، لقد طفح الكيل». بهذه الطريقة استمرت بالعمل حتى نهاية ورديتها، أي قبل ساعتين من الفجر، ثم كانت تسجل وقت انتهائها من العمل هي وزملائها ثم يخرجون من البناء عبر محطة أمنية تضم كاشفات للمعادن وحراس أمن، وهي جزء من استراتيجية الشركة المضادة للسرقات. (مارك ثيريمان، محامٍ من مدينة رينو،

مثّل مجموعة من العمال المؤقتين في مستودعات أمازون في فيرنلي ولاس فيغاس الذين ادّعوا استحقاقَهم لأجور ما يصل إلى ثلاثين دقيقة في اليوم، وذلك في الوقت الذي انتظروا فيه في الطوابير لكي يمروا من خلال محطات الشركة الأمنية، أصدرت الدائرة التاسعة لمحكمة الاستئناف في الولايات المتحدة حكماً في صالحهم في العام 2013، لكن محكمة الولايات المتحدة العليا ألغت هذا القرار في العام الذي تلاه).

بغض النظر عن الملل، كانت ليندا ممتنة لجزء واحد من عملها. قالت: «كانت الصداقة الحميمة أفضل شيء، لقد صنعت العديد من الأصدقاء في هذا العمل».

كانت أمازون المكان الذي التقت فيه ليندا بسيلفيانا للمرة الأولى، المنجّمة التي عملت معها لاحقاً في استضافة المخيمات في جبال سان بيرناردينو. قبل أن تصل سيلفيان إلى فيرنلي لتعمل في كامب فورس، كتبت في مدونتها:

> *المشهد 1: سأغادر شمال نيو مكسيكو، وأذهب إلى شمال نيفادا لكي أبدأَ العمل في وظيفة موسمية بصفتي عاملة مخيمة. سأعمل بصفة مساعدة في مستودع خِدمةً للإمبراطورية الشريرة من المستهلكين الذين يطلبون السلع عبر الإنترنت. أنا ذاهبة إلى مغامرة مؤقتة في مكان خطير جداً. إنها خطوة قاسية، لكنها ضرورية لتمويل المراحل الأولى من الرحلة...*

كانت سيلفيان واحدةً من جيران ليندا في موقف المقطورات في سيغ فالي. في ذلك المكان كانت تُخرج قطتها ليلى – قطتها – في نزهة، مستخدمة رباطاً ولجاماً زهري اللون. هذا الأمر جعل منها شخصيةً محلية مشهورة. حتى في المستودع، كان الناس يقتربون منها ويسألونها: «أنت هي المرأة التي تُخرج القطة في نزهة، أليس كذلك؟».

كانت سيلفيانا مُخزنة تعمل في الوردية الليلية مثل ليندا، بصفتها شخصاً يمتلك شخصية من الفئة –أ– كما وصفت نفسها، وجدت سيلفيان هذا العمل مثيراً للجنون. غالباً ما كانت كل العبوات مليئة بالبضائع، ولم يكن هناك أي مكان فارغ لكي تضع فيه الأشياء، ولم تكن هناك أي طريقة للقيام بهذا العمل بشكل جيد، وهذا جعل المستودع يبدو وكأنه إصدار من قلعة كافكا والتي صُمّمت لتعذيب الأشخاص الذين يسعون للكمال والمثالية. كانت سيلفيان تشاهد مسلسل ذا أورانج إذ ذا نيو بلاك في ذلك الوقت، ووجدت نفسها تُقارن حياة السجناء في هذا المسلسل بحياتها في العمل.

في البداية، كانت تبكي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. (شرحت لاحقاً: «أنا امرأة عاطفية، كان هذا محرجاً جداً. كل هذا البكاء كان لأنني شخص يهتم). لقد آلمها ظهرها كل الوقت، وهو أمر جديد – بغض النظر عن الوخزة التي كانت تشعر بها في أيام تقديم الطعام، والتي لم تزعجها سابقاً. كانت واحدة من الأشخاص العديدين الذين يعانون من صدمات الكهرباء الساكنة، وشرحت لاحقاً أن جرّ عربة مليئة بالعبوات البلاستيكية على أرضية المستودع بدا أنه يُشكل شحناتٍ من الكهرباء الساكنة. ذات مرة، قامت بجر عربتها إلى مجموعة من الرفوف المعدنية، وحاولت أن تضع كتاباً في الرف الأعلى، مررت يدها بالقرب من المعدن ثم شعرت بصعقة في يدها، وهذا ما جعل يدها ترتد بشكل غير إرادي، فطار الكتاب بعد ذلك في الهواء وسقط على وجهها. وهذا ما أدى إلى تورم شفتها ونزيف في اللثة. سقط الكتاب على الأرض، وعندما نظرت إليه، رأت صورة لراهب من التيبت يبتسم إليها على الغلاف الخلفي للكتاب. في وقت لاحق علّقت على الأمر: «هذا هو حس الدعابة الخاص بآلهتي». (لم تكن هذه المشكلة أمراً جديداً. كان الموظفون في فيرنلي يتقدمون بشكاوى رسمية تتعلق بتعرضهم للصعق من الرفوف المعدنية طيلة سنتين عندما انضمت سيلفيان إلى كامب فورس. أثناء تفتيشات الولاية عن السلامة في أماكن العمل، قال المسؤولون في أمازون أنهم يعلمون بشأن هذه المشكلة، وقد ربطوا الرفوف المعدنية بأوتاد

للتأريض، بالإضافة إلى تركيب أشرطة نحاسية رفيعة على العربة، الأمر الذي يساعد بتفريغ الشحنات الساكنة. وعندما استمرت الصدمات الكهربائية، قاموا برش الأرضية بمنتج يدعى ستايسايد. صرح مسؤول بالشركة: «خُفضت حالات صدمة الموظفين بشحنات الكهرباء الساكنة». ولم يطالب المفتشون بإجراء أي تغييرات).

أصبحت ليندا صديقة لــجين ديرغ وآش هاغ، وهما ثنائي في أواخر العشرينات من عمرهما قد وصلتا إلى سيغ فالي في أواخر تشرين الأول.

لقد عاشتا في عربتهما، ذا ماناتي، وهي عربة سكن متنقلة ذات سقف مرتفع ولون أزرق وأبيض، كانت من طراز جي أم سي، يعود تاريخ صنعها إلى العام 1995. اشترتاها في طريقهما إلى نيفادا بمبلغ وقدره 4500 دولار وحسم مالكها مبلغ ألف دولار من السعر المطلوب. كان يريد التخلص منها، بعد أن ركنها في أرض له طيلة ستة أشهر. تذكرت جين المرة الأولى التي استدعتهما فيها ليندا إلى خارج عربتهما لكي تلقي التحية، وكيف كانت تتجول في الجوار وتصيح: «فطائر محلاة، فطائر محلاة». لكي تُعلن أنها كانت تصنع ما يكفي من الفطائر لكي تتشاركها مع الآخرين. قالت جين لآش: «أنتِ تعرفين ليندا، إنها المحور الاجتماعي هنا». عندما كانت آش تنتظر رسالة خاصة من ابنة أخيها، كانت معنونة بـ : «إلى عمتي، السيدة جين والعربة». كانت ليندا أول من سمع عن وصول هذه الرسالة عندما كانت في مكتب الاستقبال الخاص بموقف المقطورات. تذكرت آش تلك اللحظة قائلة. «هرَعتْ ليندا إلى الحمام ثم سألَت، «هل أنتِ هنا؟»، فقلت. «نعم!» فقالَت. «ماذا تفعلين». أجبتها أنا أحظى ببعض الوقت الخاص يا ليندا!». فقالت لي.» لقد وصلتك رسالة بالبريد!»

جين ديرغ وآش هاغ تقفان أمام عربتهما. ذا ماناتي

قبل أن تبدأ بالترحال، استأجرت جين بيتاً مع آش في كولورادو سبرينغز، وكانتا تشعران بنوبات الاكتئاب والإحباط من قلة فرص العمل.

نشأت جين وهي تشاهد والديها يعملان في كينغ سوبرز – متجرٌ للبقالة مملوك من قبل كروغر – كان والدها يكره هذا العمل. «نحن نريد لكم الأفضل». لطالما قالا ذلك، وقاما بحثّها على الالتحاق بالجامعة. كان الاستقلال أمراً مهما لِجين. في المدرسة الثانوية، بدأت بالعمل معبئة للأكياس ومساعدة للزبائن بأجر يبلغ 6 دولارات بالساعة. بعد ذلك نالت شهادة جامعية من منحة دراسية. لكن لم يكن بإمكانها رؤية أي جدوى من إكمال الدراسة. قالت: «إنه الأمر نفسه في كل مكان، سترى كل أصدقائك ينالون درجة البكالوريوس ودرجات أعلى منها لكن لا يمكنهم الحصول على عمل. لذلك لا أرى سبباً يجعلني أعود لكي أكمل الدراسة، على الرغم من أنني أحبها. لكن المال جزء مهم من هذا الأمر، الدخول في الديون. إن التفكير فقط في هذا الأمر يخيفني جداً، أنا لا أريد لهذا الأمر أن يحصل».

عملت جين في متجر لبيع الحرف اليدوية، وبعض متاجر الكتب المستعملة، وبعد ذلك عملت مساعدة في مكتبة مدرسية. وبعد هذا، انتهى بها الأمر بالعمل تحت إشراف مسؤولة برمجيات مكتبية في أكبر مقاطعة في كولورادو سبرينغز. أحبّت جين هذه الوظيفة، وقالت: « كان هذا ممتعاً للغاية؛ التواصل مع كل هؤلاء المكتبيين، الدخول إلى حواسيبهم وعرض كل الأشياء الرائعة عليهم». لكن سرعان ما اتضح أن رئيستها، التي حملت درجة الماجستير، كانت تُدفع للتقاعد، بينما كانت جين تتولى أمر العمل نفسه بأجر أقل بكثير.

قالت جين: «إنهم يزيلون الجيل الأكبر الحائز على درجات متقدمة، ويضعون التقنيين في مكانهم. إنه أمر محزن بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص الذين يحملون هذه الدرجات التي عملوا جاهدين لكي ينالوها، لقد شعرت أنني أخون مديرتي باستيلائي على عملها، لأنها كانت امرأة مميزة».

في هذا الوقت، استنتجت جين أنها لن تكون قادرة أبداً على الحصول على عمل كعمل مديرتها – في هذا الوقت كان يعاد تصنيف هذا العمل ونقله إلى مرتبة أدنى – ونتيجة لذلك أصبحت عوتها إلى الجامعة عديمة الفائدة. قالت متأمّلة: «لماذا أعاود الدراسة إن كان العمل عبارة عن مناصب للمبتدئين لا تتطلب أي خبرة؟».

في هذه الأثناء شاهدت آش والديها يسقطان من الطبقة المتوسطة بعد أن تم تسريح والدها في العام 2001 والذي كان يعمل مهندساً كهربائياً بأجرٍ من مرتبة عشرات الآلاف. كان فخوراً جداً بتولي عمل بأجر منخفض، كان ذلك قبل أن يتم استنفاد موارد الأسرة. بعد ذلك انتهى به الأمر بقيادة الحافلات المدرسية صباحاً والعمل في وال مارت ليلاً.

قالت آش: «أياً يكن الأمر، أرى والديّ في منتصف الستينات من عمرهما من دون أن يتقاعدا، أنت تعلم، لقد اختفى كل شيء بنياه في حياتهما.

بعد ذلك، سترى ذلك الأمر يحصل لكثير من الناس أيضاً مع الركود الاقتصادي». على الرغم من أنها اعتبرت نفسها «تابعة» إلا أنها بدأت تقلق لعدم امتلاكها أي ضمانات للاستقرار، حتى عند تقيدها بقواعد المجتمع لعيش حياة معتدلة في طبقة متوسطة. لقد امتلكت شكوكاً حول وجود الضمان الاجتماعي لدعم أبناء جيلها عندما يتقدمون في السن. وعلى الرغم أنها امتلكت خطتي 401–K تقاعديتين وحساباً تقاعدياً إفرادياً في مصرف غولدمان ساكس. لكن انتابها الخوف بأن تُصبح هذه الأمور – التي قام والداها بتسويتها عندما كانت طفلة صغيرة – عديمة القيمة عندما ستحتاج إليها في المستقبل.

كانت آش تتصارع مع ديون دراستها. لقد بلغ الثلاثون ألف دولار التي اقترضتها سبعة وثلاثين ألفاً مع الفوائد. كل هذا من أجل شهادة لم تحصل عليها، بعد ست سنوات من الصفوف الدراسية، شعرت أنها مضطرة إلى أن تذهب مباشرة من المدرسة إلى الجامعة، حتى مع إيمانها أن الشخص في تلك السن. «لا يعرف ماذا يريد، ولا يعرف ماذا يحتاج، ولا يعرف من هو» لكن انتهى بها الأمر بدراسة كل شيء من التاريخ إلى الفيزياء.

خلال الدراسة الجامعية وبعدها، عملت آش في صيدلية صغيرة جعلتها تشعر وكأنها بين عائلتها. لكن هيكلة جديدةً في القيادة غيرت سلوك المشرفين عليها؛ لقد شاهدت الموظفين الأوفياء، الذين عملوا في هذا المكان لفترة طويلة، يُجبرون على ترك العمل. وفي هذا تقول: «إن مجتمعنا يتحوّل، إنهم لا يريدون للموظفين أن يعملوا لفترة طويلة، كي لا يضطروا لدفع المعاشات التقاعدية، وللاستمرار في منحهم علاوات «زيادة الأسعار»، وإن عملوا في الشرطة لمدة طويلة، سوف يطلبون علاوة مبنية على الجدارة في العمل. تريد الإدارة الجديدة أشخاصاً يمكنها التخلص منهم، ولكي تحصل على أشخاصٍ يمكنك التخلص منهم يجب أن تمتلك عملاً يمكنك التخلص منه. ولهذا الأمر، أصبح كل شيء مؤتمتاً».

في هذا الوقت، كانت جين تجوب الإنترنت بحثاً عن طرق بديلة للعيش. لقد أجرت أبحاثاً عن الحياة بأرخص الأثمان وحركة البيت الصغير. وقد عثرت بالصدفة على الموقع الالكتروني CHEAPRVLIVING.COM (وهو عبارة عن مدونة تقدم الخدمات وتشجع الناس على العيش الرخيص في عربات السكن المتنقلة والعمل أثناء التخييم). تدريجياً، بدأت التفكير بأنها قد وجدت طريقها للخروج. لم يكن التحول إلى رُحّل والانتقال للعيش في سيارة الخيار الأكثر جاذبية بالنسبة إلى آش. لقد فكرت دائماً بالحلقة التقليدية من برنامج ساترداي نايت لايف والتي عرض فيها كريس فارلي متحدثاً حماسياً يعيش في عربة ويدعى مات فولي. حذّر الأطفال أنه يجب عليهم تحسين حياتهم إلا إن كانوا يريدون العيش في عربة مثله أيضاً. قالت آش: « كان انطباعي الأول أننا سوف نعيش كهذا الشخص الذي يقول: «أنا أعيش في عربةٍ بالقرب من النهر» على الرغم من هذا، تبنت آش تلك الفكرة لاحقاً.

كانت الخطة هي التناوب بين العمل والمغامرة أثناء العيش في سيارة هاتشباك من نوع سوبارو إمبريزا، كانت سيارة مستعملة حصلتا عليها من والدة جين، وكما تبين لاحقاً، لم يكن تحويل هذه السيارة إلى منزل أمراً سهلاً. على الرغم من أن المقاعد الخلفية كانت قابلة للطي، لم يكن هناك مساحة كافية للاستلقاء، إلا بحشر الأشياء في مكان وضع الأرجل خلف المقاعد الأمامية، صانعاً بها مسانداً للرأس. مع ذلك، استعدت جين وآش بأفضل ما لديهما. قصّت جين لُباداً صوفياً أسود اللون إلى ألواحٍ يمكن لصقها على النوافذ للخصوصية، ولتقليص حجم ممتلكاتهما، نشرتا رسالة على موقع كريغزليست – انتباه: أغراض مجانية— ثم تركتا كل الأغراض غير الضرورية على المرج الأخضر. أخبر هذا المنشور الناس بأن يحضروا عند الساعة التاسعة صباحاً. لكن بحلول الساعة الثامنة والنصف، اختفى كل شيء كان موضوعاً على المرج. قالت آش: «عندما تقول، هذا الشيء مجاني سيجد الناس استخدامات لكل شيء، حتى إن هناك شخصاً أخذ القمامة!» (اكتشفت أن هذا كان خاطئاً).

كانت المغامرة الأولى المشي في طريق كولورادو – ما يزيد على 480 ميلاً من دينفر إلى دورانغو – من دون توقف لمدة 52 يوماً. وبعد ذلك توجهتا إلى مستودع أمازون في فيرنلي. في البداية خططتا للالتحاق بكامب فورس عندما كانتا تعيشان في سيارة السوبارو. قالت جين، بوضوحٍ ومباشرة: «ما كان هذا لينجح، كُنا سنترك العمل في النهاية». لُحسن الحظ وجدتا العربة واشترتاها، مع أن هذا الأمر أدى إلى إفلاسهما.

بعد أن استقرتا في موقف مقطورات سيغ فالي، قرر الثنائي الذهاب إلى المستودع في أول وردية عمل بدوام كاملٍ على متن دراجتين هوائيتين. لقد استنتجتا أن الأمر سيكون ممتعاً، على اعتبار أن معظم الطريق كان مسطحاً، وأيضاً لتساعدا نفسيهما في توفير المال الذي سيُصرف على الوقود.

بعد ذلك، ثُقبت إحدى عجلتي دراجة جين ثُقباً صغيراً أدّى إلى تسرب الهواء من العجلة ببطء. فاضطرتا إلى الوقوف كل خمس عشرة دقيقة لإعادة ملئِه بالهواء. استغرقت تلك الرحلة ثلاث ساعات، لكنهما وصلتا في الوقت المناسب لبدء وردية العشر ساعات. عندما خرجتا في الساعة الخامسة صباحاً، كان الظلام حالكاً والجو بارداً لدرجةٍ تجعل الأسنان تصطك بعضها ببعض. توقفتا في وال مارت لشراء ملابس إضافية، ثم قادتا دراجتيهما خلال ازدحام ساعة الذروة مع شروق الشمس المسبب للعمى. قالت جين ضاحكة: «لقد كنا نُعرف دائماً بالفتاتين اللتين تركبان دراجتيهما إلى العمل». بعد ذلك. قررتا المكوث بالقرب من المستودع لتوفير الوقود، فركنتا ذا ماناتي في وال مارت، أو في محطة قريبة للوقود. وعادتا إلى موقف المقطورات في سيغ فالي في أيام العطلات فقط.

كَمُخَزِّنَتَيْن، وجد جين وآش أن تجاربهما الحديثة في المشي في طريق كولورادو قد ساعدتهما كثيراً.

قالت جين: «يستغرق الأمر منك بعض الوقت لكي تعتاد على كل ذلك الانحناء، لكنك ستحصل على العضلات بعد عدة أسابيع. سترى كل هؤلاء المسنين هناك وتقول. يا إلهي، إن استطاعوا هم فعلها، ما الذي أشكو منه؟».

وجدت آش العمل «رتيباً ومعزولاً». وللمساعدة في تخفيف الملل، قامت بتسلية نفسها أحياناً بتنسيق الأغراض المترابطة سوية بطريقة إبداعية بينما كانت تضعها على الرفوف، واضعةً، على سبيل المثال. عُلبةً من الواقيات الذكرية إلى جانب أجهزة فحص الحمل. استخدمت خاصية قائمة الرغبات في موقع أمازون لكي تقوم بفهرسة «كل هذا الهراء المذهل والمثير للرعب الذي نضعه على الرفوف». تضمن هذا الأمر: ديدان شمع حية، حلوى الدب الجيلاتينية بوزن خمسة أرطال. بندقية برمحٍ للغطاسين، كتاب عنوانه ڤينوس والعضلة ذات الرأسين: تاريخ مصوّرٌ للنساء ناميات العضلات، سدادة للمؤخرة مرتبطة بذيل ثعلب مصنوع من الفرو، رطل من العملات المعدنية الأميركية القديمة، سراويل قطنية مع أربع فتحات للأرجل كانت تُدعى. «ملابس داخلية لشخصين.» وقضيباً اصطناعياً بشكل ولون مستوحيين من باتمان[8]

في أواخر تشرين الأول، انخفضت درجات الحرارة في فيرنلي تحت درجات التجمد، وامتلأت مواقف المقصورات بالثلج نتيجة العواصف الثلجية التي حصلت في الهالووين.

وصل الشتاء الحقيقي في الأسبوع الذي يسبق عيد الشكر. مرّ الشتاء الأكثر قسوةً في كانون الأول، وكانت درجات الحرارة ذات خانة واحدة، وكان هناك ليلة تعيسة وصلت فيها درجة الحرارة إلى درجتين تحت الصفر. للنوم في الطقس البارد، ارتدت جين وآش كل قطعة ملابس امتلكتاها، ثم دفنتا نفسيهما تحت الملاءات وفي أكياس النوم. بالإضافة إلى لحافٍ وبطانية عسكرية. في ليالي العمل، عندما كانتا تُخيمان خِلسةً بالقرب من المستودع، شغلّتا مدفأة ليتل بَدي تعمل بغاز البروبان قبل عشر دقائق من الخلود إلى النوم؛ وعندما كانتا تقربان أقدامهما إليها، شاهدتا تحوّل التعرّق الناتج عن

المشي ساعات طويلة إلى خيوط من البخار. على الرغم من أن وردية الليلة جعلتهما تشعران كالـ «أمازومبيز،» كانتا مُمْتَنتَيْن لاختيارها. قالت آش: «كُنا سنكون داخل بيئة مدفأة خلال الفترة الأبرد من اليوم، وهذا شيء مهم».

عندما حل الطقس الشتوي إلى موقف المقطورات في سيغ فالي، كان لدى ليندا جار في كامب فورس، يدعى كارل، ويعيش في خيمة، وكان يعمل في وردية نهارية. على اعتبار أن ليندا أمضت وقتها في المستودع الليلَ بأكمله، حثَّته على المكوث في منزلها المتنقل حيث كان الجو دافئاً – لقد كانت تُشغّل سخّاناً كهربائياً بالاعتماد على الكهرباء الموجودة في الموقف لكي توفّر البروبان، لكنه كان يقول دائماً: «لا، لا، لا، المكان مريح هنا، أنا بخير». في تلك الأثناء، حتى أكثر مالكي عربات السكن المتنقلة احترافاً كانوا يعانون من أوقات عصيبة. كان لدى بعضهم حيل للمحافظة على شعورهم بالارتياح، مثل لّف سخان كهربائي على هيئة شريط لاصق حول أنابيب المياه وتغطية النوافذ بعوازل عاكسة تحتوي على الفقاعات الهوائية. (بعد عدّة سنوات، أنشأت أمازون موقعاً الكترونياً للمتقدمين إلى كامب فورس يُدعى «وينترايزينغ يور ريغ: تهيئة مقطورتك للشتاء» ونصحت بتغليف النوافذ بغلاف بلاستيكي حراري، ووضع العوازل العاكسة فوق فتحات التهوية. وقد تّمّ إرفاق الروابط التي تُمكّن القُرّاء من شراء هاتين المادتين من أمازون، هَل هناك مكانٌ آخرٌ لتوجيههم؟) لكن كان هناك بعض الحدود لهذا الأمر. قامت ليندا بفصل أنابيب الماء الخاص بها. وعندما حاولت أن تفصل أنبوب مياه الصرف الصحي، وجدت أن الفضلات قد تجمدت بالداخل، «كان هناك قطعة كبيرة من البراز، وكان الأمر كريهاً جداً».

فيل وروبن ديبيل، مواطنان من ميتشيغن، امتلكا عملاً سابقاً في الخردة، وكانا يخوضان المعركة ذاتها. لقد اشتريا مصباحاً كهربائياً قوياً جداً وحاولا عن طريقه إذابة أنبوب الصرف الصحي المتجمد الخاص بهما، لكن من دون أي جدوى.

في الوقت ذاته، هرع أحد أبطال ليندا – جيم ميلفين مِن مدونة جيمبو جورنيز، والذي كان قد وجهها إلى وظائف أمازون الموسمية –إلى المدينة لشراء مدفأة لسرير الحيوانات الأليفة ومدفأة كهربائية عادية لــتشيكا، كلبة التيشواوا خاصته، والتي تزن رطلين، بدأت ليندا تخيل وجهتها الجديدة، والتي ستكون أكثر دفئاً وأقل إرهاقاً. كالعديد من جيرانها، خططت للتخييم في الأراضي العمومية التي تقع حول بلدة كوارتزسايت، أريزونا. في هذه المنطقة، جذب فندق شانغري–لاللمهاجرين الذي يقع في صحراء سونوران الآلاف من الزوار في الشتاء واستضاف العديد من الفعاليات خلال الفصل، من المساحات الكبيرة من أسواق السلع المستعملة، إلى عروض جامعي الصخور والأشخاص الحماسيين والمؤثرين الذين يمتلكون عربات سكن متنقلة، بالإضافة إلى المئات من التجمعات الاجتماعية. لم يسع ليندا الانتظار لكي تختبر أحد من هذه اللقاءات، ملتقى ساكني العربات، والذي كان ينعقد هناك في شهر كانون الثاني، وبعد أن ذكرت هذا الأمر أمام جين وآش، اللتين كانتا قد سمعتا عن هذه الفعالية، لكن لم تقررا بعد المكان الذي ستذهبان إليه بعد أمازون، قررتا الانضمام إليها. تذكّرت جين: «لَم تكن خطة الذهاب إلى ملتقى ساكني العربات قد تَرَسخت بالنسبة إليّ، لكنني قررت الانضمام إلى ليندا عندما أخبرتنا بالأمر، قُلنا في ذلك الوقت حسناً، يجب علينا فعلها» وخططت سيلفيان للذهاب أيضاً.

لكن الشتاء لم يُفلت بسهولة. كان هناك ساعات عملٍ إضافي إلزامية، ووصلت ساعات العمل الإجمالية إلى خمسين ساعة عمل في الأسبوع. مع حلول عيد الميلاد، كانت كل العبوات الموجودة على الرفوف مليئة بالبضائع، وكان هذا كابوس المُخزّنين. وفي هذا تقول آش: «لم يكن هناك أي سعة تخزينية على مدار الشهر ونصف الشهر الماضيين، ولذلك، كلّما مررت الماسح الضوئي على عبوة من العبوات، بدأ الماسح بإصدار أصواتٍ إيي–نو! إيي–نو! إ إيي–نو! إيي–نو! وكان عليك الانتظار قبل أن تقوم بمسح العبوة التالية، بينما كان الأشخاص يتجولون في الجوار بجنون. لم يكن هناك أي مكان

لتضع فيه أي شيء، وكُنت ستتمنى ضرب وجهك بالحائط». توجب على المُخزّنين الاستمرار بالبحث، بخيبة، حتى إيجاد العبوات النادرة التي احتوت على مساحة فارغة. في ذلك الوقت، طلب المشرفون منهم الإسراع بوتيرة العمل، وذلك للحصول على «نسبة» وقالوا: «يجب علينا الحصول على تلك الأرقام.» روت أمازون في وقت سابق أن هذه الفترة كانت أقوى موسمٍ للأعياد، في الثاني من كانون الأول وحدَه (والذي يُعرف بسايبر مَنداي، أول يوم اثنين بعد عيد الشكر)، طلب الزبائن 36.8 مليون منتج – أو ما يقارب الـ 426 طلبية في الثانية – وهذا ما ساعد على رفع مبيعات الشركة الكلية في العام 2013 إلى رقم قياسي بلغ 74.45 مليار دولار أميركي.

في خِضمّ هذا، انتابت ليندا حالة قلق من المرض. كانت متماسكة بشكل جيد، على الرغم من إجهاد معصمها الأيمن الناتج عن حمل الماسح الضوئي. لكن في الخامس عشر من كانون الأول، وقبلَ أسبوعين من آخر يوم لها في المستودع. بدأت تشعر بنوبات من الدوار لم تعلم سببها. كان الكثير من العمال يشعرون بالحالة نفسها، وقد اعتقد البعض أن هذا كان بسبب النوعية الرديئة للهواء الموجود في المستودع. حاولت ليندا الصمود لمدة ساعة، لكن محاولاتها بالتنفس العميق لم تجدِ نفعاً، لذا رافقها أحد زملاء العمل إلى أمكير (عيادات للطوارئ تديرها أمازون في مواقع العمل). هناك فحص الكادر الطبي ضغط دمها: «60/48»، وهو ضغط منخفض لدرجة الاتصال بسيارة إسعاف. في المستشفى في رينو، غرباً على بعد نصف ساعة في السيارة، خضعت ليندا لتصوير طبقي محوري، ولصورة بالأشعة السينية، لكنها لم تتلقَّ أي تشخيص قاطع. تتذكر ليندا: «قالت الممرضة في المستشفى أنه من الممكن وجود ضغط على العصب المبهم لديّ، هذا الأمر كفيلٌ بفقدانك للوعي، ويمكن لهذا الأمر أن يحصل نتيجة للإجهاد». بدَت مشككة، في حين أنها لم تَظن أنها كانت تضغط على نفسها في العمل. أياً يكن الأمر، تم توجيهها إلى متابعة هذا الأمر مع طبيب الرعاية الأولية الخاص بها. قالت ضاحكةً: «أجل، سأفعل ذلك إن كان لديّ واحد». كمعظم العاملين المخيمين الذين قابلتهم قبل إقرار قانون

الرعاية الصحية «أوباما كير»، لم تمتلك ليندا تأميناً صحياً. وكونها لم تمتلك توصيلة إلى موقف مقطورات سيغ فالي، أنفقت 172 دولاراً على سيارة أجرة. لقد شعرت بالوهن في الأيام القليلة التي تلت، وأخذت إجازات من دون أجر.

كانت كامب فورس تتلاشى، وغادر معظم العاملين فيها قبل عيد الميلاد بقليل لكي يتسنى لهم الاحتفال مع عائلاتهم بعيدة المنال. تطوعت ليندا لكي تبقى لغاية 30 كانون الأول لأنها أرادت أن تكسب أكبر كمية ممكنة من المال، ولم تكن تشعر بالأجواء الاحتفالية. بعد أكثر من أربعة أشهر من ورديات العمل الليلية، شعرت بالملل لدرجة أنها كانت تدخل بحالات شرود لم يقاطعها سوى الآلام التي كانت تنبض من معصمها الأيمن، المعصم الذي كانت يده تحمل الماسح الضوئي. كان هذا العمل متسماً بالتكرار، ولا يحتاج إلى التفكير: ضَع البضائع على الرفوف، وجّه الماسح على الغرض تلو الآخر، اضغط على زناد الماسح، تأكد من سماع الصوت الذي يعني أن ضوء الليزر الأحمر قد وجد هدفه – رمز الباركود – قبل أن تمشي. ما الفائدة التي أضافها هذا العمل بغض النظر عن الأجر؟ كان كل غرضٍ قامت ليندا بمسحه جزءاً صغيراً من السبب الكبير الذي أدى لاكتئابها. سمى بعض العاملين في كامب فورس أنفسهم « قزام بابا نويل». كان هذا الأمر طريقة منهم للاعتزاز بعملهم، بإرسالهم للهدايا، ونشرهم للبهجة. لكن لم تفكر ليندا بهذه الطريقة، ولم تشعر أنها قزم، بل شعرت أنها شخص ذو تأثير صغير يعمل في أكبر آلة بيع في العالم، تركتها هذه التجربة من دون أي مشاعر. وهي تقول: «أردت الانفصال عن عيد الميلاد عندما رأيت كل هذه الخردة». لقد أرسلت الهدايا لأحفادها، لكنها تجاهلت العطلة، وانطفأت مع إطفاء أضواء المستودع وإغلاق أبوابه في عيد الميلاد. أمضت ليندا اليوم وحيدةً، تستريح في عربتها.

مع ذلك، وفي ظل هذا الإجهاد، كان هناكَ شعور بالفخر يبزغ ببطء كالفجر. حققت ليندا هدفاً، وهو النجاة في نصف السنة الأولى لها كعاملة– مخيمة، وأكملت بذلك عملين موسميين – استضافة المخيمات وكامب فورس

– بينما كانت تتأقلم مع حياة التقشف والمليئة بالترحال التي عاشتها في عربة السكن المتنقلة خاصتها. شعرت بالاكتفاء الذاتي والحرية، لكنها كانت البداية فقط. كانت الخطوة التالية إيجاد قبيلة، مجتمع أسماه بعض الرحّل بـ «فانيلي». كان أفضل مكان لإيجاد ذلك هو ملتقى ساكني العربات الشتوي الذي يستمر لمدة أسبوعين، والذي كان سيبدأ قريباً في بلدة كوارتزسايت. حدثت نفسها: «أنا خارجة من هذا المكان، إلى الأمام بأقصى سرعة. فلنذهب!» وانطلقت إلى ولاية أريزونا، وهي جاهزةً لقضاء استراحة في جو دافئ.

بينما هرع بقية العاملين في كامب فورس خارج فيرنلي لاستقبال السنة الجديدة، بقي عامل واحد في الجوار، كان هذا العامل دون ويلر، تنفيذي البرمجيات الثري السابق والذي يستخدم اسماً مستعاراً هنا. كان دون أول عضو قابلته في كامب فورس، وهو راوي القصص الذكي والممتع الذي قضى ساعات طويلة برفقتي على الطريق يُمتعني بقصص عن الحياة. في البداية، كان من المقرر أن تكون آخر وردية عمل له في كامب فورس بتاريخ 21 كانون الأول. تضمنت خطته للمرحلة التي تلي أمازون المرور في بلدة كوراتزسايت، وزيارة بعد الأصدقاء في كولورادو روكيز. لكن حدث شيء غير اعتيادي بدلاً عن ذلك. لا أظن أنني سأشهد شيئاً كهذا خلال مسيرتي التي ستبلغ ثلاث سنوات في إعداد التقارير عن العمال في كامب فورس – عرضت أمازون على دون عملاً ثابتاً بدوام كامل، وعلى مدار السنة. مازحني في الإيميل. «عجباً، أنا في السبعين من عمري، من سيقوم بتوظيفي غيرهم؟». في لغة الاختصارات الخاصة بالشركة، كان دون سيصبح «مساعداً في أمازون». على أرضية المستودع، كان سيصبح ما يسميه عمال كامب فورس والعمال المؤقتون الآخرون – بحسدٍ وبسخرية في بعض الأحيان – «الشارة الزرقاء». نسبةً إلى البطاقات التعريفية الزرقاء التي يحملها العمال الثابتين. في إيميل آخر، طلب مني أن أُبقي اسمه خارج كتاباتي، وقال:

كبيروقراطيين مبتدئين، لا يمكننا التحدث إلى الإعلام حتى تحت وطأة الموت، تقطيع الأوصال أو ما هو أسوأ من ذلك. لذا يقلقني أن الأمر قد اختلف الآن؛ بصفتي عاملاً مخيماً، كان بإمكاني تحمل نتائج تصرف متهوّر لا مبالٍ تجاه المكائد الهائلة للشركات الأميركية. لكن الآن أنا واحدٌ منهم، وأحتاج هذا العمل...

لا يمكنني تحمل عواقب الشهرة. إن ظهرتُ على الإعلام الوطني، وحتى على الشريط الإخباري الجانبي. سيُنهي قسم الموارد البشرية أمري بسهولة وسرعة، وعندها، عندما أقوم بالمجيء إلى المستودع، لن تسمح لي شارتي بالدخول إلى البناء، يدعى هذا الأمر بـ (S C A: أمازون كولد شولدر: جفاء أمازون)

ولا يوجد ملاذ آخر لي لأنني موظف «غبّ الطلب» (موظف يمكن طرده في أي وقت حسب قانون العمل في الولايات المتحدة الأميركية).

أنا آسف بشأن هلعي الواضح، لكن إدارة الموارد البشرية ليسوا أصدقائي، على الرغم من إصرارهم الشديد أنهم كذلك. يمكن التحقق من صحة دورهم عندما يتخلصون من التفاح الفاسد ومثيري الشغب، أنا لا أمتلك شجاعة ناديغدا تولوكونيكوفا (ولا جمالها).[9]

خلال أشهر قليلة، سدد دون ديونه، وذهب إلى طبيب الأسنان بعد تأجيل طويل، واشترى نظارة جديدة، بدأ بالمساهمة في حسابه التقاعدي الإفرادي في بنك روث، وبدأ ادّخار الأموال لشراء دراجة نارية من نوع هارلي.

الفصل السادس
المحفل

لقد نعِمَ هذه المكان بالسلام، وكانت هذه الخيمة عبارةً عن جنةٍ متنقلة، قادرة على اختيار خطوط العرض الخاصة بها حيث يكون الطقس لطيفاً على مدار العام، كملاذٍ يجلب إليه كل من يريد أن يركز على حياته عن طريق ضغطه إلى أصغر مساحةٍ ممكنة، كأعجوبةٍ في ترتيب المساحات الداخلية إضافةً إلى قدرتها على التنقل.

إ. ب. وايت

عند غروب الشمس في كانون الثاني، تظهر رؤيةٌ غريبةٌ في الصحراء أثناء قيادتك غرباً في الطريق آي–10 السريع. حيث تتلألأ آلاف البقع الذهبية عند سفح جبال دوم روك، كما لو كانت القمم محاطة ببركةٍ عاكسة كبيرة. تتلاشى البقع البراقة إلى مجموعةٍ ممتدة من المركبات الترفيهية عن قرب، حيث يلتقط الزجاج الأمامي الخاص بها آخر أشعة ضوء النهار. هذه هي قرية كوارتزسايت في ولاية أريزونا. تظل خاملةً معظم أيام العام، وهي تعتبر مكاناً مأهولاً منعزلاً وتقع بين لوس أنجلوس وفينيكس مع محطتين لشاحنتين حيث ترتفع فيها درجات الحرارة إلى الحدّ الذي يجعلك تهلوس.

يقل عدد سكانها عن أربعة آلاف نسمة في جحيم الصيف، حيث يفوق عدد كرات القش عدد الزوار. لكن في كل شتاء، يتدفق مئات الآلاف من

الرُحل من جميع أنحاء البلاد وكندا بسبب اعتدال درجات الحرارة فيها، وهذا يحول قرية إلى مدينة منبثقة تُسمى المحفل. إن بعض الوافدين هم من محبي الترفيه– أصحاب المعاشات التقاعدية السخية أو متقاعدون محظوظون نجت مدخراتهم من الانهيار المالي الذي حصل في 2008– بينما نجا آخرون عن طريق التشبث بجانب العقد الاجتماعي الواهن. إن المساكن المصطفة على طول الشارع تعكس ظروفهم المعيشية.

تقطر السيارات والعربات وتحوّل إلى عدة أنواعٍ من الملاجئ، بدءاً من أنابيب الهواء المصنوعة من الألمنيوم وحتى صناديق الشحن المجهزة بالأبواب والنوافذ، إلى مقطورات على شكل دمعة بحجم الخيام الصغيرة. قد ترى منزلاً صغيراً بنوافذ زجاجية ناتئة بعض الشيء، أو شاحنة تنقل قارباً بحرياً مخصصاً للسكن حيث يصبح هنا وكأنه شقة مؤقتة. لقد أوقفت العشرات من الحافلات المدرسية، ولا يزال عدد قليل منها أصفر مثل قلم الرصاص الجديد، بينما طليت البقية برسوم تجسد مناظر طبيعية أو رموزاً معينة. وقد تم تحويل بعضها إلى منازل مع أرائك ومواقد خشبية.

ظهر في كوارتزسايت عددٌ قليل من الأعمال التجارية النشطة، بما في ذلك مقهى ومحطة حافلات ومتجر لبيع المثلجات– الذي زها بألوان قوس قزح كي يبدو أنه قد ينتمي إلى كين كيسي في اليوم الأخير مع جرعته من الإسبريسو– وورشة حدادة ذات شعار السندان كتب أسفله جمعية إدارة التدوير بواسطة اليد والمطرقة. هناك أيضاً شاحنات بيك آب ذات مصدات مع كبائن مدمجة في أسرّة الشحن الخاصة بها، وعربات السكن الفاخرة خماسية العجلات مع أطباق الأقمار الصناعية، والسيارات العتيقة المثقلة بالممتلكات لدرجة أن أسفل هيكلها يلامس الأسفلت. قد تجد بعض المركبات نظيفة، ذات طبقة من الكروم المتلألئ في أشعة الشمس. وبعضها الآخر مليءٌ بالصدأ، ذي عوادم داكنة. دوّن على العديد منها مناشدات بالتبرع. وقد طُليت إحدى عربات المحطة الخالية من الوقود وربط إلى سقفها لافتة لكي تُقرأ «ساعد أسرتنا

على الانطلاق» ويظهر عنوان الويب لحملة ساعد على تمويلي. وكُتب على الجهة الخلفية من عربة نقل قديمة بأحرفٍ كبيرة مرتبة «ملجأ للمشردين» و«ليبارك الرب». ثم أدرج أسفلها لائحة بما يُراد: «المتطلبات: وقود، مال، وعربةٌ أكبر».

عربة صغيرة عليها كتابات تطلب المساعدة في مرأب ماكدونالد في كوارتزسايت

إنها لا تساوي شيئاً – لا يمكنك دائماً قياس الظروف الاقتصادية للناس بمجرد النظر إلى عربات سكنهم. فهناك بعض المقطورات المركونة بالقرب من مواقع العمل، على سبيل المثال، تشبه نوعاً من القوارب السياحية التي قد يظن البعض أنها للمصطافين الميسورين. وعندما بدأتُ في زيارة متنزّهات المقطورات السكنية حيث يقيم عمال كامب فورس في الأمازون، تساءلت، ما الذي جاء بهذه اليخوت الفخمة اللامعة المزودة بلواقط أقمار صناعية إلى هنا؟ فعلمت شيئين: الأول، أن عدداً قليلاً من متنزهات المقطورات السكنية كانت أيضاً منازل مؤقتة لعمال حقول النفط ذوي الأجور المرتفعة، والذين كانت لديهم القدرة لصرفها على أشياء فاخرة. الثاني، لا يستطيع كثير من

الأشخاص امتلاك مقطورات سكنٍ متنقلة خاصة بهم مجاناً وبسهولة. كما هو الحال في دورة الديون بالضبط، تكافح من أجل السداد. ولسوء الحظ، يمكن أن تغرق المركبات الترفيهية كتلك المنازل التقليدية.

بالكاد تتحرك أزمة المرور. ومع ذلك، لا يبدو أن أحداً على عجلةٍ من أمره. هناك رحلات متسخة إلى جانب المنازل المتنقلة، عائدةٌ من رحلتها حول الصحراء. يرتدي السائقون الأوشحة ويضعون النظارات الواقية ويبدو كأنهم قد رُشّوا بالسكر الناعم. تتجه عربات نحو الموقف المزدحم، ما يسد ممرات الانعطاف. وينتظر كبار السن الذين يركبون دراجات التنقل عند التقاطعات ويدفع المراهقون كلاباً صغيرة في عربات أطفال حتى تخلو ممرات المشاة. يجلس المراهقون ذوو الشعر المضفّر والعشرينيون الذين يحملون حقائب الظهر المهترئة على الرصيف. تطلق جماعتهم على نفسها العديد من الألقاب الدنيئة، كعصابة الأشرار، الأولاد السيئون، الرُحل، والرينبوز، في إشارة إلى تجمعات عائلة رينبو التي يحضرها الكثيرون. ينطلق بعض الأطفال في رحلاتٍ خارج المدينة – إلى يوما، فينيكس، أو أي مكان، ويحمل آخرون لافتات من الورق المقوى للمطالبة بالنقود. لكنهم لا يعتبرون هذا تسولاً. إنه «رفع لافتة»، أو «احتيال»، أو «استجداء» وهذا ما يفعلونه عندما تنفد أموال الوقود. يرمقهم كثير من كبار السن بنظرات اشمئزاز، لكن الآخرين يجارونهم. تقوم أمينة الصندوق ذات الشعر الأبيض في شركة دولار جنرال بإحضار طردين من ست زجاجات جعة ميلر الأصلية لرجلٍ يرتدي سترةً بنية اللون، ذي شعرٍ أشقر مضفّر؛ وتضحك عندما يمد مازحاً كفاً مليئاً بالحجارة الملونة بدلاً من النقود. تتصاعد حدة النقاش على خط مكتب البريد بين شخص من الشمال وسائقٍ شاب ذي شارب معقوف. هل البشر كائنات روحية ترتقي في هذا الكوكب؟ أم أنهم مجرد حمقى يعيشون في الأرض فساداً؟

يعود الأولاد إلى المعسكرات الصحراوية بحلول المساء. يمررون زجاجات الشراب حول النار، ويعزفون على الغيتارات، ويأكلون السجق

المشوي، ويدخنون السجائر الملفوفة، لإمضاء الوقت.

تمتلئ معظم المطاعم في المدينة بحلول وقت العشاء، والذي يبدأ في وقتٍ متأخر بعد الظهر. يقوم كبار السن في سيلي آلز، مطعم البيتزا الشهير، برقصة ايلكتريك سلايد وهم يستمعون إلى فرقة موسيقية تتضمن إحدى أغانيها راقصات عاريات وتبدأ بـ «إذا كان لدي مليون دولار، كنت سأشتري لك منزلاً». ويغنون الكاريوكي في أيامٍ أخرى. تركب امرأةٌ هرمة ترتدي قبعة حمراء من القش سكوتر التنقل الخاص بها على ساحة الرقص وتغني «انظر من الباب الخلفي» لكريدنس كليرووتر ريفايفل مع تذبذبٍ ثقيلٍ في صوتها. وتشكل دوائر في منتصف الساحة عند عزف الغيتار المنفرد، فينفجر الجمهور في الهتافات.

يعج مطعم الشارع الرئيسي والمغاسل بالزبائن الذين يحضرون للحصول على الطعام وتنظيف ملابسهم وحتى غسل أنفسهم. تبلغ تكلفة الاستحمام في الخلف 7 دولارات وتأتي مع مجموعة من القواعد الواضحة: «عشرون دقيقة فقط» و«يمنع التدخين» و«يمنع صبغ الشعر « و«تمنع الأحذية في الكابينة». يتشاحن بعض عناصر الشرطة مع القليل من جماعة الرينبو الذين يتسكعون بالقرب من الباب الخلفي. يتكلم أحد عملاء مغسلة الملابس عن مذنب سيدمر الكون (وكيف لا يستطيع أوباما فعل أي شيءٍ حيال ذلك). يجلس رجلٌ عجوزٌ أشيب في ساحة انتظار السيارات، وظهره مقابل سياجٍ متصل بسلسلة، يرمي حجراً إلى كلب الصيد الذي يعيده إليه مراراً وتكراراً. «إنه ملتقط صخور!» ثم يقهقه الرجل عندما يراني أشاهد. (البحث عن الأحجار شبه الكريمة في الصحراء – العادة المعروفة بالتقاط الأحجار– هي هواية محلية مفضّلة).

ليس أصحاب المطاعم الوحيدين الذين يتدافعون لكسب المال. ففي كل عام، ينزل البائعون إلى كوارتزسايت، وينشئون كبينات مؤقتة أو يعيدون فتح واجهات المحلات التي أغلقت في غير موسمها، وينشرون لافتات في

جميع أنحاء المدينة. «السيد موتورهوم لديه المقطورات الأفضل في كوارتزسايت» يقول أحد رماة الملاعب، الذي ظهرت صورته على سلسلة من الملصقات، مع ابتسامة مخيفة «إنها ليست سراباً، هذه الصفقات حقيقية»، إعلانات واضحة للمنافسين، عربات بثمنٍ بخس. كتب على لافتة خارج عربة لا ميسا «فطائر محلاة مجانية». ستة أيام في الأسبوع، يصطف كبار السن هناك لتناول وجبةٍ ساخنة عن عربةٍ تسمى المشبك الفضي لتجمع الزبائن، وسط إعلانات متلفزة لمنازل متنقلة لا يستطيع معظمهم شراءها. (إنهم يعاملون الإعلانات مثل طقوس مطبخ الحساء؛ ضجيج خلفية يلزم تجاهله).

هناك العشرات من محطات الإمداد والخدمة للعربات المتنقلة، بدءاً من مواقع التخلص من النفايات إلى بائعي الألواح الشمسية ومحلات تصليح الزجاج الأمامي المتنقلة. يستخدم البعض أسماء ذكية للتميز: أضف المزيد من الوقود، عربة الأصبع الفني لإصلاح العربات. البعض الآخر يقدم نداء أعلى. توجد خيمة يعلوها صليب عملاق ولافتة تقول «الأمل لأمريكا. أمريكا للمسيح» شارتيل لخدمات التفكيك.

يسعى الجميع لاستلام راتبه بسرعة، متأملين اللحاق بالتخفيضات. وكما تعد إحدى اللافتات «نحن نخزن الكثير كي نبيع بالقليل».

وتقول أخرى «يجب أن يُباع كل شيء!». في متاجر البقالة التي تم تجديدها – والمعروفة باسم «تخفيضات السلع الجديدة» – يجد المتبضعون أطعمةً تباع بالتخفيضات، بعد أن تجاوزت تاريخ صلاحية بيعها، في صناديق تالفة وعلبٍ قذرة. خلف الواجهة الوردية الرقيقة لمتجرٍ يُدعى هوس الصفقات، يشترون ثلاثة أقراص مدمجة –مقابل 10 دولارات – وفيتامينات منتهية الصلاحية. كتب أحد المتسوقين عبر الإنترنت: «هذا المكان لا يُعقل بتاتاً. إنه أشبه بنتاج علاقةٍ بين غرفة سكنٍ جامعي، ومتجرٍ مهجور، طلاه بيبتو بيسمول باللون الوردي، وأعطاه عبارة تشير إلى اسم».

لا تقدم كوارتزسايت كثيراً مما يعتبره سكان المدن ثقافةً، ولكن لا بدّ من أن يمر الزوار إلى مكتبة واحة القرّاء عند نهاية الشارع الرئيسي. يمتلك المكتبة فنان عري في السبعين من عمره يدعى بول وينر، ذو الجلد المصقول، ويتجول في الممرات مرتدياً لباسه الداخلي فقط. وقد يرتدي سترةً عندما يكون الجو بارداً. ويستطيع بول تحمل تكاليف استمرار مكتبته لأنها، من الناحية الفنية، ليست هيكلاً دائماً، وهذا يبقي الضرائب منخفضة. ليس لها جدران حقيقية – فقط سقف من القصب فوق لوح إسمنتي. تمتد الأغطية في المسافة بينهما. إن حاويات الشحن والعربة هي ملحقات. وصفتها مجلة تريلر لايف بأنها «أفضل ما في فن العمارة في كوارتزسايت». قام بول بجولة في دور سويت باي في مهنته السابقة، كعازف بيانو عارٍ وراقص معروف بأغنيته «عليهم اللعنة إن لم يستطيعوا تقبُّل مزحة» ولا يزال يقدم العروض بعفوية على بيانو صغير بالقرب من مقدمة المتجر، ليس بعيداً عن قسم كتب البالغين المغطى بشكلٍ خفي. يوجد قسمٌ مسيحيٌ أيضاً، لكنه في الخلف وعادة ما يتعين على بول مساعدة الناس في العثور عليه. قال: «إنهم يتبعون مؤخرتي العارية للوصول إلى الكتاب...».

يذهب أولئك الذين يسعون إلى المزيد من الديانات القديمة إلى الطرف الآخر من الشارع الرئيسي، غرب مكتبة واحة القرّاء، حيث يقام في قمته ذات اللونين البنفسجي والأبيض النداء الأخير في خيم الكهنوت. يعزف قسٌّ مرتحل على الغيتار الكهربائي الذهبي بينما ينشر نور المسيح في اجتماعات الإحياء عند السابعة مساءً. يصيح قائلاً: «سترون هذا الضوء في جميع أنحاء العالم! لا يحده هذا المكان وحسب. إنه ليس في كوارتزسايت وحسب. إنه ليس في أريزونا وحسب. إنه هائل! أكبر وأفضل!». يقترب أبناء الرعية من المنبر ليتم مسحهم بالزيت بعد كل صلاة. يتكلم القس عدة لغات ويمسك أكتافهم، ويرقي المؤمنين – بمن فيهم امرأة واحدة على عكازين – لتسقط بعد أن عرجت بين أذرع الحضور المنتظرين.

يمضي عشرات الآلاف من الرُحل كل عامٍ الشتاء في كوارتزسايت. لا يوجد في القرية سوى فندق واحد صغير، ولكن هناك أكثر من سبعين متنزهاً للعربات المتنقلة التي تحمل أسماء واعدة بالاسترخاء: شمس أريزونا، واحة الصحراء، العطلة المريحة، السراب، الفردوس، الملاذ الشتوي، الطريق الجميل. (والأخير يحمل شعار –»التمتع برويّة»– والذي يلخّص العرض العام للمبيعات). يتقاضون وسطياً 30 دولاراً في الليلة مقابل مكان لركن السيارات على الأسفلت أو الحصى مع تمديداتٍ للمياه، والكهرباء والصرف الصحي، والوصول إلى الحمامات وغرف الغسيل، وأحياناً شبكة إنترنت لاسلكية وكابل تلفاز. يحظر العديد من المتنزهات النزلاء القاصرين – وهذا يعني أولئك الذين «ولدوا بعد حكم أيزنهاور» – وتضع لافتات تحذيرية مكتوبٌ عليها «55+». وعندما كتب مراسل لصحيفة سكوتشمان عن هذا المكان، أطلق عليه اسم «متنزه المقطورات الجوراسي».

مع ذلك، فإن معظم الأشخاص الذين يقيمون في كوارتزسايت لا يعيرون متنزهات العربات أي اهتمام. بل يقيمون اجتماعاً محلياً بدلاً من ذلك في منطقةٍ منخفضة الإيجار – من الأراضي العامة خارج البلدة مباشرةً – مثل الرواد الذين يجتاحون موقع الذهب في اليوم الأخير. («الاندفاع القديم»، كما علّق مراسل سكوتشمان ساخراً). يخيّمون هناك على أرضٍ مختلطة من التراب والحصى تُعرف باسم «الإسمنت الصحراوي». وبدلاً من الدفع مقابل المرافق، فإنهم يستخدمون الألواح الشمسية والمولدات الكهربائية التي تعمل على الوقود، وينقلون المياه الخاصة بهم في أباريق وخزانات. يضحون بوسائل الراحة مقابل المناظر الطبيعية. يركنون بجانب نباتات الصبار العملاقة ذات الأشواك الحادة التي تنمو كثيفاً وطويلاً كأعمدة الهاتف؛ يبدو الصبار من بعيد مثل أعمدة ربطٍ ضخمة بين العربات المتنقلة.

يتجمعون على طول حواف الجروف الصحراوية، باحثين عن بقعٍ ظلٍ متاحة بين نباتات الكريوزوت، المسكيت الشائك، والخشب القاسي، وشجرة

بالو فيردي. بالنسبة إلى الجيران، فهم فئران الحقل، وطيور السمّان، والسحالي، والعقارب، والذئاب المتنقلة التي يتنافس قفزها ليلاً مع أزيز المولدات. (هناك أفاعٍ جرسيةٍ أيضاً، لكن معظمها في سُبات، ولن تتحرك حتى الربيع، عندما تجتاح موجات الحرارة المتلألئة الصحراء، وتتسبب بهروب الزوار البشر). يضع المعسكرون حصائر الترحيب، وعدة الشواء، وكراسي في الحديقة بمجرد استقرارهم؛ مظلات رقيقة، وسقف نخيل اصطناعي، وسجادٌ مقاوم للعوامل الجوية؛ تُرفع الأعلام الملونة ويقيمون سياجاً مخصصاً لربط الكلاب. يبدو المكان وكأنه حفلة شواء في الحديقة الخلفية، مشهدٌ أطلقت عليه ناشيونال جيوغرافيك ذات مرة «أكبر مرأب سيارات في أميركا». وقد حصل على ألقابٍ أخرى أيضاً، بما في ذلك «عطلة العجائز الربيعية» و«استراحة البسطاء الربيعية».

تعد الصحراء المفتوحة منطقة فيدرالية، تخضع لسلطة إدارة الأراضي، وتضم بُقع تخييم مجانية ترحب بالرُحل لمدة تصل إلى أسبوعين في كل زيارة. بعد ذلك، يتعين عليهم الانتقال إلى بقعة أخرى من الصحراء الفيدرالية على بعد خمسة وعشرين ميلاً على الأقل، أو إلى منطقة لا بوزا المخصصة للزوار الذين يرغبون بالإقامة لفترة طويلة، التي تقع جنوب موقع كوارتزسايت على امتداد أحد عشر ألف فدان.

تبلغ تكلفة الإقامة هناك 40 دولاراً لمدة أسبوعين و180 دولاراً لمدة تصل إلى سبعة أشهر. تصاريح التخييم هي عبارة عن ملصقات ملونة بألوان زاهية عليها صور لـطير العداء وندفة ثلجية عملاقة. يستقر الرُحل في أماكنهم بمجرد أن يلصقوا التصاريح على الزجاج الأمامي لعرباتهم. ويتعرف الرُحل في المناطق البعيدة عن كوارتزسايت إلى بعضهم بعضاً خارج الموسم عبر هذه التصاريح وكأنها شارات من جمعية سرية.

أشارت التقارير في الفترة بين كانون الأول وكانون الثاني إلى أن أكثر من أربعين ألف مقطورة تستقر في الصحراء بالقرب من كوارتزسايت.

شاهدهم بيل ألكسندر وهم يأتون ويذهبون إلى ما بدا وكأنه رتل يمتد إلى ما لا نهاية. عمل مخططاً للنشاطات الترفيهية في الهواء الطلق وحارساً للمنتزه الرئيسي في مكتب المسؤول الميداني في منشأة يوما لإدارة الأراضي طيلة سبعة عشر عاماً. وبحسب ما أفاد لايزال يتأثر بأخلاق الجيرة الحسنة للمخيمين. أخبرني بيل: «يمكننا أن نجعل ذلك الرجل الذي يركب دراجة ومعه كلبه ينصب خيمته إلى جوار رجل يملك منزلاً متنقلاً ذا تصميم خاص تبلغ قيمته نصف مليون دولار، وسوف يتعايشان بشكل جيد من دون أي مشاكل. تستند هذه القدرة على التعايش ببساطة إلى رغبتهما في الاستمتاع بالأرض العامة، وحقيقة أن الرجل الذي يركب الدراجة وكذلك الرجل الموجود في المنزل المتنقل ينتميان إليها».

ردّدت ملاحظته أفكار إيريس غولدنبرغ، وهي عاملة في أمازون كامب فورس التقيت بها في فيرنلي. بلغت أيريس الثانية والستين من عمرها وعاشت في عربة من نوع كارسون كاليسبيل بطول عشر أقدام ونصف القدم تشاركتها مع ماديسون، كلبة من سلاسة تشيه تزو؛ طائر الحب بانشو؛ وكاسبار، ببغاء رمادي أفريقي ثرثار سمي على اسم عالم لاهوت من القرن السادس لم يسبق لي أن سمعت به.

كنا محشورين هناك معاً، نتبادل أطراف الحديث، عندما أقدمت على ذكر كوارتزسايت، ولم أمتلك أدنى فكرة عن ذلك المكان. كما الحال مع بيل، قد فُتنت بضبابية الخطوط الطبقية.

إيريس غولدنبيرغ وهي تحمل ببغاءها كاسبر

هذا ليس بالأمر السهل بسبب خلفية أميركا الحديثة، حيث تتزايد أعداد الأحياء المقسمة حسب الدخل، وهذا ما يفصل ويعزل الأثرياء عن الفقراء. تختلف كوارتزسايت عن ذلك؛ أوضحت إيريس: «إنها ساحة مخصصة للعامة. أنت مرحب بك بغض النظر عن أملاكك».

عندما أخبرتني إيريس عن كوارتزسايت للمرة الأولى، تحدثت بحماسة عن المناخ الجاف وكيف يمكنها العيش هناك بكلفة معقولة. بصرف النظر عن التخييم غير المكلف، إنه مكان يسهل الحصول فيه على عمل قصير الأجل– ففي نهاية الأمر تحتاج المدن المؤقتة إلى عمالة مؤقتة – في وقت من السنة عندما تكون فرص العمل في هذا المجال نادرة في معظم أنحاء البلاد. كانت إحدى وظائفها هي غسل الأطباق مقابل 8 دولارات في مطعم ومخبز سويت دارلين –شعاره: «طعام لذيذ بأسعار معقولة»– حيث يبدأ الزبائن بالاصطفاف لتناول وجبات العشاء المبكرة من السمك المقلي ابتداءً من الساعة الرابعة بعد الظهر كل يوم جمعة. في المطبخ، تتعالى أكوام من الأطباق المتسخة باتجاه السقف. عملت إيريس أيضاً في عربة للوجبات السريعة الصينية باسم

روكن ووك؛ عندما ذهبت لزيارتها هناك، ركضت باتجاهي ويداها مغطاتان بفتات البسكويت.

على الرغم من أن الصحراء تنشر الروح المجتمعية، إلا أن البشر يبقون بشراً، فهم يحددون مناطقهم وينقسمون إلى قبائل. يعد استخدام الحجارة لرسم خطوط ملكية مزيفة تقليداً راسخاً، وتُرتب الأحجار أيضاً لتشكل أشكالاً ولرسم الأحرف الأولى من أسماء المستملكين، وهو نوع من العلامة الطبيعية. ينشئ المخيمون أحياء بأسماء مثل «شقة ذئب البراري» و«مخيم روجر الكسول للمشردين الذي تبلغ مساحته نصف فدان» ويعلقون لافتات منزلية الصنع من لوحات خشبية تبدو وكأنها صُنعت في متجر في مدرسة ثانوية على شكل أطباق ورقية كُتبت على عجل، وأُلصقت على أوتاد خشبية.

في ما يتعلق بالعشائر، هناك العشرات من «التجمعات» الصحراوية: تجمعات نوادي العربات التي يتشارك أعضاؤها السمات نفسها. بعض هذه المنظمات قائمة على أساس العمر، تُعرف إحداها باسم بومرز، وهي مخصصة للأعضاء الذين ينتمون إلى جيل ما بعد الحرب، على الرغم من أن كثيراً من مالكي العربات يتناسبون مع هذا الوصف، إلا أنه بالكاد يبدو هادفاً ليكون له ناد خاص. تستهدف المجموعات الأخرى فئة ديموغرافية أصغر قليلاً، بما في ذلك مجموعتا إكس سكابيرز وإن يو أر فيرس، ويكمن التميز في التهجئة غير المنتظمة والأحرف الكبيرة، إنها البساطة في عصر الإنترنت. هناك أقسام إضافية للصيادين روفينغ رودز، متطوعي الإغاثة في حالات الكوارث زا دوفز، المثليين والمثليات راينبو أرفي، الذي لا علاقة له بالأولاد المسافرين المعروفين باسم راينبوز». هناك نوادٍ فردية بما في ذلك شبكة الأفراد المتجولون، سولوز، لونرز أون ويلز، والتي تخضع لقواعد صارمة للغاية. صرّح أحد الأعضاء إلى ذا فيكتوريان أدفوكات وهي إحدى جرائد تكساس «ستُطرد إن تسببتَ بأي إزعاج.» ترشد عقيدة ذا لونيرز الجميع إلى «التصرف كشخص عازب يرغب بالاختلاط» وتنص على أنه «يجب على أعضاء

الجنس الآخر الذين لا تجمعهم رابطة الدم أن لا يشغلوا وحدة التخييم نفسها». حتى أن هناك مجموعة مخصصة لمحبي التعري، وهي منطقة تمتد إلى مسافة خمسة وسبعين فداناً، وتقع على الحافة الجنوبية لمنطقة المقيمين لفترات طويلة، والتي تسمى ذا ماجيك سيركل، محاطة بملصقات كتب عليها «انتباه: قد تصادف بعد هذه النقطة أشخاصاً عراة يأخذون حمامات شمس» وأشار المقيمون في كوارتزسايت على سبيل الدعابة إلى المكان عبر الإنترنت على أنه «مدينة التجاعيد» و«البلدة المترهّلة».

تحتوي المخيمات الأخرى على عربات متشابهة الأنواع. يصطف العديد من عربات، لا–زيد–دايز، كاسيتا، أو مونتانا مشكلة أسراباً من النوع نفسه وسط انتشار فوضوي للعربات عبر الصحراء. إن مواجهة مثل هذه المجموعات يشبه التعثر بالتجمعات السكانية في الضواحي – ذات الأحياء والبيوت المتشابهة– في وسط اللامكان.

***

وصفت الصفحة الاقتصادية من لندن تايمز كوارتزسايت: «إنها واحد من أكثر الأماكن غرابة وخطورة في أميركا». لكن لا تعتبر كوارتزسايت مثالاً على الانحراف عن الطابع الوطني. ستواجه صعوبة كبيرة لتتمكن من العثور على قرية تعتبر أميركية في جوهرها، ذات أصول أميركية مفرطة. لقد هجر السكان الأصليون في الغالب هذه البقعة من الأرض وجاء مكانهم الزوار لابتياع تذاكر من صائدي الأحلام المصنوعة في باكستان والأكواب المكسوة بالخرز التي صُنعت في الصين. لا وجود لفصل الشتاء هناك. يجتمع العرّافون، والروحانيون، والمتسوقون المحبون للتخفيضات بشأن الاعتقاد المشترك بأن أفضل طريقة للهروب من مشاكل الحياة هي ملء خزان الوقود والانطلاق على الطريق. لطالما شكّلت كوارتزسايت الملاذ للمسافرين، والغرباء، والناس الذين يحاولون اكتشاف ذاتهم. وقد أتقنت فن دورة الازدهار والكساد.

تعود جذور القرية إلى العام 1856، عندما بنى المستوطنون البيض حصن تايسون المغلق لصد الهنود. أصبح الحصن فيما بعد محطة توقف للحافلات، ووُضعت آثار مدينة تايسون ويلز في متحف صغير بالقرب من مطعم سيلي آلز للبيتزا. يوجد في المدينة متحفان آخران – أحدهما يضم مجموعة من اللبان جرى جمعها من مختلف أنحاء العالم والآخر يضم تذكارات عسكرية – لكن يبدو أنهما أقل شعبية. في عام 1875، أقامت الفكاهية مارثا سمرهايس في تايسون ويلز طوال الليل ووصفته بأنه «المكان الأكثر كآبة والأقل جاذبية. فاحت منه رائحة كل ما هو ملوث معنوياً وجسدياً».

عند مغادرة العربات، أصبحت المستوطنة مدينة أشباح في عام 1897، تم إحياؤها وسط ازدهار أنشطة التعدين، عندما أعيد فتح مكتب البريد وأطلق على البلدة اسم جديد: كوارتزسايت. كان يفترض باسمها أن يكون كوارتزيت بعد ازدهار أنشطة التعدين. جاء حرف الـ «سين» كخطأ مطبعي وبقي حتى يومنا هذا.

أشهر الشخصيات التاريخية في كوارتزسايت هو ممتطي جمال سوري اسمه حاج علي. دُفن في القرية بعد وفاته عام 1902، اشتهر بلقب «هاي جولي»، وهو تحريف أميركي لاسمه.

جُنّد علي في عام 1856 لصالح فرقة الإبل في الجيش الأميركي، وهي عبارة عن تجربة قصيرة باستخدام تلك الوحوش المشهورة لنقل البضائع في المنطقة الجنوبية الغربية. في مرحلة ما، حملت الإبل البريد من توكسون إلى لوس أنجلوس، وفي العام 1861 ومع بداية الحرب الأهلية تم التخلي عن البرنامج. شاهد قبر الحاج علي عبارة عن هرم مصنوع من المرو والخشب المتحجر ويعلوه جمل عربي مصنوع من الفولاذ؛ يبلغ ارتفاعه قرابة عشر أقدام. كتب على اللوحة الأمامية: «آخر معسكر لـهاي جولي، وُلد في مكان ما في سوريا قرابة العام 1828» و«بقي مساعداً مخلصاً للحكومة الأميركية لأكثر من ثلاثين سنة». يُشاع أن رماد توبسي –أحد جماله– دُفن معه.

بصرف النظر عن بائع الكتب الذي قد يكون عارياً، فإن الـحاج علي هو أشهر مواطن في كوارتزسايت. لا تزال القرية تستخدم جمله كتميمة غير رسمية للحظ تكريماً له. يمر زوار كوارتزسايت بإشارات ترحيب بحجم النصب التذكاري تستعرض جملاً حديدياً مثل ذلك الذي على ضريح علي، وتطلق إحدى مجمعات المقطورات المحلية على نفسها اسم الجمل المحشو. بالقرب من طرف ماين ستريت، تم لحام جنوط عجلات السيارات وغيرها من الحطام معاً في تمثال كبير لجمل. يُحتفل في كوارتزسايت باستعراض سنوي لأيام هاي جولي؛ في أوقات أكثر ازدهاراً في سنوات مختلفة، كان مهرجاناً متكاملاً شمل سباق حلبات التصادم وسباق الإبل. في نادي اليخوت في كوارتزسايت – يوجد بار ومطعم يعمل بالمراهنات غير المشروعة وشعاره «وقت طويل بلا بحر» – اعتاد ابن المالك على ارتداء زي الإبل من الرأس إلى أخمص القدمين والانطلاق إلى حلبة الرقص بينما عزفت فرقة ما «هاي جولي»، وهي أغنية شعبية يؤديها كريستي منسترليس الجديد والتي تصور صاحب الإبل على أنه عامل لا يكل ولا يمل من السفر عبر الصحراء.

لكن تاريخ كوارتزسايت الغريب لم يكن كافياً لابقاء المكان مشهوراً. بحلول أواسط خمسينيات القرن الماضي، تقلص عدد السكان إلى 11 عائلة فقط. ثم، كما تقول القصة، تم إحياؤه بواسطة كومة من الخردة والصخور الجميلة. بدأت أسواق السلع المستعملة المنتشرة هنا في التسعينيات بعد تعطل سيارة عائلية على الطريق السريع. قادت السيارة أم برفقة أربعة أولاد صغار متجهين غرباً ولم تستطيع تحمل تكاليف الإصلاحات لذا باعت ألعاب أطفالها مقابل المال. تبع آخرون خطاها وقاموا ببيع السلع الموجودة في الصناديق الخلفية لسياراتهم الصغيرة، ثم تطور هذا التقليد وتحول إلى بازار مزدهر. في العام 1967، أطلقت مجموعة لتحسين المدن عرضاً للأحجار الكريمة والمعادن عُرف بام باو واو، للاستفادة من تدفق المتسوقين. أصبح هذا الحدث شائعاً للغاية لدرجة أن كثيرين ينسبون إليه الفضل في إعادة كوارتزسايت من حافة الانقراض. بمرور الوقت، انضم إليه العديد من أسواق

السلع المستعملة واجتماعات المبادلة. خلال فصل الشتاء، يشغلون مساحات شاسعة من الصحراء ذات السطوح السوداء والصحراء القاسية والتي تبقى فارغة بقية العام. هناك منتزه غريسوود للبيع، بانوراما المنقبين، الحدث الرئيسي، وراما سايل في تايسون ويلز، يبدو الأمر أشبه ببيع فوضوي للممتلكات، مع طاولات تستعرض جماجم الماشية، وأدوات طهو من الحديد الصلب، وحقائب نسائية مخفية.

في إحدى نقاط البيع هذه، التقيت شارون في تجمع هاي علي للمبادلة في ماين ستريت، وهي امرأة تبلغ من العمر سبعين عاماً. دعاها الجميع بـشيري. استخدمت الأبواب الخشبية القديمة كطاولات تضع عليها القطع التي كانت معروضة للبيع. وشملت هذه القطع: كاتانا، جلد الأيائل، قمصان وفق نمط جزر هاواي، أدوات منزلية لم تعد بحاجة إليها، لأنها انتقلت للعيش في عربة فورد من نوع إي 350. تناثرت بين بضاعتها قصاصات من الورق التي كتب عليها بعض الحكم: «نظراً لارتفاع تكلفة الذخيرة، لا تتوقع سماع طلقة تحذير» و«لسنا طيوراً ثلجية بل نحن رقاقات ثلجية». ينتشر المتسوقون هنا واشترى أحدهم أربعة قمصان مقابل 17 دولاراً فقط. صرّحت شيري: «سيكون العالم مكاناً أفضل إذا ارتدى الجميع قمصان هاواي!». دفع آخر 25 دولاراً مقابل أدوات مائدة بنية وفيروزية اللون كانت قد ابتاعتها شيري مقابل 20 دولاراً في سانتا باربرا. عبرت شيري عن رأيها في ما يتعلق بشراء البضائع المستعلمة: «إنه الإدمان الوحيد الذي يمكنك من استرداد أموالك».

اعتمرت شيري قبعة بيسبول مرصعة بدبابيس ذهبية وفضية لفرس البحر وأشكال أخرى لمخلوقات بحرية، وتدلت من أسفل القبعة ظفيرتا شعرها ذواتا اللون الأشقر.

تجعّدت زوايا عينيها، واكتسبت لون سمار دائم، قد يكون ذلك إرثها من ركوب الأمواج في شاطئ مانهاتن جنوب لوس أنجلوس في الستينيات. لا تزال تحتفظ بصور لها بأحجام صغيرة وكبيرة، مرتدية البكيني وقد سرّحت

شعرها وفق نمط غيدجيت وتميل على لوح تزلج طويل أصفر. في ذلك الوقت، تذكرت أنه كان من الأسهل تدبر أمور المعيشة. عاشت تحت قانون الخمسة وعشرين: «الهامبرغر، السجائر، والغاز. كانت جميعها بخمسة وعشرين سنتاً للرطل، والعلبة، والغالون».

بقيت شيري في العربة منذ أن أُجبرت على بيع منزلها في مينيسوتا. ابتاعت منزلها في العام 1989، وعاشت لمدة ثلاثة وعشرين عاماً في طابق أرضي هناك، حيث قامت بتأجير غرف نوم إضافية لتغطية النفقات. ثم ضُبطت لعدم امتلاكها التصريح المطلوب واضطرت إلى التوقف، ما عنى خسارة المنزل. عبرت عن رأيها قائلة، «البيروقراطيون يزدادون سخافة». خطّطت في الأصل للعيش على الأسهم من بيع المكان. لكن منزلها الذي تم تقييمه بمبلغ 300 ألف دولار في العام 2002 بيع مقابل 140 ألف دولار فقط في أعقاب الانهيار العقاري. لم يتبق لها الكثير بعد دفع أتعاب الرهن العقاري والسمسار، لكنها حاولت الاستفادة من المبلغ المتبقي قدر الإمكان. احتوت عربتها في الأصل على خمسة عشر مقعداً، وأخبرتني أنها كانت تعيش في قصر متحرك له نوافذ متحركة أيضاً في جميع الأنحاء، لذا توقعت أن يتغير المنظر باستمرار. تبلغ قيمة شيك ضمانها الاجتماعي 600 دولار في الشهر، بعد حسم 100 دولار للرعاية الطبية.

قالت ضاحكة: «يبدو أن لديّ ما يكفي لتغطية ثمن الوقود. إنني استقر في مكان واحد إذا لم أمتلك المال الكافي». حشرت كل ملابسها في ثلاثة صناديق بلاستيكية في العربة، واستأجرت وحدة تخزين بقيمة 600 دولار في السنة. قالت إنها كانت تدفع 30 دولاراً شهرياً مقابل مساحتها الخاصة في اجتماعات المبادلة في كوارتزسايت، بالإضافة إلى 50 دولاراً للحصول على تصريح بيع في المدينة. عندما لم تكن في اجتماع المبادلة، باعت المجوهرات على شاطئ سانتا باربرا، حيث تكلف التذكرة الموسمية 100 دولار فقط ولكنها لم تشمل الفترة بين الثانية والسادسة كل يوم، عندما كانت المقاهي

مغلقة. إلى أين كانت تذهب خلال تلك الساعات؟ أجابت بصراحة: «لقد بقيت مختبئة». وأوضحت أن هناك العديد من الأماكن التي يمكنها ركن عربتها فيها بشكل خفي، وأنه على عكس سيارة الهيبي القديمة التي امتلكتها ذات يوم وكانت مغطاة بالملصقات، كان منزلها الحالي أبيض اللون وعادياً، ولا يجذب أي انتباه.

بعد يومين، من لقائنا الأول، اجتمعنا أنا وشيري معاً لتناول العشاء في نادي كوارتزسايت لليخوت. طلبت شيري شطيرة برغر مزدوجة، تناولت قطعة لحم واحد فقط. أما الثانية فقد لفتها بعناية في منديل لتأخذها معها إلى سكيتلز، وهو كلب اعتنت به ويعود إلى بائع متجول آخر اضطر للمغادرة بسرعة في رحلة إلى فينيكس. صنعت سلطة جانبية من صلصة البرجر – خس، طماطم، بصل– علاها مزيج من الكاتشب والمايونيز الذي يشبه صوص ثاوزند آيلاند، شربت زجاجتي جعة وكرعت كوباً من الماء المثلج مع الليمون. عند انتهاء الوجبة، رفضت السماح لي بدفع ثمن حصتها، ثم سكبت الماء المتبقي بحرص في كوب خاص بها صُنع من الستايروفوم. كانت المياه باردة ومنعشة، والثلج رفاهية صغيرة بالنسبة إليها، لأنها لم تستطع إعداده في عربتها.

سرنا عائدتين مرة أخرى باتجاه تجمع هاي علي للمبادلة. عندما سألتها أين تنام في اليل، أجابت أنه يسهل عليها البقاء في عربتها، التي ركنتها على الجانب الآخر من طاولات البيع الخاصة بها. لم يزعجها أحد هناك. أخبرتني أنني مجنونة للعيش في نيويورك، وأنها ممتنة لأنها لم تكن عالقة في «غابة إسمنتية» في مكان ما..

قالت: «إذا كان يمكن للطيور الاختيار بين العيش في المتنزه أو العيش في المدينة، لما لا يمكنني أنا؟ ليس علينا أن نعيش فقط في الأماكن التي يفترض بالناس العيش بها، هذا كل ما في الأمر».

***

لقد حلت أوقات عصيبة على كوارتزسايت كالعديد من المدن الأميركية الصغيرة. ستجد أيضاً كثيراً من الشركات التي فشلت وسط صخب التجارة في ماين ستريت، كأحد المطاعم الذي أغلق نوافذه وأبوابه بواسطة ألواح خشبية، وإحدى محطات الوقود التي تقشر طلاؤها وأصبح لونه باهتاً؛ تبدو المضخات وكأن عقوداً مضت على استعمالها منذ آخر مرة.

يقول القدامى إن كثيراً من عربات الترفيه اعتادت القدوم إلى كوارتزسايت في موسم الذروة، بحيث يستطيع المرء عبور الصحراء عن طريق القفز من سطح عربة إلى آخر، ولكن الأمر لم يعد كذلك، حيث انخفض عدد الحضور كثيراً خلال السنوات الأخيرة. لا أحد يعرف السبب الحقيقي، وفضّل كل شخص نظريةً ما، انطلاقاً من الصراع السياسي المحلي، إلى ازدياد ضرائب الممتلكات والرسوم المفروضة على بائعي البضائع المستعملة، وسعر الصرف بين الولايات المتحدة وكندا، فضلاً عن تقلب أسعار الوقود. ويعتقد آخرون أن آلافاً من زوار معارض في كوارتزسايت يرتادون الآن فعاليات مشابهةً في توكسون. مع ذلك، يجد آخرون أن ما يجري ليس إلا عارضاً من أزمة اقتصادية أكبر، ويعني ذلك أن عدداً أقل من الناس يستطيعون تحمل تكاليف الرحلات الطويلة في منزل متنقل يستهلك كثيراً من الوقود، ناهيك عن الترف في وقت الفراغ.

أرسل فيليب كوشمان، رئيس غرفة التجارة المحلية، بريداً إلكترونياً إليّ ذكر فيه: «أتذكر بصفتي مواطناً في كوارتزسايت وجود أكثر من مليون زائر في ذروة الموسم في أوائل الثمانينيات. أما الآن، فلا يتجاوز عددهم ثلاثمئة ألف شخص. لقد تقبّل الناس، قبل اختراع تكييف الهواء، التخييم في الصحراء فترةً تصل إلى ستة أشهر، أما الآن فهم يسرعون في الرحيل إلى مكان آخر بمجرد أن تصل درجة الحرارة إلى مئة، هذا مثير للسخرية. تتغير تركيبة الزوار السكانية في فصل الشتاء. لقد أحب جيل الحرب العالمية الثانية لعب البينغو،

والرقص، والتنقيب عن الصخور، والتطوع في منظمات خدمة المجتمع العديدة. الآن حل مكانهم جيل طفرة المواليد الذي لاحظنا أنه يحتاج أشياء أكثر كي يفعلها أفراده حتى لا يصيبهم الملل». لا يصدق فيليب أن أفضل أيام كوارتزسايت قد انتهت. اختبر المجتمع في السنوات الأخيرة أحداثاً جديدةً مثل غراند غاذرينغ، وهو احتفال من أجل الأجداد يستمر أربعة أيام، وقف حينها الحضور (وجلسوا) على شكل حرف «كيو» عملاق من أجل تسجيل رقم قياسي عالمي في مجموعة غينيس عن أكبر حرف بشري في العالم.

يعاني كثيرون من زوار كوارتزسايت رغم هذه الجهود، فهم ليسوا ذلك النوع من السياح المسرفين والذين نحتاج إليهم من أجل إحياء المدينة. أعّد القس مايك هوبي – والذي كان راكب دراجة نارية سابقاً – برفقة زوجته ليندا مطبخ حساء موسمياً في كنيسة مشروع إشعياء الثامن والخمسين في جادة ساوث مون ماونتين. تراكمت الفواتير المدفوعة على الزوجين بسبب وقوعهما في أزمة طبية وعدم امتلاكهما تأميناً صحياً، وهذا ما قادهما إلى عالم التشرد مباشرةً، لذلك أسسا الكنيسة في العام 2003 من أجل مساعدة المحرومين. نما البرنامج، وأصبح يقدم الآن آلافاً من الوجبات إلى المسنين والمشردين خلال الفترة بين تشرين الثاني وآذار من كل عام، كما تخليا عن أحد التقاليد «قرع الآذان» كما يدعوه القائمون على الكنائس، حيث لا تقدم الخدمة إلى الضيوف قبل استماعهم إلى موعظة.

أخبرني مايك أن الأشخاص المسنين العابرين يتدفقون على كوارتزسايت لأنها: «قرية المتقاعدين منخفضي الدخل» و«مكان رخيص من أجل الاختباء». سألته: «الاختباء من ماذا؟». فأجابني: «من العار، والفقر، والطقس البارد. إنهم لا يقلقون في الصحراء ولا يخافون التجمد من البرد، ويخبرون أبناءهم أنهم بخير».

ذات ليلة زرت الكنيسة، فوجدت الناس في صف وهم يحملون صواني بلاستيكية من أجل الحصول على المعكرونة بالإضافة إلى مغرفة من

كاشياتوري الدجاج – طبق دجاج إيطالي– إلى جانب السلطة، وخبز الثوم على أقراص الهامبرغر، إضافةً إلى حلوى التفاح المقرمش. جلسوا إلى طاولات طويلة في مستودع خلف الكنيسة يطل على موقف السيارات. كانت الأجواء مبهجةً، حيث تبادل المتقاعدون القصص مع مستقلي قطارات البضائع ومسافري الدراجات الهوائية. رسم على لافتة فوقنا خطوط في هيئة شخص يقترب من مدخل باب وألسنة اللهب الحمراء إلى يساره وغيمة ذهبية إلى يمينه وهو يقول: «الوقت ينفد! ماذا اخترتم؟! إن لم تختاروا المسيح، فقد اخترتم الجحيم».

التقيت على مائدة العشاء ليونارد سكوت، وهو مالك محطة وقود سابق وينادونه سكوتي، سرّح شعره في شكل ذيل حصان رمادي نحيل تحت قبعة سائقي شاحنات مكتوب عليها: «يسوع». إنه يبلغ من العمر ستةً وثلاثين عاماً وكان يسكن في وينيراغو في العام 1995، قال لي: «امتلكت منزلين وشقةً من طابقين كاستثمارات عقارية، ولكنني خسرت إمبراطوريتي عندما انهار الاقتصاد». لقد عمل سكوتي في نبع مياه حارة في تونوباه في أريزونا كي يدعم شيك ضمانه الاجتماعي الشهري البالغ خمسمئة وتسعين دولاراً، وكان يخطط من أجل قطف نوع من الفطر يسمى فطر الغوشنة رفقة أصدقائه في باسيفيك نورثويست، والذي سمع أنه يساوي عشرة دولارات مقابل الأوقية. أضاف أنه يأمل في النهاية أن ينتقل إلى الشاطئ في كاواي ويعيش على ثمار الأشجار.[10]

***

تقع الكنيسة قرب مستودع الطعام في المدينة. قضيت بعض الوقت هناك مع كارول كيلي، وهي أرملة تبلغ الثمانين من العمر وتدير المكان من دون كلل من خلف مكتب فوضوي أسفل حائط ملأته الملصقات الغذائية. قالت مازحةً: «سأموت على هذا الكرسي». وصلت غنيمة غير متوقعة بسبب انقلاب شبه مقطورة على الطريق – صناديق من البازلاء حلوة المذاق،

والخيار، والفاصولياء الخضراء، والمانغو – كانت توزع الغنائم على زوارها في مثل الحماسة التي يمتلكها عامل مزرعة وهو يعقد صفقة بيع كبيرةً. جاء مرةً زوج من أوريغون، وكانا يجنيان قوتهما من عربة. أخبرتني المرأة أن متجر القهوة خاصتها تدهور وهما يعاودان العمل من الصفر الآن. كانت جيدةً في رسم صور الكلاب، ولذلك كانا في طريقهما إلى سوق البضائع المستعملة على أمل بيع شيء من لوحاتها.

ودعتهما كارول بصندوق من الخضار. بدا عليها الإرهاق بعد مغادرتهما، وأخبرتني عن صعوبة تأمين احتياجات سكان كوارتزسايت الدائمين، ناهيك عن زوارها، وقالت: «يجب على قريتنا الصغيرة إطعام كل الجوالين الذين يقصدونها من أجل الشتاء. هذا ليس منصفاً». قاطعها حينها أحد المتطوعين الذين اعتادوا الذهاب إلى هناك وكأنه يحاول تهدئتها.

قال بهدوء: «نحن نطعم الجميع، ونعاملهم سواسيةً».

***

خيّمتُ في الصحراء حول كوارتزسايت ثلاثة فصول شتاء متتالية – بدأ الأمر في خيمة، ثم في عربة – من أجل التعرف إلى الرحّل الذين يعيشون هناك على الدوام. استطعت التواصل مع بعض الأشخاص أنفسهم خلال تلك الرحلات الثلاث، ومن ضمنهم بارب وتشاك ستوت، مُدرّسة الموسيقى ونائب رئيس ماك دونالد السابق الذي أجريت معه مقابلةً من قبل في نيفادا.

في زيارتهما الأولى إلى كوارتزسايت كان تشاك وبارب في مرحلة التعافي من ثلاثة أشهر من المهام في كامب فورس. لقد واجها محنةً ثلاثيةً هناك مثل زملائهما في العمل، ابتداءً من الإرهاق الجسدي (قالت بارب: «لقد ألمتني عضلات لم أكن أحس بها بعد عشر ساعات من الرفع، والانحناء، والقرفصاء، والتمدد). يلي ذلك الجنون بأسلوب كافكا (بعد خمس وأربعين دقيقةً من البحث عن صندوق ذي مساحة تخزين كافية من أجل أحد المنتجات،

وجب على بارب تكرار عبارة: «تنفسي، تنفسي»، من أجل البقاء في وعيها ضمن المستودع الذي أطلقت عليه اسم «أمازو»). أخيراً، يأتي بذل الجهد من أجل البقاء: الإرهاق الناجم عن درجات الحرارة تحت الصفر في عربات السكن المخصصة من أجل المناخات الأكثر دفئاً. (توقفت إمدادات مياه العربة عن العمل بعد تجمد إحدى المصافي وانفجارها، ثم تحطمت مضختها. خسر تشاك يوم عمل من أجل إصلاحها).

بعد كل ذلك، كانا مستعدين من أجل التعرض إلى القليل من أشعة الشمس في أريزونا. ولكن لم يعرفا أين يجب أن ينعزلا في هذه الصحراء الشاسعة، حيث كانت تلك زيارتهما الأولى إلى الـ «كيو». دعاهما زوجان آخران إلى الاجتماع السنوي المسمى حشد طيور ريشة كوارتزسايت، وقررا الذهاب إليه. وجدا هناك أكثر من خمسة وثمانين من عربات بلوبيرد وانديرلودغ الفاخرة مركونة جنباً إلى جنب في دائرة عملاقة في شكل يشبه أشعة الشمس التي رسمها طفل صغير ضمن منطقة أطلق عليها أصحاب العربات اسم «العش». وجهت المصدات الأمامية إلى الداخل تماشياً مع علامات إكس التي حفرت في التراب على فواصل بلغ عرض كل منها خمساً وعشرين قدماً تماماً. بدأ الاجتماع، وأزيلت عبارة «أهلاً إلى كيو» عن لوح أبيض، واستبدل بها جدول الأحداث التي ستقام في هذا الاجتماع انطلاقاً من «مسير السيدات» (كتب عندها: امشِ،...، امشِ،...)، و«تجوال الرجال»، إضافةً إلى جلسة حول النار تحت عنوان «الرماية التكتيكية»، و«عشاء الأضلاع الرئيسي عند راي». (حذرت ملاحظة ساخرة الناس من عدم نسيان سداد ثمن شرائح اللحم، وإلا سيجدون بعد وصولهم إلى العشاء أن راي قد تبرع بشريحتهم إلى المشردين في المدينة!).

سرعان ما علمت أسرة ستوت أن عربة ناشونال سي بريز 1996 خاصتهما تندرج تحت صنف «إس. أو. بي» – وهو اختصار عامي لـ «من صنف

آخر»، حيث لم يسمح لها بالانضمام إلى دائرة الأعضاء، ولذلك توجب عليهما ركنها جانباً، حيث جلسا أمام النار وحيدين في بعض الليالي.

شعرت أسرة ستوت أنه غير مرحّب بها في المسيرة، ولكنهما سرعان ما التقيا مجموعة أكثر ترحيباً، التي تقوم روابطها على العمل الشاق. حصل لمّ شمل غير رسمي لكامب فورس على بقعة من الصحراء تُدعى سكادان واش. جلس تسعة من عمال أمازون وضابط شرطة متقاعد، والذين تبع أحدهم الآخر من أجل الاستمتاع بالوقت، على كراسي التخييم يتذكرون العمل في المستودع أثناء تناولهم اللحم، ورقائق التورتيلا، والجزر الصغير، إضافةً إلى شطائر سلطة البيض منزلية الصنع التي أعدتها بارب. غنوا أغنية «أيام أمازون الاثنا عشر»، وهي محاكاة ساخرة ألّفها العمال عن العطلة التقليدية واستبدلت فيها عبارة «الأمراء يقفزون» بـ «الأبواق تزمر» إشارةً إلى ضوضاء المستودعات، وأضافوا كلمات عن هدايا أخرى بدلاً من كلمات الأغنية الأصلية مثل «بطاقة هوية من أجل حراس الأمن»، و«زوج من القفازات»، و«ثلاثة معاطف برتقالية اللون»، وأخيراً «عشر عضلات مؤلمة». ثم سحبوا الأسماء من إحدى القبعات من أجل منح جوائز الباب – جوائز تمنح إلى الناس الذين حصلوا على تذاكر رابحة من مدخل موقع الفعالية: حملت الجوائز علامة أمازون التجارية وتضمنت سلاسل مفاتيح، وفتاحات الزجاجات، وشرائط تعليق، ووحدات تخزين محمولة. (عرض عليّ مشرط، ولكنني رفضته بأدب، وشرحت أنني سأستقل الطائرة قريباً إلى المنزل). رمى أحدهم طبقاً طائراً أزرق اللون، جرت وراءه سيدني، كلبة المراعي الأسترالية الهجينة الخاصة بأسرة ستوت. تأمل الناس في كيفية مرور الوقت سريعاً في كوارتزسايت، في حين كانوا يعدون الأيام يوماً تلو الآخر حتى نهاية الموسم في أمازون.

لقد استمتع تشاك وبارب في كوارتزسايت وجعلاه بمثابة حج سنوي. كما وجدا وظائف قصيرة الأمد هناك مثل أيريس، والتي تضمنت الحفلات الموسيقية في مهرجانات عربات الترفيه: كجمع القمامة، وحراسة مدخل

حصري من أجل البائعين، والاستخدام في كشك من أجل بيع أدوات صيادي الأسماك، وحوامل المشروبات الرياضية، إضافةً إلى حلي أخرى. أحبت بارب العمل في الكشك أكثر من أي شيء آخر، وقد توجّب عليها أن تجمع بين المرشد في الحفلات الترفيهية ومضيفة شبكة التسوق المنزلية. وزعت عينات من مشروب بلودي ماري وعرضت بذكاء جهازاً من أجل ربط العقد في خيوط صيد الأسماك، وشجع مديرها أسلوبها في العرض. في أحد الأيام جاءت امرأة مسنة وركنت دراجتها الآلية قرب المنضدة من أجل معرفة ما يقدمونه، فخطف مدير بارب مباشرةً كوباً من ليكويد كادي ألتيمات وثبته بواسطة شريط فيلكور – مكون من صفيحتين الأولى ذات قماش ناعم والأخرى تمتلك نتوءات تلتصق بالقماش الناعم – إلى ساقها الاصطناعية، تدخلت بارب وقالت بصوت مرتفع: «سيناسبك هذا في كل مكان وفي أي وقت وعلى أي شيء!.. إن مديري لا يمزح ولا يخدعك».

رأيتُ أسرة ستوت آخر مرة في كوارتزسايت خلال شتائهما الثالث هناك. إنهما من الرحّل المحترفين الآن، وقد أقاما طقساً مبهجاً من أجل الترويح عن النفس، حيث جلسا إلى جوار النار، وأحرقا أوراق إفلاسهما القديمة.

الفصل السابع
ملتقى ساكني العربات

سميت مدينة نيدلز في كاليفورنيا على اسم مجموعة من الأبراج الغرانيتية ذات القمم الحادة التي تشبه الأسنان المثلمة. لقد كتب جون شتاينبيك عن هذا المكان في روايته ذا غاربس أوف وارث – عناقيد الغضب – ووصف عدائيته التي استوحاها من جغرافية المنطقة. توقفت أسرة غواد في مدينة نيدلز من أجل الراحة في معسكر خيام عند ضفة نهر كولورادو، فصادفا مفوض مأمور الشرطة هناك، والذي ناداهما وكشر في وجههما وقال: «أيها الأوكيز – الأوكي مصطلح يطلق على المهاجرين الفقراء من ولاية أوكلاهوما والذين يقصدون كاليفورنيا بحثاً عن العمل – لا نريد أياً منكم أن يستقر هنا». هددته ما غواد بواسطة مقلاة معدنية وردت: «لديك زر من القصدير ومسدس يا سيدي. يبقي أمثالك صوتهم منخفضاً في المكان الذي جئت منه».

توقفت ليندا في نيدلز في طريقها إلى ملتقى ساكني عربات السكن، وقد جاءت مباشرةً من مستودع أمازون في فيرنلي الذي يبعد ثماني ساعات. كانت مرهقةً مثل أسرة غواد، وأملت أن تجد مكاناً تنام فيه هناك، ولكنها فكرت في تجنب تعرضها إلى هجوم من قبل الشرطة، ويعني ذلك الحاجة إلى ركن عربة يبلغ طولها ثماني وعشرين قدماً خلال الليل مجاناً وبعيداً عن الأنظار. لا يوجد متجر وال مارت في نيدلز، وكان ثاني أفضل خيار هو شركة تعمل طوال الليل وذات موقف سيارات نشط. توقفت ليندا على طريق

هيستوريك 66، وتحققت من ساعات عمل متجر باشا في مجمع نيدلز تاون سنتر التجاري الذي يمتلك ساحةً أمامه، واكتشفت أنه يغلق باكراً. ولكنها وجدت نادياً رياضياً يعمل على مدار الساعة ويبعد مئة ياردة عن المتجر. لم يبدُ المكان مزدحماً بشكل خاص، ولكن وجب أن يكون كذلك. ركنت عربتها أمام المدخل، وخلدت إلى النوم في فراشها.

نامت ليندا الليل كله، واستيقظت صباحاً وفي ذهنها مهمة كي تنجزها. لقد انتهت صلاحية تسجيل منزلها المتنقل عندما كانت تعمل في أمازون – «يا لسخافتي!» – واحتاجت إلى تجديده قبل سفرها مرةً أخرى. ولذلك اتبعت التوجيهات على الخريطة إلى قسم المركبات. واعتمدت على جهاز تحديد المواقع العالمي في هاتفها خلال رحلتها، والذي أشار إليها أن تنعطف في شكل حرف يو U، ثم القيادة مسافةً أطول، حتى وصلت إلى نهاية الطريق، كي تجد نفسها في نقطة البداية مجدداً. أعادت الكرة مرةً أخرى ولكن لا جديد. توقفت قرب محطة وقود طلباً للمساعدة، فأشار أحد الموظفين إلى مكتب قرب زاوية المركز التجاري. تذكرت ليندا ضاحكةً: «لقد ركنت عربتي أمامه طوال الليل، ولم ألاحظ وجوده». في غضون فترة قصيرة أعادت تسجيل منزلها المتنقل، وانطلقت في رحلتها جنوباً على الطريق بين الولايات رقم 95. كانت كوارتزسايت على بعد ساعتين وأقل.

كتب في الدعوة على موقع بوب ويلز الإلكتروني: «تعالوا إلى ملتقى ساكني عربات الترفيه، حيث يمكنكم أن تحضروا دروساً وتتعلموا، إضافةً إلى الحصول على كثير من الأصدقاء الرائعين. نحن ساكني العربات المعاصرين نشبه بطريقة ما رجال الجبال في قديم الزمان: نحتاج إلى البقاء وحدنا والانتقال باستمرار، إضافةً إلى إقامة التجمعات أحياناً والتواصل مع أشخاص يفكرون مثلنا ويفهموننا».

بدا هذا رائعاً بالنسبة إلى ليندا التي كانت تتوق إلى رفقة أحدهم. لم تكن النجاة من الأزمة المالية هدفها الوحيد عندما وطأت قدمها عربتها الترفيهية

منذ سبعة أشهر، بل أرادت الانضمام إلى مجتمع أكبر من الأشخاص الذين يرغبون في إعادة بناء حياتهم بشكل جذري بحثاً عن الاكتفاء والحرية. ولكن كانت ورديات العمل الليلية المتأخرة في أمازون شاقةً وينفذها المرء وحيداً. قضت معظم أيام إجازتها في الاستشفاء بدلاً من الاختلاط مع الناس، ولذلك لم يبقَ لديها كثير من الوقت من أجل التواصل مع الرُحل الآخرين. عندما يحل الشتاء القارس على نيفادا – تنخفض حينها درجات الحرارة إلى درجتين تحت الصفر – يجتمع جيرانها في ديزيرت روز؛ كل منهم في عربته الخاصة، دون التسكع في المساحات الخارجية المشتركة. لقد استعدت ليندا من أجل مناخ كوارتزسايت الأكثر اعتدالاً والذي تبلغ الحرارة فيه سبعين درجةً فهرنهايت بعد الظهر.

لم تكن الأوقات الجيدة مضمونةً بالطبع، حيث لم تذهب ليندا أبداً إلى الـ «كيو»، أو تعرفْ طريقها في أرجاء الصحراء الشاسعة التي تحيط بالقرية، أو تمتلك حتى الاتجاهات إلى المخيم، على عكس كثير من المبتدئين الذين أنشأوا صداقات مع أفراد ملتقى ساكني عربات الترفيه افتراضياً عن طريق المشاركة في المحادثات على موقع بوب الإلكتروني، وقد كانت ليندا خارج ذلك الحوار. تعرف ليندا شخصاً وحيداً في ملتقى ساكني عربات الترفيه وهي امرأة تدعى سيلفيان. (كان جين وآش في خضم مغامرات أخرى ولن يصلا قبل مرور أكثر من نصف الفعالية التي ستستمر أسبوعين). إثر ذلك أصبحت ليندا وكأنها طفلة تسير إلى مدرسة جديدة في يومها الدراسي الأول. أرادت لقاء الناس وتعلم أشياء جديدةً. ولكن ماذا لو فشلت في التأقلم؟ سيكون معظم أفراد المجموعة من ساكني العربات الاقتصاديين، فهل سينظرون بلطف إلى عربتها الترفيهية الكبيرة التي تستهلك كثيراً من الوقود؟

ولكنها لم تقضِ كثيراً من وقتها قلقةً رغم ذلك، بل بحثت عن الإرشادات عن طريق الإنترنت، ونشرت على إحدى صفحات الفيسبوك التي تخص التجمع: «مرحباً، سيكون ملتقى ساكني عربات الترفيه القادم الأول بالنسبة

إليّ، هل توجد خريطة من أجل المخيم، وتقويم من أجل الأحداث؟ سأكون ممتنةً حيال أي مساعدة تقدمونها». أجابها أحدهم بجدول زمني، وأرفقت سوانكي ويلز ما بدا أنه قصاصة فنية لخريطة كنز احتوت طريقاً إلى الملتقى مميزاً باللون الأصفر، وفي نهايته علامة «إكس» حمراء إضافةً إلى الكلمتين التاليتين التالية: «نحن هنا».

انطلقت ليندا في رحلة إيجاد ما أملت أن يكون قبيلتها. ترجّح المنزل المتنقل على طول طريق دوم روك إيست الذي ازداد تعرجاً وسوءاً مع الابتعاد عن المدينة، وقد كان كثير التشققات في بعض الأماكن ما دفع السائقين إلى الاستسلام والقيادة على كتف الطريق، وهو جزء من الطريق مخصص من أجل حالات الطوارئ. كان على يمينها سكادان واش، وهي أرض عامة تقدم أربعة عشر يوم تخييم مجانياً فيها. تجمعت صفوف من عربات الترفيه العملاقة على حافة الأرض جاعلةً المكان يبدو وكأنه حفلة أبواب خلفية – نوع من الحفلات التي تجتمع فيه السيارات مقابل بعضها بأبواب خلفية مفتوحة – أكثر من كونه أرضاً بريةً. انتصب حاجز مخطط بالأبيض والبرتقالي على ما تبقى من الإسفلت، فانعطفت ليندا بشكل حاد إلى اليمين كي تتابع رحلتها على طريق ميتشيل ماين، وهو مسار من الحصى مليء بالمطبات ويقود جنوباً عير الغابة الحرشية متجاوزاً الحشود إلى البرية المعزولة. ظهرت بعد ميل ونصف لافتة صفراء على جانب الطريق تفيد: «ملتقى ساكني عربات الترفيه»، إضافةً إلى سهم يشير إلى اليمين. (جعلت اللافتة الوصول إلى موقع المخيم سهلاً خلال النهار، ولكن الأمر سيبدو صعباً على المبتدئين مع حلول الظلام، فقد حاولت سابقاً خلال الشتاء الأول الذي قضيته في كوارتزسايت أن أذهب إلى إحدى الأمسيات، ولكنني ضللت طريقي سريعاً، ثم رأيت نار مخيم بعيدة، فقدت عربتي إليها ظناً مني أنها في الملتقى، كي أجد عشيرة من أفراد رين بوز والبانك يصرخون ويحتسون الشراب ويدخنون الماريجوانا. جلست واستمعت إلى عازف غيتار يردد أغنية كايميا داوسون: «لقد شربت زجاجة

جعة من ماد دوغ على الفطور، وكنت أرى بنسبة خمسين في المئة من قدرتي الطبيعية على الإبصار»).

لافتة تشير إلى الطريق المؤدي إلى ملتقى ساكني عربات الترفيه

قادت ليندا عربتها ببطء في منطقة التخييم، وقد انتشرت خمسون مركبةً في ربوع الصحراء الشاسعة مثل المنازل الصغيرة التي تتشارك الفناء الخلفي الواسع ذاته. رأت ليندا كل أنواع العربات، الصغيرة منها، والمعدلة ذات السقف المرتفع، وعربات المسافرين والبضائع، وذات مصعد الكرسي المتحرك، وتلك التي تجر غرفةً على عجلات. كانت إحداها مُستأجرةً وقد كُتب اسم شركة يو هاول – شركة تأجير من أجل الشاحنات والعربات – على كل بقعة منها (ستعلم ليندا لاحقاً أن هذه العربة منزل مؤقت من أجل شخص يتدرب على العيش في عربات الترفيه، وسافر في الطائرة من شيكاغو إلى فينيكس، ثم استأجرها من أجل التنقل واستخدامها خلال هذه الفعالية). وجدت ليندا وسط العربات بعضاً من مقطورات السفر، وسيارات البيك أب، وعربات الترفيه الكبيرة، فضلاً عن بعض السيارات الرياضية، والأخرى من نمط

سيدان، وهي سيارة تحوي صفين من المقاعد مع صندوق أمامي من أجل المحرك وخلفي من أجل الأمتعة وغيرها، والمجهزة من أجل السكن فيها فترةً طويلةً. شارك أحد راكبي الدراجات في الفعالية بإمكانيات أقل: عجلتان وخيمة. كان هنالك قلة من العربات الأكثر غرابةً، تضمنت خيمةً غجريةً أو عربة فاردو – عربة يجرها حصان استخدمها الغجر سابقاً – مصنوعةً يدوياً من الخشب ومطليةً باللون الأخضر الفاتح. بنيت إحداها على غرار عربات الرومان التقليدية التي جرتها الخيول في القرن التاسع عشر، مع استبدال سيارة الخيول بسيارة بيك آب، وسكن فيها رجل بلغ الخامسة والستين من العمر، والذي عمل في بناء السفن، كما شفي من سرطان ويعيش الآن على شيكات الضمان الاجتماعي التي تبلغ قيمتها أربعمئة وواحداً وسبعين دولاراً.

ركنت ليندا عربتها قرب بعض الأشجار المتشعبة في مكان لا يبعد كثيراً عن حلقة نيران المخيم الكبيرة – مكان التجمع الرئيسي – وسط تلك المستعمرة الفوضوية، وبدأت تستعد من أجل التخييم.

قدم أسطول المساكن المتنقلة عرضاً مذهلاً نشر بوب صوره لاحقاً على موقعه الإلكتروني. وعلّق أحد القراء مذهولاً: «لو نشرت صورك دون تعليق... لاعتقدت أنها من تقرير عن مستقبل الطرقات... حيث يسكن الجميع في عربات نتيجة الانهيار الاقتصادي».

لو بروتشيتي واقفاً في عربته يدوية الصنع

كانت هذه هي المرة الرابعة التي يستضيف فيها بوب ملتقى ساكني عربات الترفيه الشتوي. ليس سهلاً أن تكون مرشداً. لقد أمضى أشهراً يخطط من أجل الملتقى ويدعو الناس إليه، وأصبح عمله ملموساً بشكل أكبر مع بداية الفعالية، حيث وضع لافتة الملتقى على الطريق على أوتاد ثقيلة غرسها جيداً في الأرض كي تصمد في وجه الرياح الصحراوية، كما طبع نسخاً مصورةً من تقويم دوّنت عليه المناسبات الاجتماعيةً وجدول ندوات اعتزم تدريسها. ونصب خيمةً على النمط التيبي – شكلها مخروطي استخدمها الهنود الحمر بكثرة – احتوت على دلو بسعة خمسة غالونات، وأكياس قمامة، ومناديل معطرة، إضافةً إلى مناديل المرحاض – كانت لفتةً جميلةً من أجل القادمين الجدد. كدس بوب الخشب قرب حلقة النار، كما وضع بساطاً أزرق يشبه غطاء النزهة على الأرض وثبت زواياه بواسطة الحجارة، وجعله مكان الكومة المجانية.

اعتاد سكان المنازل المتنقلة التخلص من الأشياء في محاولة من أجل زيادة مساحة المكان المحدودة، وبذلك ستجد أشياء جديدةً في الكومة كل يوم: مثل الأغطية، والكتب، وقبعات القش المكسيكية العريضة، وقطع غيار السيارات، والصنادل، وآلة تصوير رقمية، وأوتاد خيام، وأكواب بلاستيكية، وإصدار يوسميت من مجلة باكباكر، والقمصان، والبناطيل، ووعاء زهور كبير من الصلصال، والذي ملأه مالكه الجديد بمواد قابلة للاشتعال، ووضع أعلاه فتيلاً، واستعمله من أجل تسخين طبق من الحساء. سينتهي أمر ليندا هناك بالبحث عن الكتب، والاستيلاء على كل ما يثير اهتمامها. لقد أرتني أحد الأشياء التي عثرت عليها، وكان كتاباً بغلاف ورقي بعنوان سر رموز ورقة الدولار النقدية: نظرة عن كثب على السحر الخفي ومعنى المال الذي تستخدمه كل يوم.

لم يجن بوب الأرباح من الملتقى، وكان سخياً في ضيافته، واستقطب أناساً تواقين من أجل مشاركة مهاراتهم ومصادرهم وتجاربهم. عرضت أخصائية تجميل مرخّصة أن تقص شعر من يرغب قرب عربة شيفي أسترو حيث سكنت مع زوجها وكلبيهما، وتركت لهم حرية دفع الأجرة أو لا، وأقام أحد ساكني عربات الترفيه منصة احتساء مشروبات مع لافتة من النيون حملت طيور النحام البلاستيكية التي توضع على العشب عادةً وشجرة نخيل مضيئةً، ثم استضاف الحفلات. أبرزت سوانكي فرنها الشمسي – وهو عبارة عن صندوق يحمل مرايا تسمير مخصصة من أجل الطعام – عن طريق صناعة كعك الشوكولا، وفطائر التوت الأزرق للجميع. درس الميكانيكيون المهارات الأساسية في إصلاح السيارات، وصنع النجارون هياكل أسرة ورفوفاً تلائم العربات التي تجهز حديثاً. كما تبرع الأشخاص الذين يمتلكون ألواحاً شمسيةً كبيرةً بفائض الطاقة لديهم عن طريق وضع أسلاك توصيل خارج عرباتهم، حيث يستطيع المارون شحن بطارياتهم عن طريقها. وقدّمت امرأة صماء بكماء صفاً ارتجالياً مستخدمةً لغة الإشارة الأميركية. وعرض أحدهم كيفية إصلاح العجلات، حيث جلب إطاراً قطرياً قديماً مدعماً بالمعدن – الإطار

القطري مكون من ألياف تتقاطع مع بعضها وتسير بشكل مائل – كي يتمرنوا عليه، فثقبوه وسدوا مكان التسريب مراراً وتكراراً، ثم أعطاهم نصائح حول منفاخ الهواء المحمول الذي يعمل بطاقة 12 فولطاً. لقد قدّرت ليندا أهمية هذه المهارات بشكل خاص، وستوظفها لاحقاً عندما تعمل مضيفة مخيم من أجل إنقاذ بعض حراس الغابات في حال انثقب أحد إطارات شاحنة الإطفاء الخاصة بهم.

بوب يحصل على قصة شعره السنوية على يدي أخصائية التجميل كيندال دايمون

تشرق الشمس كل صباح، وتكون ليزا ني سميث، إحدى قاطنات العربات، أول من يستيقظ معها وتشعل نار المخيم الأولى في اليوم، وتغلي قدراً من قهوة رعاة البقر – القهوة المصنوعة على النار مباشرةً – من أجل أي شخص عابر ويحمل كوباً. كان ذلك تقليداً قديماً لدى ليزا، حيث اعتادت النهوض باكراً صباح أيام الأحد في منزلها في ريتشموند، فيرجينيا، وتخمير القهوة في وعاء كهربائي، وفتح باب شقتها كي يعلم الجيران أن القهوة جاهزة كي يحتسونها معاً.

تضمن الملتقى وجبات جماعيةً: مثل الليلة التي يجلب فيها الحضور البطاطا المشوية التي صنعوها بأنفسهم إلى جانب أطباق الحساء والتشيلي – طبق اللحم بالفلفل الحار إضافةً إلى بعض المكونات الأخرى– حيث يضيف الجميع شيئاً إلى أواني الطهو الضخمة، عاد ذلك بالزمن إلى يخنة المشردين التي شاعت خلال فترة الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن العشرين. يشعل أحد الأفراد ناراً كبيرةً في كل يوم بعد الغروب، والتي يهجرها الناس بعد الساعة التاسعة أو العاشرة حيث يبدأ النعاس في شد أجفانهم ويخيم برد المساء.

لقد عم شعور بالفخر نفوس الناس أيضاً، حيث اعتنق كل الذين قابلتهم موقف آل كريستينسن، وهو مدير سابق في فن الإعلان، ويبلغ اثنين وستين عاماً من العمر، والذي فضل أن يدعو نفسه «بلا مأوى» بدلاً من «مشرد». ينتقي آل كلماته بعناية، ويتناسب ذلك مع اختصاصه السابق. لقد أخبرني أنه شهد فشل الفرق الإعلانية على مدى سنوات عديدة، مع تخصيص الفرص القليلة المتبقية من أجل المبدعين الأصغر سناً. أوضح أنه تحول من العمل في «شركة افتراضية» إلى كونه «عاطلاً عن العمل في العالم الحقيقي». لا يستطيع آل تحمل حقيقة أنه محاط بالكثير من الناس، ووصف نفسه بالانعزالي، حيث اضطر إلى ترك ملتقى ساكني العربات وسط إحدى الندوات حول الميزانية من أجل البقاء وحيداً، ولكنه عاد بعد بضعة أيام. فقد أحب الناس في الملتقى، وشعر أن هذا التجمع يمنح حياة الترحال جانباً جيداً فقال: «لقد جعل الملتقى أسلوب الحياة هذا محتملاً ومحترماً، ليس الأمر كالعيش في ذل داخل عربة قرب النهر».

لقد أسعد المرح ليندا أيضاً، حيث أرادت أن تتعلم قدر الإمكان فذهبت إلى الندوات التي تبدأ عند العاشرة من كل صباح تقريباً. كان العديد من القدماء في الملتقى ضليعين في الأمور التي يعلمها بوب – سواء استخلصوها من حياتهم الخاصة، أو حضروا ندوات مطابقةً في العام الفائت، أو قرأوها في

كتابه الذي أسماه كيفية العيش في سيارة، أو عربة، أو عربة ترفيهية... والتخلص من الديون، والسفر واكتشاف الحرية الحقيقية. كان كتاب بوب عملياً إلى حدّ ما، ولكنه تضمن أيضاً بعض التمارين من أجل ساكني العربات الطموحين والتي تشبه فن الأداء – نوع من الفنون الجميلة. جاء فيه: «تدرب في شقتك الخاصة. الخطوة الأولى هي نقل حمامك إلى غرفة نومك والتوقف عن استعمال بقية المنزل. ثانياً، تحديد المقاسات الداخلية التي تحتاج إليها في منزلك المتنقل المستقبلي. إن كنت تتوقع امتلاك ستين قدماً مربعةً على سبيل المثال، فيجب أن تبني نموذجاً مساعداً اعتماداً على ذلك. أحضر بعض الصناديق الكبيرة المصنوعة من الورق المقوى واستعملها من أجل تحديد مساحة من عشر أقدام طولاً وست أقدام عرضاً في زاوية غرفة نومك، وتستطيع عندها الانتقال والعيش في عربتك الصغيرة المصنوعة من الورق المقوّى بدلاً من غرفة نومك». (إلى كل شخص يشعر بالتوتر إزاء إمكانية الانتقال والعيش في عربة، يصعب توقع أن ترفع تجارب الأداء في صندوق في حجم الثلاجة المعنويات).

يستخدم الجميع تقريباً بمن فيهم القدماء مقاعد قابلةً للطي من أجل الجلوس والاستماع. يسجل البعض ملاحظات، وينهمك آخرون في وضع أيديهم في جيوب ستراتهم ذات القبعات أو ارتشاف القهوة الساخنة من أكوابهم من أجل مجابهة برودة نسيم الصباح. حاولت قلة الحفاظ على النظام بين مجموعات كلاب الرُحل التي تجري في كل مكان. لقد كانت من كل صنف ونوع – انطلاقاً من التشيواوا إلى الكونهود – نوع من كلاب الصيد، والكلاب الذئاب اللطيفة – نوع من الكلاب هجينة بين أنثى نوع من الكلاب وذكر الذئب – وتتجول في الأرجاء في فترة الندوات تنبح وتلقي التحية على بعضها على بعض، وتطلب الحلوى، وتشم الرماد في حفرة النار، وتتبول على الشجيرات (وعلى مسجل الصوت خاصتي في إحدى المرات)، وتتشاجر معاً بين الحين والآخر.

لقد كانت إحدى أكثر الندوات حيويةً حول فن التخفي في ركن العربة، والتي استهدفت ساكني العربات في المدن الذين يتهربون من سلطات مكافحة التخييم غالباً. تضمنت الدروس انسجام المرء في محيطه من أجل تجنب «الضربة» المخيفة من ضابط الشرطة الذي يطرق الباب، أو سكير يدق بقوة على الجدران، أو المارة الذين يحدقون من النوافذ ويسألون: «هل يعيش أحد هنا؟». أدرك الجميع معنى «الضربة»، حيث كانت عدوهم المشترك. انتاب سوانكي كوابيس بشأنها، فكتبت مرةً: «أرى عادةً هذا الحلم السريالي الغريب الذي يطرق فيه شخص على العربة. يراودني عادةً عندما لا أكون مرتاحةً بشكل كامل في المكان الذي توقفت أو انعزلت فيه. إنه أمر مزعج جداً، حيث لا يكون أحد في الخارج أبداً، باستثناء بعض الأوقات في الحقيقة، ويترافق ذلك مع الكلام عادة في حال كان الأشخاص من الأمن أو الشرطة».

كانت نصيحة بوب الأولى هي إيجاد منطقة آمنة، وقد أبدى إعجابه الشديد بالمتاجر الكبيرة التي تعمل على مدار الساعة اعتماداً على حياته المهنية في مجال البقالة وخبراته مؤخراً في التخييم في موقف السيارات في مكان عمله. كما أضاف أن ركن السيارات في وال مارت ممنوع ليلاً في بعض المدن، ولكن يمكن أن يجد الرحّل ملاذاً لدى سلاسل تجاريةً كبيرةً أخرى مثل كي مارت، وسام كلوب، وكوستكو، وهوم ديبو، ولوي. وقد يحالفهم الحظ مع المتاجر الصغيرة مثل باس برو، وكابيلا، كما اشتهر كراكر باريل في كونه متعاوناً مع ساكني عربات الترفيه، ويستطيعون تجربة المراكز التجارية والمطاعم التي تعمل ليلاً أيضاً. إن الخطة المثالية في بعض الأحيان هي ركن عربتك بين شركتين؛ حيث ستفترض كل منهما أنك تزور الآخر. وأياً كان المكان الذي ستختاره، فستكون خطوةً ذكيةً أن تقود سيارتك رجوعاً إلى الخلف وتجعل مقدمتها نحو الطريق، وتستطيع بذلك مغادرة المكان سريعاً في حال وقعت مشكلة. يفضل أن تمتلك موقعين من أجل التخييم في حال أقمت في مكان ما فترةً طويلةً نسبياً – ولا سيما في المناطق السكنية – أحدهما نهاري والآخر ليلي، حيث تستخدم الأول من أجل تنفيذ نشاطاتك

المعتادة جميعها، بما فيها أي شيء تحتاج فعله ليلاً استعداداً إلى النوم، ثم تأتي وظيفة الموقع الليلي، الذي ستقصده بعد حلول الظلام بهدف النوم حصراً، وتغادره فور استيقاظك في صباح اليوم التالي. فكّر في استعمال ضوء أمامي أحمر اللون في حال احتجت إلى النور في الموقع الليلي، فهو أقل سطوعاً.

أكد بوب على أهمية وجود قصة جيدة جاهزة. فأنت تزور مريضاً إن ركنت عربتك قرب مستشفىً، وتصلح محركها إن ركنت قرب ورشة تصليح السيارات. كما حث على معرفة كل شخص إمكانياته عندما يتعلق الأمر باختلاق الأعذار، وألا يبالغ أحد في قصته، حيث قال: «إن كنت سيئاً في رواية القصة، حاول ألا تفعل ذلك».

تطرق بوب إلى التمويه أيضاً. ويعني ذلك الحفاظ على عربتك نظيفةً، وإخلاء مقعد الركاب من ملابس الغسيل وغيرها من الفوضى، وتجنب التزيين الذي يلفت الانتباه، من غطاء الهوائي إلى ملصقات النوافذ والمصدات. (أثارت هذه النقطة خلافاً ساخراً، حيث سأل أحد الرحّل: «ماذا عن ملصق «اسألني عن المسيح»؟ ألن يبعد الناس؟». لم يكن الأخير متديناً، وقد وضع مثل هذا الملصق على بيك أب التخييم خاصته على سبيل التجربة والمزاح). اقترح بوب على الناس الذين يعيشون في عربات البضائع محاولة الظهور في هيئة العمال، وذلك عن طريق وضع سترة أمان في مكان مرئي خلف الزجاج الأمامي إضافةً إلى حامل إضافي على السقف. أما أولئك ذوو العربات البيضاء، فيستطيعون البحث عن أعمال محلية تتطلب مركبات تشبه التي لديهم ما يساعدهم في الاندماج معها، مثل السمكرة وخدمات التوصيل. يعني التمويه أيضاً عدم محاولة إخفاء كل شيء دوماً، فإن كانت الستائر منسدلةً على نوافذ عربتك دوماً، سيتساءل الناس عمّا يحدث في الداخل. كما يعني محاولة تجنب لفت الانتباه عند الذهاب إلى الاغتسال في دورة مياه عامة عن طريق التصرف بذكاء. يمكنك على سبيل المثال ارتداء سترة تخص الصيد أو

الخروج في النزهات ذات العديد من الجيوب الصغيرة التي سبق ووضعت فيها أدوات الاستحمام.

أكد بوب أيضاً: ليست الشرطة عدواً على الدوام، إذ تعرض بعض ساكني العربات وعربات الترفيه إلى «الضربة» من قبل شرطيين قلقين أرادوا معرفة إن كانوا بخير فقط. وردت تقارير من إحدى ساكنات العربات في أوهايو عن شرطي لطيف يحضر القهوة من أجلها بعض الأحيان. يمكنك تعلم الكثير عن العادات المحلية في مدينة ما عن طريق البحث فيها مقدماً وسؤال ساكني العربات الآخرين. لعل الخيار الأفضل في الأماكن الودية هو الذهاب إلى مخفر الشرطة مباشرةً، وسرد قصة حظ سيئ، والاستفسار عن الأماكن الأكثر أماناً من أجل ركن العربة ليلاً. وتذكّر: يحتمل جداً أن تعلم الشرطة المحلية بغض النظر عن مهارتك في التسلل. قال بوب: «إن رجال الشرطة أذكياء جداً، حيث سيدركون وجود شيء مريب إن كنت «تمر» باستمرار فقط في المدينة خلال الأشهر الستة الماضية».

أدرك الجميع رغم كل ما سبق أن تجنب الشرطة تماماً هو الخيار الأفضل في معظم الأحيان، وامتلك البعض طرقاً ذكيةً من أجل ذلك. تحدث أحد ساكني العربات عبر الإنترنت عن تثبيته تطبيقاً ماسحاً يخص الشرطة على هاتفه الذكي، ويستطيع بذلك وعن طريق الاستماع إلى قنوات حفظ النظام المحلية معرفة إن كان أحدهم قد أبلغ عنه بتهمة التخييم غير القانوني، فيتمكن من الهروب قبل وصول الشرطة. كما كان لها وظيفة أخرى، وهي تشغيل صوت مذياع الشرطة عالياً مع كل التشويش المعتاد وإخافة مثيري الشغب في حال اقترابهم من العربة التي تبدو حينها كمركبة حفظ نظام سرية.

تحدث بوب في إحدى الندوات المرغوبة حول الميزانية، والتي حملت رسالةً قويةً في صالح منهج الاقتصاد وضد ثقافة الاستهلاك. أخبر بوب الناس أنهم تحت سيطرة اقتصاد السوق، ولكن يستطيعون زيادة مجال حريتهم إلى

حدوده القصوى عن طريق تقليص احتياجاتهم المادية والتقليل من نفقاتهم، وشرح الأمر بقوله: «أنا فقير وفقاً لمعايير المجتمع، ولكنني أعيش بشكل جيد وفقاً لمعايير ساكني العربات». أوصى بوب بتوفير الوقود عن طريق مشاركة العربات قدر الإمكان عند الذهاب إلى المدينة، وتجنب الرحلات غير الضرورية، والتحقق من تطبيقات الهواتف الذكية مثل غاز بادي من أجل العثور على أرخص محطة وقود في المنطقة. حثهم كذلك على توفير مال من أجل الطوارئ – ألفي دولار تقريباً – حتى لو اضطروا إلى جمعه ببطء عن طريق إضافة ثلاثة دولارات إلى ظرف يضعونه جانباً. قال إنه يعرف شخصاً يعيش على مئتين وخمسين دولاراً شهرياً وسأل الجميع: «كم شخصاً هنا يحصل على خمسمئة دولار أو أقل شهرياً؟ وكم منها معفاة من الضرائب؟». أنزلت الأيادي التي ارتفعت إجابةً على السؤال الأول، وأثار ذلك الضحك والهتافات. وقف أحدهم من أجل التقاط صورة وقال متعجباً: «لا يمكن رؤية شيء كهذا في أي مكان آخر في أميركا».

أثار شخص ما موضوع جني المال أثناء السفر، فكشف أحد ساكني العربات أنه يعمل موزعاً جوالاً للأوراق في ألعاب القمار، حيث توظف الكازينوهات موزعي أوراق فترةً قصيرةً من أجل تنظيم البطولات، ويمكن أن يكسب المرء ثلاثين دولاراً مقابل الساعة بسهولة إضافةً إلى طعام مجاني في يوم العمل. حصل الأخير على أحد عشر ألف دولار خلال سبعة أسابيع في فترة عمله الأولى في بطولة العالم للقمار في لاس فيغاس. تبين أن العمر غير مهم من أجل الحصول على الوظيفة؛ فقد صادف موزعي أوراق في السبعين والثمانين من عمرهم. استطاع ذكر سيئتين فقط، الأولى هي وجوب أن يحضر موزعو الأوراق المحتملون فصولاً تدريبيةً والتي تكلف مئات الدولارات في حين قدمتها بعض الكازينوهات مجاناً. والثانية هي الحاجة إلى الاستحمام كل يوم.

أخبرتني ليندا بعد محاضرة الميزانية أنها ليست متأكدةً تماماً من عودتها إلى أمازون، حيث بدت وظيفة موزع الأوراق رائعةً، وجعلتها تستعيد ذكريات عملها كفتاة سجائر ونادلة مشروب في كازينو ريفيرسايد. قالت لي: «يمكنني الحصول على الوظيفة بسهولة، سأذهب كي أعمل موزعة أوراق».

قدمت بعض الندوات الأخرى نصائح حول تركيب الألواح الشمسية، ووظائف الرحّل، وإعداد الطعام في مطبخ محدود، والانعزال في مكان عام. كتب المشاركون أسئلةً صعبةً على قصاصات ورقية خلال جلسة الأسئلة والأجوبة المجهولة، ووضعوها في علبة من القصدير، وقرأها أحد الوسطاء بصوت عالٍ، وجاء فيها: ماذا سأفعل إن رفضت عائلتي أسلوب حياتي؟ ماذا سأفعل لو أردت الخروج في موعد مع أحدهم؟ كما وردت النكتة المعتادة: كيف سأمارس الجنس في عربة؟

شرح بوب أيضاً كيفية الحصول على حسم عند الذهاب إلى طبيب الأسنان في لوس ألغودونيس، وهي مدينة في ولاية باغا كاليفورنيا المكسيكية المسماة «مدينة الضرس» بسبب وجود ثلاثمئة وخمسين طبيب أسنان مجتمعين في بعض الأبنية. تمنت ليندا الذهاب إلى هناك يوماً ما من أجل إصلاح طقم أسنانها العلوية الصناعي والذي سقط من جيب قميصها عندما مدت يدها إلى أسفل كي تربت على كوكو، فداست عليه عن طريق الخطأ. قصد بوب مدينة لوس ألغودونيس للمرة الأولى بعد أن حصل على عرض بقيمة ألفين وخمسمئة دولار من طبيب أسنان في نيفادا، والذي فاق قدرته المادية كثيراً. انتهى به الأمر في الحصول على المعالجة ذاتها مقابل ستمئة دولار. تكلف إجراءات طب الأسنان هناك أقل من نصف ثمنها الأميركي، ولكن الفرق ليس كبيراً دوماً.

بدأ بوب يسافر إلى لوس ألغودونيس كل عام من أجل تنظيف أسنانه مقابل خمسة وعشرين دولاراً، إضافةً إلى مراجعته أطباء العيون والصيدليات نظراً إلى انخفاض الأسعار هناك، فابتاع أدوية ضبط ضغط دمه المرتفع كي

يخزنها – لا يحتاج وصفةً طبيةً من أجل ذلك – فضلاً عن إنفاقه مئة دولار تقريباً من أجل فحص عينيه وشراء نظارة جديدة، وانضممت إليه خلال واحدة من رحلاته السنوية. سافرت مجموعة منا في عربة واحدة مسافة ثمانين ميلاً من سكادان واش قرب كوارتزسايت وصولاً إلى يوما، ثم تابعنا أبعد قليلاً إلى الغرب ناحية مجتمع أندريد الحدودي الصغير. ركنا العربة قرب كازينو امتلكته عشيرة كويتشان المحلية، وعبرنا الحدود سيراً على الأقدام متجاوزين لافتةً كتب عليها «بينفينيدوس – تعني أهلاً وسهلاً في اللغة الإسبانية» بحروف كبيرة، وكتب أسفل منها في حروف أصغر تحذير من أجل الزوار الأميركيين: «يمنع حمل الأسلحة في المكسيك».

قادنا بوب إلى مبنى حديث المظهر وذي واجهة زجاجية ورخامية. علقت لافتة على طول الجانب الأيمن حملت صور مرضى مبتسمين – أغلبهم من البيض – أعلى رسم يصور زراعة الأسنان، ودخلنا عبر الأبواب الأمامية ذات المرايا. ارتدى الطاقم في الداخل ملابس جراحيةً زرقاء ورماديةً أنيقة، ودعونا من أجل الجلوس في غرفة الانتظار التي ملأت الشهادات الجامعية جدرانها. تحمّل بوب ملاحقتي إياه إلى مكتب نظيف حيث حملت صور الأشعة السينية السابقة التي أجراها على شاشة. تركته هناك مستلقياً على كرسي المرضى مع الطبيب الذي حدق إلى فمه المفتوح تحت الضوء الساطع، وخرجت كي أستكشف المدينة.

عدت إلى التجوال مجدداً، ومررت بمنصات عرض التحف ومحلات بيع المشروبات الكحولية، ولافتات من أجل مساعدة ذوي فقدان السمع الجزئي، وصيدلية أعلنت على لوحها الأبيض عن حسم على حبوب الفياغرا وحبوب الحمية. رأيت من واجهة أحد المحلات اثنين من تقنيي الأسنان جالسين على طاولة عمل؛ ارتدى أحدهما قناعاً واقياً بينما يقطع طقم أسنان من الجص بواسطة منشار معادن صغير. جلس سياح ذوو شعر أبيض في الأفنية المرصوفة الخارجية يتناولون تاكو الروبيان، ويحتسون المارغريتا، ويرقصون

أحياناً على وقع موسيقى تعزف أمامهم مباشرةً، وغنى عازف غيتار أغنية «ديسبيرادو»، كما تناهت إلى مسامعي أنغام من أغنية «أوتيل كاليفورنيا» من إحدى الحانات. قرأت لاحقاً منشوراً على مدونة أحد الرحّل والذي زار لوس ألغودونيس بعد ملتقى ساكني العربات وحصل على تنظيف أسنان وصورة أشعة سينية على أنغام أغنيتي «تيك إت تو ذا ليميت – انطلق إلى الحدود القصوى»، و«لين آيز – عينا لين» من مشغل الأغاني خاصته. يبدو أنك لا تستطيع تجاوز بناء واحد دون سماع موسيقى إيغلس.

انتظرنا حتى نهاية ذروة فترة الغداء التي امتدت من الساعة الثانية عشرة إلى الثالثة كي يتسنى لنا الوقوف أكثر من ساعة في الطابور في المحطة الحدودية، ونعود إلى أريزونا.

***

كانت ليندا تستمتع في أول ملتقى ساكني عربات تحضره عندما التقينا للمرة الأولى، وحدث ذلك بعد ندوة الميزانية. سألتها عن رأيها في الفعاليات، فأجابتني وقد تجعدت زوايا عينيها: «يا إلهي، لقد شعرت بالفرح كثيراً في ذلك اليوم للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، وهذا أفضل من كوني سعيدةً. كما ذهبت في رحلة إلى المدينة رفقة سيلفيان، حيث كنا نقود فحسب على الطريق في حافلتها الصغيرة باحثتين عن مكان من أجل رمي القمامة، وشعرت أن أسلوب شيء رائع».

استمرت نوبة المشاعر الجميلة تلك بضعة أيام لاحقاً. أخبرتني أنها كانت في وضعية القتال من أجل النجاة قبل اكتشاف موقع بوب الإلكتروني، وقالت في دهشة: «أنا لا أقاتل الآن من أجل أن أنجو فقط، بل لكي أكون سعيدة، وأنت تودين ذلك في الحقيقة عندما تتقدمين في السن، وليس العيش من يوم إلى آخر فحسب».

بدأت استراحتها بعد أشهر من العمل الشاق في المستودع. أصبحت الأشياء المزعجة في السابق مضحكةً الآن، مثل جامع الفواتير الذي استمر في الاتصال مراراً وتكراراً محاولاً التواصل مع المرأة التي امتلكت رقم هاتف ليندا قبلها. لقد شرحت ليندا هذا الاختلاط بإسهاب سابقاً. ولكن عندما اتصل آخر مرة قالت له: «انتظر سأوصلك بها»، وانفجرت ضاحكةً قبل أن تضع المكالمة عشرين دقيقةً على وضع الانتظار.

انضمت جين وآش إلى ليندا في ملتقى ساكني العربات في منتصف كانون الأول. زارا عائلتهما في كولورادو بعد انتهاء عملهما في أمازون، وتسلقا حافة غراند كانيون الجنوبية، وتجولا بين سفن الأرض في نيو مكسيكو. ووجدتا ليندا وركنتا عربتهما ماناتي خلف عربتها مباشرةً. لم يفاجئهما حصول ليندا على عدد من الأصدقاء خلال الفترة التي استغرقاها في الوصول إلى الملتقى، والذين يجب أن يتعرفا إليهم.

كانت إحداهن تدعى لويس ميدلتون البالغة من العمر واحداً وستين عاماً، والتي خيّمت قريباً في مقطورة ألوها 1965 بطول عشر أقدام وقد أطلقت عليها اسم هوم سويت هوم، عملت لويس مفتشة بناء سابقاً مثل ليندا، وأمضت أكثر من عقدين تعمل في فانكوفر قبل أن تطرد في عام 2010 وسط عملية تخفيض الإنتاج التي لاحت في الأفق، ثم توالت عليها المصائب من كل جنب وصوب، فتوفي والدها، واستملكت سيارتها، وفقدت منزلها بسبب حبس الرهن، وأعلنت إفلاسها. كانت تأمل أن تنتقل إلى العيش مع ابنها في نهاية المطاف، ولكن منزله خضع إلى حبس الرهن أيضاً. بدأت لويس رحلتها في ليل هومي جاهلةً خفايا المستقبل أمامها، أو كما أخبرتني: «الخطة هي عدم وجود خطة».

التقت ليندا المرأة التي ستصبح أعز صديقاتها، ولكنها لم تعلم ذلك حينها. (سيدعوان بعضهما لاحقاً «بي إف إف» – اختصاراً لـ «أعز الأصدقاء إلى الأبد». بدا هذا الكلام في البداية ساخراً فقط، قبل أن تنكشف حقيقته الصادقة

علناً في الوقت المناسب). كانت لافون إليس كاتبةً في السابعة والستين من عمرها، بدأت حياة الترحال منذ شهر تشرين الأول. عملت في مراسلة إذاعية في قناة أي بي سي، قبل أن ينتهي بها المطاف في مينيابوليس. تقلد شخص جديد رئاسة المحطة، واستغنى عن مكتب الأخبار، وترقت لافون إلى منصب في الإدارة، ولكنها لم تفلح فيه، ولذلك أقيلت منه. اعتقدت أنها ستحصل على وظيفة جديدة سريعاً، كي تكتشف في خمسينات عمرها مدى صعوبة سوق العمل، حيث قالت: «لقد كبرت نوعاً ما». انتقلت إلى العيش مع أختها من أجل البحث عن عمل، وتلقت بعدها عرض عمل مؤقت: قراءة تقارير مرور مدتها ثلاثون ثانيةً مقابل عشرة دولارات في الساعة، وقبلت به كي تبدأ عملها في لوس أنجلوس، ثم في سان دييغو. كانت أمورها المادية سيئةً – لا سيما أنها أم عزباء وابنها الأصغر يسكن معها في المنزل – ولكن الأمور سارت بخير حتى أصابها الصداع النصفي. وجدت نفسها مع الوقت حساسةً تجاه المواد الكيميائية والعطور. واستطاعت تجنب الأمر في المنزل عن طريق المنظفات عديمة الرائحة، ولكن معاناتها استمرت في المكتب وجعلت رأسها ينبض ألماً. استقالت في نهاية المطاف، واعتمدت على المساعدة الاجتماعية وإعانة الإعاقة، كما وجدت عملاً بالقطعة – وهو عمل ذو أجر ثابت مقابل كل مهمة ينجزها صاحب العمل – على الإنترنت ولكنها لم تجنِ الكثير منه. انتهى بها الأمر نائمةً على سرير نقال في غرفة المعيشة في منزل ذي غرفة نوم واحدة تشاركت فيه مع ابنها وزوجته. لقد كرهت شعور أنها تحد من حريتهما، ولكن لا سبيل آخر أمامها، ولم تتأقلم مع الأمر. جاء اليوم الذي قرأت فيه كتاباً عن السكن في العربات، والذي منحها فكرةً أخرى.

في صيف العام 2013، استأجرت لافون سيارةً، واستعارت خيمةً من أجل حضور نموذج مصغر عن ملتقى ساكني العربات والذي أقيم قرب فلاغستاف في أريزونا، ووصفته في مدوّنتها تحت عنوان ذا كومبليت فلايك على أنه تجربة تحويلية:

لقد وجدت عائلتي: إنهم مجموعة من الناس المختلفين تماماً رثّي الملابس، أحاطوني بالحب والقبول. ولا أقصد بكلمة المختلفين أنهم فاشلون أو متسربون، بل هم أميركيون أذكياء، وعطوفون، ومجدون، ولا يكترثون للمظاهر. وقد اكتشفوا بعد حياة طويلة من البحث عن الحلم الأميركي أنه ليس سوى خدعة كبيرة.

أحبت لافون الأمر كثيراً إلى درجة أنها ابتاعت عربة مارون جي أم سي سفاري 2003، والتي سبق لها أن سارت على الطرقات مسافة مئة وتسعة وعشرين ألف ميل. حصلت عليها مقابل أربعة آلاف وتسعمئة وخمسة وتسعين دولاراً من ساحة بيع سيارات مستعملة في أل كاجون وأطلقت عليها اسم لافان. أصبحت المقاعد الخلفية أريكتها وسريرها، وأعدت مطبخاً في الخلف. كان هدفها التخلص من الديون، وسداد ثمن العربة، وجمع مبلغ من أجل الطوارئ بينما تقتات من ضمانها الاجتماعي، إضافةً إلى محاولة كتابة مذكرات. انتقلت إلى العيش في لافان، وذهبت كي ترى بوب، حدث ذلك قبل شهرين من لقائها ليندا، كان التغيير صعباً في البداية بوجود الكثير من الليالي الباردة. أعارها بوب كيس نوم دافئ، وأصر أن تحتفظ به وقال لها: «أنا لا أحبه».

تستمتع لافون الآن في ملتقى ساكني العربات الأول لها بصفتها ساكنة عربة كاملة الجهوزية، وساعدها اثنان من أصدقائها الجدد في تركيب لوح شمسي على سقف لافان. وقد تطوعت من أجل قيادة مسيرات المجموعة اليومية التي تبدأ في الثامنة والنصف من كل صباح انطلاقاً من حلقة النار. أعلنت مرةً عن دعوة مفتوحة إلى موقع تخييمها من أجل تناول فطور البيض المخفوق مع البطاطا، فذهبت إلى هناك مباشرةً حاملةً البيض وعصير البرتقال. رمقتني لافون بنظرة متشككة حينها، وأخبرتني أن الناس هناك غير واثقين من مشاعرهم إزاء صحفية تتجول في الأرجاء، إذ كانوا قلقين من أن

أجعلهم في تقريري وكأنهم «مجموعة من المشردين بلا مأوى». نفيت نواياي في فعل ذلك، وتراجعت عن الحديث إلى بعض الحضور في ذلك اليوم.

تطلعت لافون في ذلك الوقت وغيرها من الأشخاص في المخيم إلى حدث يتداخل مع ملتقى ساكني العربات ويجذب كثيراً من الرحّل كل عام: ألعاب كوارتزسايت الرياضية، وإجازاتها ومهرجان عربات الترفيه، أو «الخيمة الكبيرة» كما أطلق عليه الجميع بسبب طول اسمه الزائد. لقد بدا مثل إعلان ضخم بسبب وجود أكثر من مئتي عارض، كرجال التسويق الذين ارتدوا سماعات الرأس وعرضوا خلاطات شركة فيتاميكس والمماسح المطاطية، كما عرض الباعة في الأكشاك أدويةً من أجل مجموعة من الأمراض مرتبةً وفق تسلسلها الألفبائي، من الأرق والتهاب المفاصل، إلى ألم الظهر والثفن – نتوء جانب مفصل إصبع القدم الكبير– والنقرس ومسامير الكاحل، وألم العضلات وألم العصب الوركي. وعد أحد الباعة أن يساعد مالكي المنازل المتنقلة سيئة الأحوال في قراءة العلامات وقال: «نحن السبيل إلى خلاصكم من أقساط عرباتكم الترفيهية». كان هنالك طاولات تخص الجمعية الأميركية للترفيه خلال التعري، وشركة تأمين توين بيكس للعربات الترفيهية، وصندوق البريد الأميركي، وشركة قدّمت «خدمات إعادة توجيه البريد وخدمات المواقع المنزلية» من أجل الرحّل الذين يحتاجون عنواناً في داكوتا الجنوبية سريعاً. قدمت أكشاك أخرى بكرات النسالة– تستخدم من أجل تنظيف القماش من النسالة والخيوط وغيرها– وصمغاً قوياً، وعلامات تعريف من أجل الحيوانات الأليفة، وتدريباً على استخدام الأسلحة النارية، ووسائد تدليك.

كان هنالك جداول توظيف من أجل العمال الجوالين أيضاً. لقد أرسلت شركة أمازون ممثلين من أجل تسجيل الأسماء ومنح مجموعات من أوراق الملاحظات التذكارية تحمل شعار العربة الترفيهية المبتسمة الخاص بكامب فورس. حضر أصحاب الامتياز في خدمة الغابات أيضاً، وشجعوا المارة على التقدم إلى وظائف مضيفي المخيمات، وقابل بعضهم المرشحين وعينوهم في

مواقعهم على الفور، كما امتلك أحد الممثلين بدلات من أجل الموظفين الجدد. سعت شركة موظفين مؤقتين تدعى إكسبريس إمبلويمنت بروفيشنال كي تجند عمالاً من أجل حصاد الشمندر السكري السنوي، أخبرني مندوب التوظيف: «إن كنت تودين التقدم فستبدئين العمل في الموسم القادم، وسنوظفك اليوم».

وضعت لافتة مضاءة خلف إحدى أكثر الطاولات لفتاً للانتباه، وكُتب عليها: «أدفينتشر لاند». وعرضت ثلاث لوحات تحتها صور موظفي مدينة الملاهي الذين اشتعل الشيب في رؤوسهم وهم يرتدون قمصان بولو زرقاء مع بطاقات أسماء بلاستيكية. لقد جلسوا مبتسمين أمام عربة أفعوانية تورنادو، وركبوا في صورة أخرى قاطرةً قديمةً، وتسكعوا في مطعم تشيكن شاك للوجبات السريعة، كما حملوا جوائز كرنفال ضخمةً ورائعةً. تناثرت بين تلك اللقطات وجوه ورقية مبتسمة صفراء، وتميمة على شكل كلب ذي لسان متدل، إضافةً إلى شعارات مطبوعة تقول:

عشْ طفولتك مجدّداً!

لقد حان وقت الاستمتاع أيها العامل الجوال!

التخييم + العمل + الابتسامات = متعة!!

أرسلت شركة أدفينتشر لاند والتي يقع مقرها في ألتونا في أيوا مندوبي توظيف من أجل توظيف ثلاثمئة عامل جوال تقريباً كي يديروا جولات الأفعوانية والألعاب، كما تراوحت امتيازات الأجور من سبعة وربع دولار إلى سبعة ونصف دولار في الساعة. امتلكت مدينة الملاهي موقف منازل متنقلة إلى جوارها وبذلك يتشجع العمال من أجل البقاء فيها، ولكن سيدفعون إزاء ذلك مئةً وستين دولاراً تشمل الفترة الممتدة بين شهري حزيران وأيلول؛ وسيُعفى من ذلك العمال الذين سيبقون حتى انتهاء الموسم.

كان مديرو أدفينتشر لاند يوظفون عمالاً مؤقتين كباراً في السن منذ قرابة عقدين من الزمن، وقد قدروا موقفهم التفاؤلي. قال مدير الموارد البشرية في مدينة الملاهي، غاري بارديكوبر، خلال مقابلة فيديو في عام 2012 مع ورك أمبر نيوز: «أعتقد أن في مقدور بعض العمال الجوالين أن يتحدثوا إلى أعمدة المرافق – أعمدة تحمل أسلاك الهاتف والأسلاك الكهربائية وغيرها – لأنهم موهوبون في الكلام، ونحن نحب الأمر، وكذلك ضيوفنا».

لقد قابلت واحدةً فقط من العاملات الجوالات اللواتي عملن في أدفينتشر لاند؛ تحدثت إليها عندما كانت تعمل في شركة أمازون في فيرنلي. كانت تبلغ الثانية والستين من العمر، ولم تكن إيجابيةً تجاه عملها السابق إذ قالت غاضبةً: «إن الإدارة سيئة جداً، وكذلك الناس، والطقس كان قاسياً. تخيلي طقساً حاراً في آيوا، ناهيك عن سوء المعاملة التي استقال الكثير من زملائي بسببها، وقد غضب أحدهم جداً ودخل سريعاً إلى منزله المتنقل وغادر تاركاً مظلته المثبتة في الخارج على الأرض»، كما صرخت وهي تصف رفرفة المظلة في مهب الرياح.

لم أكن أدري حينها أنني سأحصل في العام القادم على فرصة من أجل التوقف في أدفينتشر لاند خلال رحلة برية عبر البلاد في منتصف شهر تموز. كان الطقس رطباً بعد الظهر، وقد تجاوزت درجة الحرارة التسعين. بدا مظهر الحديقة مثل سراب عديد الألوان بين حقول الذرة الخضراء وبرايري ميادوز. (كان ذلك اسم مجمع كازينو سباقات في الجوار). زُرعت أشجار الدردار في مكان تخييم الموظفين، وغطت الأعلام الأميركية كثيراً من عربات الترفيه التي امتلكت لوائح ترخيص من كل أنحاء البلاد – آيوا، ونبراسكا، ومينيسوتا، وداكوتا الجنوبية– نُصبت خيمتا تخييم في الخلف. بدا أن هناك قلةً من السكان طويلي الأمد بين الرحّل – يمكن تبين ذلك عن طريق الحشائش التي تسلقت عجلات عرباتهم إضافةً إلى نباتات الطماطم الناضجة التي نمت في دلاء سعتها خمسة غالونات.

بدا أن الموظفين منقسمون بالتساوي بين طلاب المدارس الثانوية المحلية وكبار السن. كان هنالك العديد من متاجر بيع التذكارات، وقد باع أحدهم قمصاناً كُتب عليها: «هل تريد التاكو بوت أيها...؟ الخس يتوسل إليك». تحدثت في متجر آخر بائعة تبلغ من العمر ستين عاماً في حماسة حول الزيادة الأخيرة في الأجور والتي فاجأت الجميع. إنهم يتقاضون الآن ثمانية دولارات ونصف دولار في الساعة. توقعت وزملاؤها أنها جاءت إثر ضغط الأقران، حيث بدأت وال مارت تدفع تسعة دولارات مقابل الساعة. وأضافت أنه رغم قدومها إلى هنا من أجل العمل في دوام جزئي، إلا أن الشركة تعاني من نقص في الموظفين ووضعوها في جدول نظام دوام كامل. (فسر ذلك سبب وجود العديد من اللافتات في أرجاء موقف العربات في منتصف الموسم والتي كتب عليها: «باب التوظيف مفتوح! وظيفة صيفية مليئة بالمرح! اعمل مع كل أصدقائك!»). حاولت تغيير الموضوع وسألتها عن أفضل جولة في الأفعوانية فأجابتني مازحةً: «أنا أفضل أن يقلني أحدهم في عربة الغولف إلى المنزل».

قالت بائعة أخرى تبلغ من العمر سبعةً وسبعين عاماً إنها عملت سابقاً مندوبة توظيف في أدفينتشر لاند، وكانت فخورةً أن التقدم في السن وما رافقه من مشاكل صحيةً لم يعرقل زملاءها الموظفين، وأضافت أن لديها الآن زميلاً مقرباً في العمل وقد بلغ الثمانين من عمره. قالت لي: «وضعوا ذات مرة شخصاً في السادسة والثمانين من العمر في قسمي، وقد كان في كرسي متحرك، ولكنه يستطيع العد ولذلك عينوه في الحديقة المائية. وكان لدينا شخص ذو يد واحدة يشرف على كل الجولات». وضع عامل الجولة في أفعوانية تورنادو على عينيه نظارةً ثنائية البؤرة ذات إطار سلكي واعتمر قبعةً عريضة الحواف من القش. أخبرني أن عمره واحداً وثمانين عاماً.

ومع ذلك عجز الموقف الأكثر تفاؤلاً عن درء المأساة، حيث توفي عامل جوال في حادث في أدفينتشر لاند خلال عمله بعد أقل من عام على زيارتي المكان. لقد كان ساعي البريد المتقاعد والقس ستيف بوهر، والذي ناهز

عمره الثامنة والستين، وافته المنية بينما كان يساعد الركاب على النزول من رحلة النهر الهائج حيث بدأ الحزام النقال الذي يحمل الطوافات في العمل قبل أوانه، وكانت إحدى قدميه على الطوف الذي اندفع إلى الأمام، فسقط ستيف عن رصيف الصعود الإسمنتي على الحزام الناقل، وتحطمت جمجمته.

أعادت أدفينتشر لاند افتتاح النهر الهائج في اليوم التالي، وتلقت بعد شهرين على انتهاء التحقيق إشعاراً بالمخالفة من قبل منظمي أماكن العمل في الولاية، ونص الأخير على وجوب إجراء تحسينات في إجراءات السلامة إضافةً إلى دفع غرامة قدرها أربعة آلاف وخمسمئة دولار.

***

تبدلت الأجواء في ملتقى ساكني العربات بعد افتتاح الخيمة الكبيرة، حيث مرت الأيام خاملةً حتى تسارعت حينها. بدأ الكثير من الناس يخرجون في رحلات يومية إلى المدينة، وتردد الكثير من الأسئلة في الأرجاء عندما كانوا في المخيم: إلى أين ستذهب لاحقاً؟ أين سأراك مجدداً؟ هل وجدت عملاً؟ ستنتهي أيام التخييم المجانية الأربعة عشر قريباً، ولا مجال من أجل الاحتيال على ذلك هذا العام، حيث جاء حارس من مكتب إدارة الأراضي في بداية الملتقى من أجل تقديم التصريحات وسجل أرقام لوحات جميع العربات الموجودة، ولذلك سيتعين على المخيمين الابتعاد خمسةً وعشرين ميلاً على الأقل.

كان الشتات – مصطلح يطلق على تهجير الشعوب من أراضيها، والمقصود هنا الافتراق ونهاية المخيم – على وشك أن يبدأ. ستغادر قلّة من الناس وحدهم، في حين اجتمع آخرون في مجموعات سفر صغيرة. كانت شواطئ باجا هي المكان المفضل في بعض السنوات لدى أولئك المحظوظين كفايةً بامتلاكهم جوازات السفر والمال من أجل الوقود. يزور وفد غالباً سلاب سيتي، وهو معسكر قائم على موقع سابق لقاعدة عسكرية قرب بحيرة

سالتون يضم المستوطنين، والفنانين الغرباء، والمهاجرين الموسميين، كما أنه يسمى «المكان الحر الأخير». (سمي أفراد ملتقى ساكني العربات هناك بـ «أصدقاء بوب»)، ويفضل آخرون منطقة يوما. كانت بقعة فورتشن بوند واحدةً من أماكن التخييم المفضلة، والتي تجدها هادئةً في النهار، ولكنها تبدو مثل منطقة توايلايت بعد حلول الظلام، حيث تتوهج الحقول باللون الأخضر الفاتح تحت أضواء طائرات رش المبيدات الساطعة التي كانت تعمل بصوت صاخب ليلاً.

أنزل بوب اللافتة الرسمية بعد انتهاء الملتقى، وجمعت سيلفيان ما بقي من الكومة المجانية ووضعتها في صناديق – تضمن ذلك قبعة القش المكسيكية العريضة التي لم يردها أحد – من أجل متجر توفير محلي. صنعت ليندا القهوة وتناولت فنجاناً معها. أرتني ملفاً كهربائياً جديداً ساعدها أحد أصدقائها في تركيبه، وسيساعدها ذلك على شحن مولد الكهرباء في عربتها الترفيهية عن طريق الطاقة الفائضة من بطارية العربة عندما تقودها. سرعان ما تناهى إلى مسامعنا أن بوب غادر إلى معسكره التالي في إهرينبيرغ. وقد دعا كل من يرغب في اللحاق به إلى هناك. سارعت ليندا إلى إنهاء تخييمها، وعانقت جين وآش مودعةً إياهما. خططت الفتاتان من أجل التجول في ساوثويست حتى بداية عملهما المؤقت الجديد في مزرعة روكينغ سيفين في الجبال شرق وادي ساليانز أو «ريف شتاينبيك» كما أشارت آش إليه. كانت المزرعة جزءاً من شبكة دولية تدعى دبليو دبليو أو أو أف (فرص في كل أنحاء العالم في المزارع العضوية)، والتي عمل أعضاؤها في تجارة الأطعمة، والمنازل، والتدريب على العمل على يد متطوعين أطلقوا على أنفسهم اسم ووفرز. وستتجهان بعد ذلك إلى مسافة أبعد إلى الداخل من أجل الحصول على عملهما المأجور التالي مضيفتي مخيم في غابة سيكويا الوطنية.

استقلت ليندا الطريق السريع 10 غرباً ناحية نهر كولورادو، وخرجت عنه قبيل حدود كاليفورنيا قرب محطة فلاينغ جاي للشاحنات. انعطفت إلى طريق

جانبي، وتابعت متجاوزةً لافتة كتب عليها «الطريق مسدودة». كان العالم هناك مقفراً وخالياً على مد النظر، حيث الأرض مغطاة بالحصى، والنباتات نادرة؛ لقد كانت الصحراء حول كوارتزسايت أشبه بجنة عدن مقارنة بهذا المكان. اصطفت بعيداً عن المدخل غير المعبد عربات الترفيه القديمة والتي أكل الطقس عليها وشرب. أشارت الإطارات المثقوبة والحاجة الترميمية إلى مضي سنوات على قيادة تلك العربات إلى هناك دون أن تغادر مكانها، واستقر سكانها فيها على مدار العام. عملياً، كان لدى دائرة إدارة الأراضي حد أربعة عشر يوماً من أجل التخييم هناك. ولكن تجاهل الزوار والدوريات هذه القاعدة – والمنطقة على وجه العموم – إلى حد كبير، ربما يعود ذلك إلى عدم جاذبيتها الواضحة، حيث لم يرغب كثير من المخيمين في المكوث فيها، وكان ذلك في صالح القلة الراغبة في العزلة. لم أجد خلال عشرات الزيارات إلى هنا أي حارس أو مجموعة يطلب منها المغادرة.

ركنت العربات في أماكن متباعدةً أكثر منها في ملتقى ساكني العربات، وتعافى الانطوائيون هنا من صخب الاختلاط الاجتماعي الذي استمر أسبوعين، في حين ظل بعضهم يلتقون من أجل احتساء القهوة الصباحية معاً. وجدت، بعد إحدى المجموعات، سيلفيان تقضي وقتها مع قطتها ليلي في عربتها وتقرأ كتاباً يدعى هامليت ميل؛ طاحونة هامليت: مقالة تحقق في أصول المعرفة الإنسانية ونقلها عبر الخرافات.

سألتها: «كم شخصاً تعتقدين أنه هنا؟».

أجابتني مبتهجةً: «لا أحد يدري! وهذا بيت القصيد، نحن هنا في أميركا المنسية». انتشر المخيمون فوق منطقة واسعة، وكانوا يرتادون المكان بانتظام، ولكن بدا أن عددهم خمسة عشر تقريباً. صادفت لافون أيضاً، وقد كانت مرتاحةً ودافئةً أكثر من حالها في الملتقى. ضحكت وتجاهلت فكرتها السابقة حول إمكانية أن يصف أحد من الخارج المجموعة على أنها «مجموعة من الرحّل المشردين».

سألت متأملةً: «ما هو الشيء العاطفي حول التشرد؟ يعتبرني بعض الناس مشردةً، ولكنني لا أجد نفسي كذلك، فأنا أمتلك مأوى»، أخبرتني في الوقت ذاته عن الذنب الذي يتملكها إزاء وضع نفسها في مجموعة مختلفة، كما لو أن ذلك يعزز وصمة العار الاجتماعي الأكبر.

لقد توافقت ليندا مع لافون كثيراً حتى الآن إلى درجة أنهما قررتا محاولة العمل معاً. ستبدأ ليندا عملها التالي في الربيع كمضيفة مخيم في شيروين كريك كامبغراوند في مدينة ماموث لايكس. كانت الخيمة الكبيرة قائمةً في تلك الأثناء وفيها طاولة جلس عليها مندوبو التوظيف من إدارة أراضي كاليفورنيا. عملت لافون بنصيحة ليندا، وخططت من أجل التقدم إلى عمل هناك رفقة واحدة من الرُحل تبحث عن عمل أيضاً وتدعى تريش هاي، والبالغة من العمر تسعةً وخمسين عاماً وتعيش في سيارة نيسان سينترا.

جلست وليندا بعد ظهر ذلك اليوم وهي تسخن مياه غسيل الصحون في غلاية شاي. أخبرتني بضرورة توافر الماء الساخن لديها عند حاجتها، ولكن شخصاً في نيفادا باعها بطاريةً من النوع الخاطئ – تلك التي تعمل مع بدء تشغيل المحرك بدلاً من بطارية الدورة العميقة – من أجل تشغيل المولد الكهربائي في عربتها، وعنى ذلك عدم توافر الطاقة اللازمة من أجل ضخ المياه من الخزان تحت الأريكة إلى المغسلة. لقد كانت سعيدةً بوجودها في إهرينبيرغ، ولكنها لم تشأ البقاء طويلاً مثل لافون التي قررت أن تتبع بوب ومن تبقى من طاقم ملتقى ساكني العربات. كان بوب في تلك الأثناء يسير وفقاً لنظامه المعتاد؛ البقاء في إهرينبيرغ حتى اشتداد الحرارة ونهوض الأفاعي الجرسية من سباتها، ثم الانتقال إلى المرتفعات الأعلى في كوتونوود وفلاغستاف. كان لدى ليندا بعض المهام التي يتعين عليها تنفيذها قبل بدء وظيفتها التالية، وتضمن ذلك البحث عن أرض وتفريغ وحدة تخزين قديمة، ولذلك قالت وداعاً في وقت باكر.

نشرت لافون بعد مغادرتها صورة ليندا على مدوّنتها وكتبت:

لقد ماتت صديقة جديدة، وها قد بدأت دورة حزني مجدداً. إنهم يغادرون واحداً تلو الآخر إلى أماكن أخرى. أنا متأكدة من رؤيتهم في وقت لاحق، ولكن هذا الحزن نتيجة حتمية بسبب حياة الترحال. يأتي الناس إلى الحياة ويغادرونها، ولا يمكنك أن تتمسك بهم إلى الأبد.

هذه ليندا ماي، أم الجميع الثانية، التي أطعمتنا الخبز الفرنسي، ورسمت الابتسامة على وجوهنا. لا يوجد أحد لا يحب ليندا. لقد غادرت من أجل البحث عن قطعة أرض حيث خططت أن تبني منزل سفينة أرض دائمةً خارج الشبكة، ووعدتها أنني سأساعدها في ذلك (كوضع التراب في الكثير من الإطارات)، وبذلك أستطيع قضاء الوقت معها مرةً أخرى.

***

قطعت ليندا بعد مغادرتها أصدقاءها مسافة ثلاثمئة وثمانين ميلاً متجهةً إلى الجنوب الشرقي ناحية صحراء مقاطعة كوتشيس في أريزونا، حيث يوجد تساهل في قوانين البناء وأراض رخيصة الثمن. كانت تأمل أن تجد بضعة فدادين من أجل بناء سفينة الأرض الخاصة بها، ولكن خاب أملها بعد ساعات من استكشاف المنطقة التي كانت معزولةً تماماً، حيث لم يجذبها أسلوب حياة الناسك ولا سيما بعد ذروة دفء مشاعر الاجتماع والترابط في ملتقى ساكني العربات. فكرت في نفسها: «لن يزورني أحد هنا، من الأفضل أن أشتري أرضاً في مكان تستطيع العائلة القدوم إليه وإقامة التجمعات، لأن هذا هو بيت القصيد من الأمر كله». قضت ليندا ليلةً واحدةً في موقف سيارات قرب الحدود المكسيكية، ثم عادت إلى الطريق.

بعد ذلك، ذهبت ليندا من أجل إخلاء وحدة تخزين في ضواحي فينيكس استأجرتها لأربع سنوات. (سبق لها أن أخبرتني: «أعتقد أنني أود رمي عود ثقاب هناك فقط»). وضعت المحتويات في شاحنة نقل، وذهبت إلى أرض أحد أصدقائها والتي تبلغ مساحتها خمسة فدادين في نيو ريفير في أريزونا. وضعت

مجموعةً من التذكارات جانباً – والتي تضمنت لوحة ألوان مائية من أجل رياض الأطفال عن مخلوق يشبه القطة وقد أعطاها إياها حفيدها جوليان، وبطاقة عيد ميلاد من ابنتها الصغرى فاليري وعليه صورة فتاة جذابة ترتدي زي سباحة أخضر من قطعتين وقالت لها ساخرةً: «ما زلت أنيقةً!». ولكن وجب عليها التخلص من كل شيء آخر: مشغل الأسطوانات القديم، والمصابيح ذات الألوان المتناسقة، وأكوام من أواني الطهو. فأقامت ساحة مبيعات. حصلت في نهاية الأسبوع على تسعة وتسعين دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً بعد حسم أجور شحن كل شيء إلى نيو ريفر، وأقسمت في نفسها ألا تستأجر وحدة تخزين مجدداً. بعد فترة قصيرة، أرسلت إليّ اقتباساً رأته على الإنترنت ووجدته شاعرياً: «تسبب الفترات الصعبة الإحباط حتماً في الوقت الذي تقطع فيه كل قيد يؤخرك عن حريتك».

هاجرت في تلك الأثناء عشيرة ساكني العربات من إهرينبيرغ حيث أصبحت حرارة الجو لا تُطاق، إلى غابة بريسكوت الوطنية قرب كوتونوود والتي كانت أعلى من إهرينبيرغ بثلاثة آلاف متر، وأبرد بعشرة درجات تقريباً. انتشر ساكنو العربات هناك، فتوقف البعض في العراء على تلة يمكن منها رؤية الأراضي المنبسطة التي تداعبها الشمس، في حين خيّم الآخرون في مكان أكثر خفيةً وأقل ارتفاعاً بين الأشجار درءاً للرياح. كان هناك بوب، ولافون، وسيلفيان، مع بعض أصدقاء ليندا الجدد، والذين من بينهم أتلي بومر، سائق باص سابق والبالغ من العمر أربعةً وثلاثين عاماً، لقد سكن في عربة تشيفي أسترو والتي تحمل اسم دونوفان نسبةً إلى مطرب في ستينيات القرن العشرين. وسمير علي، ذو الخمسة وستين ربيعاً، والذي خسر مزرعة الماعز الحلال خاصته وسط ارتفاع أسعار التبن بسبب الجفاف الغربي، ويعيش الآن في عربة مع السيد بيكو، كلبه التشيواوا. (لقد كان سمير مسلماً ملتزماً، وحمل إيمانه معه عن طريق تطبيق على هاتف الآيفون خاصته والذي ينبهه إلى أوقات الصلوات الخمس في كل يوم، كما يوفر بوصلةً تشير إلى

مكة حيث استخدمها من أجل ركن عربته في الاتجاه المناسب كي يصلي. قال متعجباً: «يوجد تطبيق من أجل كل شيء»).

وصل قطار الزمن إلى أواخر شهر آذار مع نهاية ساحة البيع. ذهبت ليندا إلى كوتونوود، ووصلت في الوقت المناسب من أجل حفلة البيتزا. تمكن بوب من إطعام أحد عشر شخصاً بالفطائر التي ابتاعها مقابل ثمانية وعشرين دولاراً من ليتل سيزرز. كان ختام الوجبة نزهةً تحت السماء التي صبغها غروب الشمس باللون الوردي. شكلت النساء القسم الأكبر من مجموعة الرحّل – سبع نسوة، وثلاثة رجال، وصبي مراهق – وقد لاحظ بوب ذلك لاحقاً، وبدا أمراً جيداً في ظل ثقافة أحبطت استقلال المرأة زمناً طويلاً.

جاء أحد حراس الغابة إلى المخيم في اليوم التالي، وتساءل في حيرة إن كانت المجموعة عبارةً عن ناد – أجاب سمير: «أعتقد أننا كذلك!» – وسأل عن طول إقامتهم. فكذب عليه بوب كذبةً بيضاء، وهي أنهم أمضوا أربعة أيام فقط (أكثر من أسبوعين في الحقيقة). سجل الحارس أرقام لوحات سياراتهم وغادر، وبدأ بذلك العد التنازلي حتى نهاية اليوم الرابع عشر من التخييم المجاني، ويجب على العشيرة أن تقرر مكان التجوال التالي. اجتمعت الآراء على غابة كايباب الوطنية قرب فلاغستاف والواقعة على ارتفاع سبعة آلاف قدم، والطقس أكثر برودةً هناك. كان سقف عربة ليندا في حالة يرثى لها في تلك الأثناء، وتأملت أن تستطيع ترقيعها وإغلاقها بإحكام قبل الانطلاق، لأن المطاط السائل يجف أسرع في درجات الحرارة الأكثر دفئاً. اعتلى السقف عضو آخر يدعى واين من عشيرة الملتقى، وقد كان رساماً محترفاً، ودهن المادة العازلة بواسطة بكرة دهان ذات مقبض طويل، وأنجزت المهمة في الوقت المناسب.

توقفوا في فلاغستاف في بستان من أشجار الصنوبر الطويلة. نشرت ليندا صوراً على فيسبوك كي يتمكن الأصدقاء والعائلة من رؤيتها، وكتبت: «أنا والكلاب نحب المكان هنا. كم ستدفعون مقابل ساحة كهذه؟ إنها مجانية».

شكرت ليندا واين على مساعدته إياها عن طريق إعداد العشاء من أجله: شريحة لحم سالزبوري، وبطاطا مهروسة، ومرق اللحم، وقدمت أطباقها في أوان خزفية من كنساس سيتي رايلرود، والتي تعود إلى ثلاثينيات القرن العشرين، حيث ارتأت أن هذه الأطباق متينة كفايةً كي تصمد خلال ترجج عربتها الترفيهية على الطريق، ولا سيما أنها بقيت ثلاثة أرباع قرن تقريباً دون أن تتشظّى. قضت ليندا وقتها أيضاً رفقة لوري هيكس، وهي أم عزباء تعاني من حالة طبية قلبية وتعيش مع ابنها روسيل البالغ من العمر ثلاثة عشر ربيعاً، وكلبهما كايلي في عربة تشيفي تاهو الزرقاء 1995 المسماة «بايب» على اسم ثور بول بونيان، واكتشفتا محيطهما الجديد معاً. عثر روسيل وكايلي على جمجمة أيل عملاقة خلال زيارة موقع تخييم ليندا، والتي كانت في تلك الأثناء تعطي لوري نسخةً من كتاب رحلات مع تشارلي الذي كانت لوري تقرأه في شغف. انتشرت بين الرحّل حكاية رحلات جون شتاينبيك على الطريق في بيك آب التخييم خاصته رفقة كلبه الفرنسي، وقد تناقلوا النسخ ذات الصفحات المطوية في ما بينهم.[11]

بعد بضعة أيام، اضطرت ليندا إلى الانتقال مرةً أخرى، فقد اقترب كثيراً موعد بدء وظيفتها التالية مضيفة مخيم في ماموث ليكس في سييرا الشرقية. في اليوم الأول، قادت عربتها عشر ساعات وتوقفت ليلاً في تيكساكو في تونوباه، نيفادا. أخذت ليندا الكلاب في نزهة على الأقدام، وقد تعرض كوكو إلى نوبة مفاجئة بعد العودة إلى العربة، حيث تيبس ونبح بصوت عالٍ، ثم سقط منهكاً وتوقف عن التنفس. وضعت ليندا المذعورة فمها على فك الكلب ونفخت بعمق، وسرعان ما استعاد كوكو وعيه، كان هامداً ولكنه يتنفس. وضعت ليندا كيساً من الخضروات المجمدة على ظهر الكلب – لقد سمعتْ أن استعمال كيس من الثلج يساعد على التقليل من نوبات الكلاب، واتصلت بابنتها. لقد درست أدورا الزيوت العطرية وأوصت والدتها أن تستخدم اللبان، فوضعت ليندا قليلاً منه على قوائم كوكو. استرخت عضلات الكلب، وسرعان ما بدأت ليندا تشخر، فقد بقيت ليندا مستيقظةً لساعات وهي تنظر إلى ارتفاع

صدرها بهدوء وانخفاضه. بدا كوكو في حالة طبيعية في صباح اليوم التالي. وبدت ليندا مصدومةً على طريق الأميال المئة والخمسين الأخيرة إلى ماموث.

كان مخيم شيرون كريك هادئاً عندما وصلت ليندا في منتصف شهر نيسان، حيث اقتصر زوارها على الغزلان، وتدلت كتل جليدية بطول أقدام من سقف منزلها المتنقل وتراكمت الثلوج فوقه في شكل لم يسبق أن رأته ليندا في عربتها الترفيهية. كان الداخل دافئاً وجافاً حيث لم تتسرب المياه من السقف الذي أصلح حديثاً، وبدا كوكو في صحة جيدة. أخذت كل الأمور بعين الاعتبار، وشعرت ليندا أن الحياة جيدة. احتفلت في الثامن والعشرين من نيسان بمناسبة انضمامها إلى مدمني الكحول المجهولين أربعة وعشرون عاماً دون الكحول. كتبت على صفحتها على فيسبوك: «تفيض دموع الامتنان في عيني وأنا أكتب. يبلغ أكبر أحفادي الواحد والعشرين من العمر، وقد تمنى دوماً الحصول على الجدة الرصينة والمحبة. لقد استجيبت أدعيتك... أنا سعيدة ومرحة وحرة».

حذرت ليندا مرةً من أن تهنئةً مدمن كحول على عدم الشرب يشبه مدح راعي بقر مصاب بالبواسير على عدم امتطاء حصانه. ما زالت التعليقات الودودة تغمر صفحتها من العائلة والأصدقاء الذين يحتفلون بهذا الحدث المهم. كتبت أودرا: «شكراً على مواجهتك الإدمان وتسليطك الضوء على مرض ابتليت به عائلتنا أجيالاً. أنا أحبك كثيراً».

كانت الأحوال المادية سيئةً، ولكن لا شيء يمكنه أن يحط من تفاؤل ليندا. لقد تحايلت على إمداداتها الغذائية المتضائلة، فصنعت التشيلاكليز من التورتيلا، والخبز الفرنسي المحمص من الخبز القديم، كما نفدت منها معظم الأشياء غير القابلة للتلف. انكمش محتوى ثلاجتها إلى أربع بيضات، ونصف غالون من الحليب، وبعض البهارات، والكاتشب، والمايونيز، والخردل، وحلوى الهلام، وقد أطلقت على ما سبق مازحةً: «طعام كي تضعه على طعام». أخيراً وصل شيكها، وملأت الثلاجة مجدداً.

تحدثت وليندا عبر الهاتف في أواخر شهر أيار. قالت لي مبتهجةً: «إنه يوم جميل، إن أرض المخيم ممتلئة عن آخرها». سألتها كيف تسير أمور البحث عن الأرض. أخبرتني أن آخر رحلة استكشافية كانت فاشلةً، وقد صبت تركيزها الآن على المنطقة حول جوليان في كاليفورنيا، على بعد ساعة شرقاً من سان دييغو، وقالت لي: «إنها مدينة قديمة اشتهرت بتعدين الذهب وتقع في الجبال، المكان جميل هناك. كما أنها قريبة من المياه في حال وقوع مشكلة ما كما يقول كل أولئك المحتاطين، كجفاف شديد على سبيل المثال، فيمكن الحصول على المياه. ولكن لا يمكن توقع حالة الطقس». خططت ليندا من أجل الحصول على مزيد من الأموال قريباً من أجل المشروع؛ ستعمل مضيفة مخيم حتى أوائل الخريف ثم ستنضم مجدداً إلى كامب فورس. لم تشفَ بعد إصابة رسغها التي تلقتها في مهمتها الأخيرة في أمازون، ولكنها كانت متفائلةً جداً لوجود أشهر أمامها قبل تاريخ بدء عملها. لقد ساعدت منذ أسابيع قليلة في دعم إحدى صديقاتها من ساكنات العربات والتي أرادت الانضمام إلى كامب فورس، ولكنها خائفة من عدم قدرتها على التعامل مع العمل الشاق، أو لا. أجابتها ليندا: «لا تقلقي، سندعم بعضنا بعضاً».

في هذه الأثناء، أخبرتني ليندا أنها في حالة رائعة وقالت: «لقد ملأت التقلبات حياتي كاملةً، وكانت أسعد لحظاتي عندما امتلكت القليل جداً». تحدثنا عن كلابها، ورغبتها في تجديد عربتها، رغم أنها كانت تتهرب مني منذ فترة قصيرة وتعود إلى العمل (يبدو أن أحداً من المخيمين جاء يطرق بابي).

الفصل الثامن
هالين

أمضيت ستة أشهر أقابل العمال المتنقلين قبل أن تبدأ ليندا وظيفتها في مخيم شيرون كريك. كما بحثت في ذلك الوقت في وسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة وعبر الإنترنت حول هذه الثقافة الفرعية. لقد وجدت كثيراً من الأمور التي جعلت العمل يبدو وكأنه أسلوب حياة بهيج، أو حتى هوايةً غريبةً، بدلاً من استراتيجية نجاة في عصر لا يستطيع فيه الأميركيون الحصول على منزل تقليدي ويكافحون من أجل كسب لقمة العيش.

بدأ أحد المقاطع من برنامج آل ثينغس كونسيدرد على الإذاعة الوطنية العامة بصوت المراسل يقول: «يحتاج سانتا إلى الأقزام بالطبع كي يتأكد من تسليم هداياه في الوقت المحدد، وكذلك يحتاج موقع أمازون إلى عمال رُحل». قدم المراسل واحداً من عمال كامب فورس الذي يعيش في حديقة بيغ شيف للعربات في كوفيفيل في كنساس. لقد أمضوا معظم الدقائق الثلاث المخصصة يتحدثون عن مباهج السفر عبر البلاد وتكوين صداقات جديدة. تخلل الضحك المحادثة أربع مرات.

لقد كانت القصص الأخرى أقل مرحاً، ولكنها أكدت على التشويق والصداقة الحميمة على الطريق المفتوح، متجاوزةً التحديات التي دفعت كثيراً من الناس إلى إعادة رسم حياتهم بشكل جذري. لم أستطع لسبب ما إلقاء اللوم على المراسلين بسبب تقبلهم ما وجدته في مقابلاتي السابقة أيضاً. إن

الصحفي الذي يكلف فجأةً في فترة بعد الظهر بمهمة تغطية قصة ما، نادراً ما يحصل على معلومات حقيقية بما يكفي. لقد قابلني العمال الرحّل بأقوال مبتذلة سعيدة، وتلقيت تحذيرات أيضاً. وافق سائق عربة في كامب فورس على مقابلتي، ولكنه قال إن من الأفضل ألا أصوره ورفاقه على أنهم أميركيون في أزمة. وقد صرح فخوراً: «يوجد كثير من المتذمرين الكسولين والاتكاليين الذين تتلخص سعادتهم في الشكوى حول أي شيء تقريباً، ومن السهل إيجادهم. أنا لست واحداً من هؤلاء».

قرأت وجهة نظر شبيهةً بـ «لا للمتذمرين» في وورك أمبر نيوز، وهي مجلة تصدر كل شهرين وتستهدف الرُحل. طرح هذا السؤال في أحد العناوين: «هل تحتاج إلى تعديل السلوك؟». لقد شجع العمود الذي يتابعه العمال الرحّل غير الراضين عن المشاكل التي يواجهونها خلال عملهم من أجل البحث عن الحلول عن طريق النظر إلى أنفسهم. اقترح كاتب المقالة: «حاول تغيير سلوكك وألا تسمح لهذه المشاكل أن تتغلغل في نفسك، وهدئ من روعك ببعض هذه العبارات؛ لن نكون هنا إلى الأبد. إنها وسيلة من أجل تحقيق غاية. سنسافر ونقضي بعض الوقت في هذه المنطقة ونستكشفها (أو نزور العائلة)، ونعيش حلمنا».

كان ذلك الحديث الحماسي سريالياً، ولكنه لم يفاجئني تماماً. إن التفكير الإيجابي في نهاية المطاف عبارة عن آلية تكيف أميركية بالكامل، وهواية وطنية عملياً. لاحظ المؤلف جيمس رورتي ذلك عندما سافر إلى أميركا في فترة الكساد الكبير وقابل أناساً أجبروا على البحث عن عمل على الطريق. أصدر كتاباً عام 1936 تحت عنوان حيث الحياة أفضل، موضحاً فيه خوفه لأن كثيراً من الناس الذين أجرى معهم مقابلات بدوا مبتهجين للغاية، حيث كتب: «لم أصادف شيئاً مثيراً للاشمئزاز والفزع في مدى خمسة عشر ألف ميل من السفر أكثر من هذا الإدمان الأميركي على الإيمان بالأفضل».

أنا لست ساخرةً إلى ذلك الحدّ. تقتضي الطبيعة البشرية أن يرتدي المرء قناعاً جميلاً في الأوقات العصيبة – ويظهره إلى الغرباء – ولكن كان لدى الرحّل رأي آخر. إن الحقيقة كما أراها، هي أن باستطاعة الناس الكفاح والتفاؤل في الوقت نفسه في خضم أكثر التحديات اختباراً للروح. لا يعني ذلك أنهم في حالة إنكار، بل يشهد على قدرة البشرية الرائعة على التأقلم والبحث عن المعنى والقرابة عند مواجهة الشدائد. وكما أشارت ريبيكا سولنيت في كتابها الجنة المبنية في الجحيم: المجتمعات الاستثنائية التي تنشأ في الكارثة، فإن الناس لا يناضلون وحسب في أوقات الأزمات، بل يفعلون ذلك «وهم مبتهجون». يحتمل أن نتعرض إلى صعوبات تهز إرادتنا من أجل الثبات، ولكننا نجد السعادة أيضاً عند الجلوس حول النار مع أصدقائنا من العاملين الجوّالين تحت سماء مرصّعة بالنجوم.

بعبارة أخرى يمكنني القول، إن الرحّل الذين كنت أقابلهم منذ أشهر لم يكونوا مجرد ضحايا لا حول لهم ولا قوة أو مغامرين سعداء، لقد كانت الحقيقة أعمق من ذلك، ولكن كيف يمكنني الوصول إليها؟ لم أعد مسافرةً ليوم واحد في هذه المرحلة. لقد أمضيت كثيراً من الأسابيع رفقة العمال الرُحل، أوثق قصصهم عبر خمس ولايات، ثم أبيت في خيمة في كوارتزسايت في الوقت الذي تنخفض فيه درجة الحرارة إلى الثلاثينيات خلال تجمعاتهم الشتوية. ومع ذلك، لم أفهم حينها القصة بالشكل الذي أردت؛ لم أتقرب منهم كفايةً من أجل أن أحيط بحياتهم تماماً. سيتطلب ذلك اندماجاً كاملاً، وقضاء أشهر بينهم كي أصبح جزءاً اعتيادياً من مخيماتهم يوماً بعد يوم.

كان باستطاعتي العيش مع خيمتي في الصحراء بعيداً عن الأنظار، ولكن ليس في المناطق النائية حيث ينعزل معظم الناس الذين أكتب عنهم. يُسمح بإقامة معسكر الخيام في المناطق القريبة من المراحيض الخارجية فقط، ما يعني أنني سأنام على بعد أربعة أميال بعيداً عن موقع ملتقى ساكني العربات، ثم أعود من أجل زيارته. سأحتاج إلى مأوىً متنقل أكثر ثباتاً – شيء أستطيع

النوم، والطهي، والكتابة فيه ويحتوي مرحاضاً بدائياً على الأقل – من أجل الانضمام إلى الرحّل فعلاً. وكما يقول سائقو المقطورات، يجب أن تكون عربتك «مكتفية ذاتياً».

بحثت في إعلانات كريغرليست عن عربات قديمة. بدا الكثير منها رائعاً للوهلة الأولى، ولكن تبين لاحقاً أنها صدئة أو مهترئة، بما في ذلك واحدة قديمة جداً من رود تريك والتي أخبرني بائعها أنه قضى سنوات من المرح في عربته التي أسماها «بورتا بارتي». لفت شيء ما انتباهي أخيراً: كانت عربة فاندورا جي أم سي 1995 بيضاء وذات شريط أزرق مخضر. (أخبرني أحد أصدقائي أنها تشبه عربة السيد تي في مسلسل ذا إي تيم، لعل الحنين قد أثر في نفسي بعض الشيء). لقد كانت في حالة جيدة نسبةً إلى عربة عمرها عشرات السنوات، وقد سارت مسافة أربعة وستين ألف ميل فحسب. ورُكنت معظم الأوقات على ساحل كاليفورنيا، ولم تشهد فصول شتاء قاسية، وقد أعدت تجهيزاتها الداخلية من أجل أن تلائم التخييم.

لقد شعرت في المرة الأولى التي دخلت فيها العربة أنها أكبر من المتوقع، كما لو أنها استثنيت بطريقة ما من الفيزياء مثل التارديز في مسلسل دكتور هو. زُودت الجدران بستائر وأوراق جدران ذات لون أزرق مخملي، وكان في الخلف حجرة طعام صغيرةً مطويةً على هيئة سرير. تحتوي القمرة على ثلاجة صغيرة ذات اثني عشر فولطاً من الجهد، وموقد بروبان صغير، ومرحاض محمول، ووسائل راحة مفيدة من أجل الانعزال، ويوجد سقف متحرك في الأعلى. عندما فتحت المزلاج ورفعت الغطاء، استطعت الوقوف في شكل مستقيم، ولكن فشلت أية محاولة للتسلل – حيث بدا من الخارج وكأنه خيمة سفاري قماشية محمولة على الظهر.

احتاجت العربة اسماً. تعرّفت من لقائي مع سكان العربات إلى فانسيون، وفان جو، ودونوفان، وفانتوكيت، وفانا وايت؛ كانت ثقافةً فرعيةً مبهجةً. اقترح صديق اسم «بيتهوفن» تيمناً بفرقة كامبر فان بيتهوفن. ولكن

هذا الاسم جعلني أفكر في «رول أوفر بيتهوفن» وهو نذير كارثي من أجل القيادة. لقد أطلقت عليها اسم هالين بدلاً من ذلك. ولدت في أواخر سبعينيات القرن الماضي، في الوقت الذي أصدرت فيه فرقة الروك ألبوماتها الأولى، وحاولت تزيينها بواسطة بعض التعويذات الملائمة الجالبة للحظ، بما فيها لوحة لإرنست هيمنغواي على المخمل الأسود والتي حصلت عليها من اجتماع المقايضة في كوارتزسايت، وجمجمة السنجاب التي عثرت عليها ليندا خلال استضافة المخيم. تدلى خيط من مرآة الرؤية الخلفية يحمل خرزات من الزجاج الأزرق «العين الشريرة» والذي أهداني إياه أحدهم. لقد كان أكثر الأشياء التي امتلكتها شبهاً بجهاز إنذار السرقة.

حصلت على هالين من بائع في كاليفورنيا. التقى بي صديقي المفضل، الصحفي دالي ماهاريدغ، من أجل أن نحضرها. سافرنا معاً إلى منزل عمه الذي يتربع على الأخاديد الواقعة شمال مقاطعة سان دييغو. كنت أقود هالين مجاهدةً كي أتأقلم مع العملاق ذي التسع عشرة قدماً والذي يزن طنين. كان التعامل معها أشبه بقيادة قارب، حيث إنها تنحرف إلى الجانب، وتتطلب تصحيح مسارها باستمرار. (لقد جعلني البقاء على هذا النهج متوترةً، وآلمني كتفاي ساعات بعد المرات القليلة الأولى التي قدتها فيها).

ركنّا هالين بعد وصولنا إلى جوار بستان حمضيات وبدأنا العمل. لقد كان تنظيفها هو الجزء الأسهل – حيث فركنا شراب القيقب المتصلب والذي سال من إحدى الخزائن، وأزلنا طبقة الصدأ السطحي الخفيف بواسطة عجلة الأسلاك المعدنية. كان العمل الأصعب تركيب لوح شمسي باستطاعة مئة واط. يركب العديد من الرحّل ألواحاً شمسيةً على متن حامل الأمتعة على سطح عرباتهم والمزود برفوف جانبية. لن يجدي ذلك نفعاً مع سقف هالين المتحرك، وهذا ما دفعنا إلى فعل شيء جعلني أنكمش على نفسي: صنعنا ثقبين في القسم الخلفي الثابت من السقف.

العربة هالين في الصحراء قرب إهرينبيرغ

لقد كان ذلك ضرورياً من أجل تركيب إطار من الألمنيوم كي يحمل الألواح الشمسية ويمكن إمالته في زاوية مناسبة من أجل التقاط المزيد من الأشعة الشمسية عند ركن هالين. بعد شد البراغي، وضعت مادةً قويةً تمنع تسرب المياه في منطقة الثقوب، ودعوت ألا يرشح منها. بعد ذلك، ركبت أنا ودايل منظماً كهربائياً داخل الشاحنة، وأوصلناه مع اللوح الشمسي من أجل تشغيله، ومع زوج من بطاريات عربة غولف ذات جهد يبلغ ستة فولطات والتي وضعناها أسفل طاولة الطعام. ستزودني هذه بالطاقة الكهربائية في الوقت الذي أكون فيه منعزلة. كان المحول آخر ما ركبناه، ووضعناه تحت طاولة الطعام أيضاً، من أجل الحصول على طاقة كهربائية ذات جهد يبلغ مئةً وعشرة فولطات، وهو ما أحتاجه من أجل شحن حاسوبي المحمول والكاميرا.

لقد انتابني القلق فترةً قصيرةً من أن يكون هذا الاستعداد مبالغاً فيه، ولكن تبين أنه ليس كذلك عندما سكنت هالين على فترات متقطعة في العامين التاليين اللذين كتبت فيهما تقاريري، وخرجت في رحلات منها ما

استمر شهرين دفعةً واحدةً. امتدت الرحلة على خمسة عشر ألف ميل بين الحدود والسواحل؛ حيث وصلت هالين إلى مشارف المكسيك وكندا.

إن أول شيء أدركته على الطريق أنه على الرغم من إجراء عشرات المقابلات مع الرحّل، ولكنني لم أعلم شيئاً حول العيش في عربة. لقد كان منحى التعلم في تزايد مستمر ولم يستوِ قط، حيث إن الظروف تغيرت باستمرار. علقت عجلات هالين مرتين عندما قدتها إلى الصحراء ضمن الطمي الناعم إلى حين مرور أحد الأتقياء في سيارته الجيب ومساعدتي في رفعها. كما أنها علقت في عاصفة ثلجية في أعالي الجبال وتجمّد المرحاض وخزانات المياه. وقد انفجر مولد الكهرباء في وقت متأخر من الليل على طريق سريعة خالية في كنساس، وخيم الظلام على لوحة العدادات مع فقدان هالين طاقتها، فتوقفت فجأة أمام استراحة على الطريق.

ركنت العربة عند اقترابي من فورت وورث في تكساس من أجل احتساء القهوة، وسرعان ما استحالت السماء خضراء وانطلقت صافرات الإنذار تحذر من قدوم إعصار. لقد نصحني عامل تحضير القهوة أن أختبئ في القبو عندما أرى إعصاراً، فأشرت من النافذة إلى هالين – لا يوجد قبو – وضحكنا معاً. اختبأت داخل هالين لاحقاً في ذلك اليوم خلال هطول الأمطار الغزيرة، وراقبت المياه في رعب وهي تخترق عازل الأبواب الخلفية وتتدفق إلى الداخل كي تغمر سريري وتدمر جزءاً من النظام الكهربائي الذي صنعته. لقد سرقت حاجياتي من هالين مرةً، حيث عدت بعد استراحة في المنزل إلى موقف سيارات يسمح بركن السيارات فترةً طويلة، كي أجد حجراً في حجم حبة بطاطا كبيرةً قد رمي عبر نافذة السائق الجانبية، ما سبب تناثر الزجاج المكسور على الكابينة. لم تحتوِ هالين على شيء يستحق السرقة لحسن الحظ باستثناء اللوحة المخملية السوداء لإرنست هيمنغواي، وزجاجة صلصة حارة لذيذة حقاً، لم يُسرق شيء آخر.

لقد عاملت هالين بشكل مهين مرات كثيرةً: كالرجوع إلى الخلف والاصطدام بصخرة، والخروج من موقع التخييم مع بقاء السقف المتحرك مرفوعاً، وقيادتها مسافة مبنيين دون الانتباه إلى أن مخروط مرور كبيراً قد علق تحت هيكلها وأنا أجره على الرصيف. ركنتها مرةً قرب ستارباكس من أجل الاتصال بالإنترنت عبر واي فاي، وحاولت تركيب جرس إنذار مشترك من أجل الحريق وأحادي أكسيد الكربون. (القاعدة الأولى لدى الرحّل: يجب أن تحتوي أية عربة سكنية كلاً من مطفأة الحريق وجهاز إنذار أحادي أكسيد الكربون). ولكن صوتاً أنثوياً انطلق قائلاً: «حريق! حريق! إخلاء! إخلاء!»، لقد كشف أمري؛ توقف الغرباء عن احتساء اللاتيه ليحدقوا إليّ.

احتجت إلى الحصول على المزيد من الدواء الذي وصفه لي الطبيب خلال إحدى الرحلات الطويلة، فاتصل طبيبي بإحدى الصيدليات. لقد أخبرني لاحقاً أنه عندما طلب الصيدلي عنوان منزلي، لم يعلم ما سيجيب وقال سريعاً دون تفكير: «*إنها تعيش في عربة!*». *تجاوز الصيدلي ذلك، ولكن تلك الحادثة جعلتني أفكر: أنت لست شخصاً حقيقياً إن لم تمتلك منزلاً في أميركا.*

إن كل مكان هو عنواني عندما أقود هالين. لقد نمت في مواقف فلاينغ جي تراك، ومراكز وال مارت التجارية، وكازينو يدعى ويسكي بيتس، ومحطة وقود مهجورة؛ وفي الصحارى القاحلة، وبراري الجبال، وشوارع الضواحي. كانت المناطق السكنية هي الأسوأ لأن فضول الجيران قد يجلب المشاكل. لقد استيقظت في إحدى الليالي التي خيمت فيها خلسةً في ميشن فييغو على صوت مقلم الشجيرات الكهربائي، حيث كان هنالك بستاني يعمل على بعد قدمين مني، وهذا ما دفعني إلى الاستلقاء في كيس النوم خاصتي دون حراك حتى ينهي عمله. لقد سخرت مني ليندا ولافون لاحقاً في ذلك اليوم غير مصدقتين ما حدث.

مثلت هذه التجارب الموسيقى التصويرية التي تخص تقريري عن هذا الكتاب. لم يسعني الاقتراب من الناس كفايةً من أجل سماع قصصهم لولا

العيش في هالين. ولكن من العدل القول إنني لم أعول كثيراً على الأمر في البداية. لم أمتلك أية فكرة حول ما أفعله رغم أن بعض الحماسة قد تملكتني في البداية.

استغرق تشغيل نظام الطاقة الشمسية في العربة يومين من العناء قبل أن نتمكن أنا ودايل من ذلك. لم يتبقَ سوى الانطلاق بعد أن أصبح كل شيء يعمل. كان الظلام قد حل فعلاً عندما عانقني دايل مودعاً. جلست في مقعد السائق، وقدت هالين بعيداً قليلاً عن منزل عمه، وتجاوزت أشجار الحمضيات التي كانت ملامحها باهتةً في ذلك الوقت. كان الممر منحدراً، وشعرت فجأة أن هالين ذات الطنين من الوزن قد تثاقلت على نحو غريب. قبضت على عجلة القيادة، ودست على المكابح على طول الطريق إلى الأسفل. اغرورقت عيناي بالدموع عندما توقفت العربة، مسحتها بواسطة كمي، وتساءلت عن كيفية العيش في هالين إن لم أتعود بعد على قيادتها.

قلت في نفسي، كل ما يجب عليك فعله هو التركيز في الطريق. لديك فنجان كبير من القهوة، ونظام تحديد المواقع العالمي على هاتفك المحمول، فضلاً عن الوجهة التي تملكك الحماسة حولها منذ أشهر. وهكذا عادت العربة إلى طريقها عبر الأخاديد في رحلة من أجل زيارة ليندا.

***

لقد أقامت ليندا مؤقتاً قبل عيد الميلاد مباشرةً عام 2014 مع ابنتها وأحفادها المراهقين وصهرها في شقة صغيرة استأجرها في سان كليمينت. أطلت النافذة الخلفية على مخيم بيندليتون، وهو قاعدة القوات البحرية. يمكنك سماع أصوات «خطوات» المشاة عند غروب الشمس، وصوت تدريب المدفعية بذخيرة حية خلال الليل. (لم تكن الأسرة قد انتقلت بعد إلى منزلها التالي الذي استأجرته، وهو المنزل الذي أقامت فيه ليندا في ميشن فييغو عندما ابتاعت سكويز إن وانتقلت إليه).

كانت عربة ليندا مركونةً في الشارع والمخالفات المرورية تنهال عليها. لقد قضمت حيوانات الراكون خط الوقود في العربة، وأدركت ليندا ذلك عندما كانت تملأ عربتها. أجفلت بعد أن نظرت إلى الأسفل ووجدت بركةً صغيرةً تزداد سعتها حول قدميها. لقد توقعت ليندا أن تعود إلى العمل في فيرنلي في شركة أمازون هذا الموسم، ولكن حالة معصمها السيئة، والتي لم تتحسن منذ العام الماضي، حالت دون ذلك. إنها تعاني مجدداً من ضائقة مادية.

اصطحبتني ليندا في الليلة التي وصلت فيها إلى العشاء مع عائلتها في مطعم مكسيكي رغم اعتراضي على ذلك. رأينا عندما خرجنا أحد العازفين الجوالين يعزف أغنية البوب «رويالس» من غناء لوردي، وكانت حقيبة كمانه مفتوحةً على الرصيف. أعطت ليندا كل واحدة من حفيدتيها دولاراً كي تضعه فيها. عندما عدنا إلى الشقة، رحبّت العائلة في مبيتي لديهم. ولكن كانت ليندا تنام على الأريكة، وإحدى حفيدتيها تحتل غرفة الخزانة. ولذلك قلت إنني سأنام في العربة المركونة إلى جوار المبنى السكني، كما لو أنني فعلت ذلك آلافاً من المرات. وضعت ليندا الأطواق حول كلبيها وكلب العائلة جيزمو، وهو من فصيلة التشيواوا، من أجل نزهتهم الأخيرة تلك الليلة. تمشينا معاً عبر موقف السيارات، وقد تنامى القلق في داخلي مع كل خطوة خطوتها حينها ناحية هالين، حيث إنني قضيت ليلةً واحدةً فقط في العربة قبل ذلك الوقت – وكان ذلك في المنزل في مقاطعة سان دييغو – دون غرباء أو حركة مرور حولي، بينما كانت هذه ليلتي الأولى والسيارة مركونة في العراء. ماذا لو أبلغ الجيران الشرطة؟ أو حاول أحدهم اقتحام العربة عندما أغط في النوم؟

نفض ألم شديد تلك الأفكار. لقد غرز جيزمو أسنانه في مؤخرة فخذي اليمنى، وحاولت الضحك على ذلك. دعته أودرا سابقاً «عضاض الكاحل»، وأنا ظننت أن ذلك من باب الحب وليس التحذير. حاولت التخفيف من وطأة الأمر، ولكن مخاوفي حالت دون ذلك واستحالت رعباً. هل يأخذ الكلب لقاحاته بانتظام؟ لم أشأ إهانة أي أحد بسؤالي هذا.

تمنيت لها ليلةً سعيدةً، ودخلت إلى العربة بهدوء، وأسدلت الستائر قبل أن أبدأ البحث في صندوق الإسعافات الذي حصلت عليه من صديق في لوس أنجلوس. احتوى على ضمادات الإسعافات الأولية وعلبة من دواء نيوسبورين موضوعة تحت علم أميركي صغير وصابون سبرينغ أيرلندي وقد استهلك نصفه. خلعت بنطالي وتوقعت أن أجد جرحاً مدمىً في شكل ثقوب. ولكن كان الجلد سليماً، لا شيء سوى كدمة مؤلمة، وجب أن أشعر بالراحة، ولكنني لم أفعل. نظفت أسناني ودخلت في كيس نومي أفكر في شيء كتبه بوب ويلز في كتابه، حيث أوضح قائلاً: «إن ليلة النوم الأولى في العربة بعيدة جداً عن نطاق راحة بعض الأشخاص، وقد تكون صعبةً للغاية بالنسبة إليهم. سيتفاقم خوفك مع كل صوت (والذي يوجد الكثير منه) ولن تحظى بالكثير من النوم. سترتبك عندما تستيقظ في الصباح الباكر، وستتساءل عن المكان الذي أنت فيه».

لم أعتقد أن تلك الكلمات تنطبق عليّ، فأنا لست شخصاً يجري تغييراً جذرياً في أسلوب حياته، بل مجرد كاتبة أحمل كاميرا رقميةً ومسجل صوت ودفتر ملاحظات، لقد خططت كي أسكن عربتي أشهراً فقط، وليس سنوات.

كانت السيارات تدخل وتخرج من ساحة ركن السيارات، وتنير هالين بواسطة مصابيحها الأمامية. توهجت الظلال باللون الأبيض مع اقترابها، والأحمر الخافت مع ابتعادها، وتحركت الظلال داخل العربة، هل كان السائق يسير ببطء؟ هل ركن سيارته قريباً جداً مني؟ هل يعلم أنني هنا؟ أغلقت عيني، وحاولت الاسترخاء، واستغرقت ساعات قبل أن أغط في النوم.

***

أجفلت صباحاً بسبب نقرة على النافذة، وسمعت صوتاً مألوفاً ينادي: «مر – حبـ – ـاً!». كانت ليندا تنزه الكلاب مجدداً، بعد أن تركت القهوة تتخمر في الطابق العلوي. ارتديت بعض الملابس مترنحةً وتبعتها إلى شقتها. أشارت

إلى الحمام، وناولتني منشفةً ورديةً منقطةً وقالت: «خذي هذه، لقد أخرجتها من آلة التجفيف للتو. إنها ذات نقاط بولكا التي تحبينها».

ركبنا هالين كي نتجول قليلاً. جعلتني ليندا أشتري شطائر بوريتوس من أجل الفطور من مطعمها المفضل، وذهبنا إلى الشاطئ حيث تناولنا الطعام وتبادلنا أطراف الحديث ونحن نراقب راكبي الأمواج يتمايلون عليها. أعطتني ليندا درساً مختصراً في العربة حول كيفية ركنها، حيث كانت قيادة عربة شحن بطول تسع عشرة قدماً أمراً بدائياً نسبةً إلى ليندا التي قضت ستة أشهر بصفتها سائقة عربة محترفة، وقد كانت تستطيع معرفة أن الأمر ما زال يخيفني. أرشدتني بعد ذلك إلى متجر للأغراض المستعملة من أجل تجهيز العربة بلوازم الطهي. كنت أبحث في سلة من الأدوات غير المتطابقة في الوقت الذي أبرمت فيه ليندا صفقةً رابحةً من أجلي تتضمن فرناً ألمانياً وآلة صنع القهوة. في وقت لاحق من ذلك اليوم ودعنا بعضنا.

كانت كوارتزسايت هي محطتي التالية، حيث خطّطت أن أنعزل في الصحراء بضعة أشهر، ويتضمن ذلك ملتقى ساكني العربات، الذي كان سيُعقد بعد بضعة أسابيع، ولم يكن لديّ أدنى فكرة حول المكان الذي سأركن فيه العربة إلى أن يحين الموعد.

وصلتني لاحقاً دعوة عبر فيسبوك من أجل عشاء تشاركي، وقد أرسلتها إليّ كارلين سوانكي، وهي سائقة العربات الخبيرة، التي تبلغ من العمر سبعين عاماً والمعروفة باسم سوانكي ويلس. لقد التقينا لفترة وجيزة في العام الماضي قبل أن أقرأ عن مغامراتها على موقع بوب ويل الإلكتروني. لقد كنت متحمسةً، حيث إن مخيم سوانكي مكان لطيف من أجل التخييم، فضلاً عن كون سوانكي خبيرةً في رحلات العزلة، إنها الشخص المناسب كي أتعلم منه.

قالت سوانكي على سبيل المزاح: «اخطفي ليندا وأحضريها معك». شرحت لها العائق أمام ذلك، وهو أن ليندا تمر في ضائقة مالية، وعربتها لا

تعمل، وقد رفضت عرضي كي أقلها إلى هناك. ولذلك طلبت سوانكي أن أحضر بعض النقانق بدلاً منها.

لاحظت بعد الوصول إلى مخيم سوانكي أنها اعتادت على إرشاد سائقي العربات الجدد. لقد تبنت تلميذاً بالفعل هذا الموسم ويبلغ من العمر سبعةً وعشرين عاماً واسمه فينسينت موسمان. لم يمضِ كثير من الوقت حتى روى لنا قصته.

عاش فينسينت مع والدته في بيلينغس في مونتانا حتى شهرين من الآن. لقد كان يتوق من أجل أن يستقل بنفسه، ولكن استئجار شقة لم يكن بالأمر السهل أبداً. يترتب عليه أكثر من خمسة وعشرين ألف دولار كقروض طلابية من أجل درجة دراسية لم يكملها، رغم أنه عمل في وظيفتين خلال الجامعة – مراقب مختبر، وعامل صنع القهوة – من أجل الحفاظ على حالة مادية جيدة وإعداد شطيرة ساب واي طويلة تكفي كوجبة ليومين في حال لم يعد يمتلك النقود. انفصل والداه بعد ثلاث سنوات من بداية دراسته، وأراد التقدم بطلب مرةً أخرى من أجل الحصول على مساعدة مادية، ولكنه احتاج إلى توقيع أبيه الذي اختفى في ذلك الحين، ودفعه ذلك إلى الانسحاب. بعد العودة إلى المنزل حصل على وظيفة في مجموعة منزلية للبالغين المصابين بالتوحد، ولكنه لم يجن كثيراً منها. اكتشف أنه لا توجد سوى طريقة واحدة كي يستطيع العيش مستقلاً، ولذلك، اشترى عربة أمه الصغيرة، وهي من نوع بليموث غراند فوييجر أل أي طراز عام 1995. استبدل الأثاث الداخلي كاملاً، حيث وضع مشمعاً من أجل الأرضية، ورفوفاً، وسريراً علوياً. أطلق عليها اسم «تيللي» على اسم القطار في كتاب المحرك الصغير الذي يستطيع، والذي يقول فيه هذا القطار: «أعتقد أنني أستطيع، أعتقد أنني أستطيع». ثم بدأ فينسينت رحلته.

وأضاف موضحاً: «لقد خرجت في رحلتي هذه كي أتعلم كيف أعتمد على نفسي».

خطط فينسينت الذهاب إلى كوارتزسايت ولقاء سوانكي، التي أصبح صديقاً لها ضمن مجموعة على الفيسبوك تخص الرحّل. لقد دعته من أجل التخييم قربها – وليس معها – في منطقة لابوسا الخاصة بالزوار طويلي الأمد الواقعة في جنوب كوارتزسايت الصحراوي، حيث انضممت إليهما لاحقاً.

لقد غمر سوانكي القلق والندم بعد أن قدمت له ذلك العرض، فهي تعتز بوحدتها إلى درجة أنها اشترت علم جمجمة وعظمين متقاطعين كي ترفعه في الأوقات التي لا ترغب بالزيارات فيها. في حين كان فينسينت اجتماعياً جداً، وقال إنه مصاب بأل بي أس، أو متلازمة الجرو المفقود.

وصل فينسينت في اليوم الذي يسبق الهالوين وركن عربته قرب جدول صغير. لقد كان على الجانب الآخر من موقع تخييم سوانكي، وبدت أشبه بغرفة معيشة في الهواء الطلق مزودةً ببساط مقاوم للعوامل الجوية، وكراس، ومقطورة بضائع، ومظلةً من أجل الظل. كانت عربتها إلى جواره، والتي زودت بسرير، ومكتب حاسوب، وثلاجة، ومايكروويف يمكنها تشغيله عندما يعمل محرك العربة. يوجد على السقف لوح شمسي وقارب كاياك، وعلى الباب الخلفي ملصق من سلسلة أندية بلانيت فيتنس الرياضية والتي انتسبت إليها من أجل الاستحمام في مراكزها.

أعطت سوانكي خيمةً احتياطيةً إلى فينسينت من أجل طعامه وموارده، وساعدها في تثبيت خزانة في مقطورة البضائع خاصتها. علّمته كيفية إعداد لوح طاقة شمسية، والذي استخدم فينسنت قروشاً مثقوبةً من أجل تثبيته على السقف لأنها أرخص ثمناً بكثير من حلقات الربط. كما سمحت سوانكي لفينسنت باستخدام صندوق بريدها الذي استأجرته، وقد دلت تلك البادرة على الكثير. قالت إن عائلتها لم تعد تقبل بريدها، وإن العنوان البريدي ضروري بالنسبة إلى فينسنت نظراً إلى كونه متحولاً جنسياً. يحتاج إلى حقنة تستوستيرون في الفخذ كل أسبوعين، حيث يرسل الدواء عبر البريد. ظهرت أشياء جيدة أخرى في الصندوق، مثل حزمة رعاية عيد الميلاد من والدته: كمية

من حلوى سنيكردولز منزلية الصنع ونسخة صغيرة طبق الأصل عن مدفأة من الطوب الأحمر والمصنوعة من علب سالتين وهو نوع من المعجنات المقرمشة تشبه البسكويت، وأعلى منها شجرة شوح في حجم بيت الدمى.

كان سوانكي وفينسنت أشبه بالزوجين تماماً. كانت سائقة العربة النابضة بالحياة ذات الشعر الرمادي أطول بمقدار رأس على الأقل من تلميذها الشاب الملتحي والذي يمتلك وشم جزيء التستوستيرون على معصمه، وابتسامة مزعجة تفتقد سناً على الجانب العلوي الأيمن. أخبرني فينسنت أن نزع ذلك السن يكلف مئتين وخمسين دولاراً، في حين أن تتويجه يكلف ألف دولار. إن فقدان سن لدى العديد من الرحّل الذين التقيتهم بمثابة شعار للفقر يخجل منه كثيرون. حاول البعض أن يتجنب الابتسام في الوقت الذي أحضر فيه الكاميرا، أو يطلبون مني ألا أنشر الصور التي تظهر فيها الفراغات بين الأسنان. (إنه لأمر محزن – وليس مفاجئاً – أن الأسنان أصبحت رمز الحالة في بلد يفتقر فيه أكثر من واحد من كل ثلاثة مواطنين إلى تغطية طب الأسنان، والتي لا يتضمنها التأمين الطبي القياسي). لكن فينسنت أطلق على الفجوة اسم حامل القش، وأظهرها بكل فخر وقال موضحاً: «أي شخص لديه مشكلة في ذلك لا أرغب في التسكع معه أبداً».

فينسنت وسوانكي يستمتعان حول نار المخيم في كوارتزسايت

اشتركا معاً في سمة مميزة؛ لم يكن أي منهما متعجرفاً. تذكرت سوانكي واحدةً من الليالي الصحراوية عندما استمتعت بتجاذب أطراف الحديث مع أناس يعيشون في منازل متنقلة فاخرة. سألوها عن عربتها، وأخبرتهم أنها عربة فحسب، وهنا وصلت المجاملات إلى نهايتها، قالت سوانكي وهي تهز رأسها: «لقد نهضوا وغادروا نار مخيمها». انضمت سوانكي في مناسبة أخرى إلى شبكة الأفراد الجوالين، وأدركت مباشرةً أنها لا تستطيع إضافة مدونتها إلى قائمة مواقع الأعضاء، والسبب؟ لقد كان التفسير أنها ذكرت شرحاً تعليمياً مفصلاً حول استعمال دلو سعته خمس غالونات كمرحاض. ولذلك تركتهم.

لم تكن سوانكي في حاجة إلى أصدقاء كأولئك، مثل فينسنت تماماً. كان مخيمها يكبر شيئاً فشيئاً. انتهى بي الأمر بعد العشاء في تلك الليلة الأولى أن أبيت في عربتي هناك. وكذلك نسبةً إلى كات ومايك فالينتينو، وكلاهما في السابعة والأربعين من العمر ويعيشان في إكونولاين فورد زرقاء من عام 1991 وأطلقا عليها اسم كاتفاندو، ويشاركهما إياها ابنهما أليكس ذو الأعوام التسعة من العمر وحيوان ابن عرس الأليف روني. لقد كانا يسكنان في واشنطن منذ بضعة أشهر، عندما أسعفت كات، والتي كانت من المحاربين القدماء، من عملها مديرة شركة ألبيرتسون، وشخص الأطباء إصابتها بالتصلب المتعدد. كانت في طور تجاوز الإعاقة، وهي عملية تستغرق ثلاث سنوات في المجمل. في تلك الأثناء، كان مايك يعمل في مصنع تحضير الخضروات المجمدة مقابل 9.40 دولاراً في الساعة، ولكن أوشك عقده على الانتهاء، وتملكهما الخوف من المستقبل.

كانت كات تجري أبحاثاً حول قيادة عربات الترفيه والسكن فيها عبر الإنترنت. لقد كتبت على فيسبوك: «أنا لا أستطيع أن أقرر إن كان الأمر محزناً أم باعثاً على الأمل، حيث يتحدث كثير من الناس الذين أتواصل معهم عبر

مجموعات عربات الترفيه المختلفة حول انتقالهم إلى العيش فيها طوال الوقت بسبب الصعوبات المادية. أعتقد أنه المر الحلو. الحرية الجديدة... قدرة المرء على العيش في حين يعيد بناء نفسه. شكراً لله على وجود كثير من العشائر المختلفة والجدية والتي تقدم كثيراً من الإرشاد، والنصيحة، والأشياء، ويستمعون إلى مشكلاتك. هل هذا هو ارتقاء الطبقة الوسطى السابقة؟ هل سنشهد على ظهور طبقة الصيد وجمع الثمار؟».

انتهى المطاف بأسرة فالنتينو في زوج من الفنادق الصغيرة القذرة من أجل إقامة قصيرة. كان بعض الجيران يبيعون المخدرات ويمارسون الدعارة، ولم يكن المكان المناسب من أجلهم. ولذلك اشتروا العربة وانطلقوا في طريقهم قبل أسبوعين من بداية رحلة فينسنت الطويلة. يبدو أن الأمور تسير بشكل جيد حتى الآن. وشرحت كات لي كيف أن أليكس كان «يدرس على الطرق»، وهذا المصطلح لدى الرحّل يكافئ التعلم من المنزل. لقد كان طفلاً ذكياً وفضولياً وذا حس فكاهي أكبر من سنه، ولكنه تصارع مع المشكلات الاجتماعية المتعلقة بمتلازمة أسبرغر – طيف من اضطرابات التوحد – وتعرض إلى التنمر في المدارس الحكومية. يخبر أليكس الجميع الآن أنه يريد أن يؤسس أمته الديمقراطية الخاصة، وسيطلق على عاصمتها اسم «مدينة ساكني العربات».

حلت إحدى أصعب اللحظات في كوارتزسايت، وهي فترة انخفاض الحرارة إلى العشرينات خلال الليل. نفد الوقود من كات ومايك لأنهما أبقيا عربتهما تعمل من أجل الحصول على الدفء؛ تعطل مقياس الوقود، ولم يستطيعا معرفة مدى سرعة تفريغ الخزان. كانا يخيمان قرب سوانكي وفينسنت في ذلك الوقت، اللذين فعلا الشيء نفسه. لقد اتبعتُ الخطة ذاتها، كنت أطفئ محرك هالين في الوقت الذي ينفث فيه الحرارة، ثم أزحف إلى كيس نومي، فأنام ساعات قليلة، وأستيقظ مجدداً وأنا أكاد أتجمد من البرد،

وأكرر العملية. كان يتناهى إلى مسامعي نبض الحياة في جوقة العربات تارةً، ويخيم الصمت عليها تارةً أخرى.

انتهى بي الأمر في وقت لاحق أشتري سخان غاز البروبان من صنع شركة بودي – وهو خيار شائع بين سائقي العربات – ولكن فائدته تنتهي مع حلول الليل، إذ إن تشغيل سخان البروبان وتركه دون رقابة أمر غير آمن. قد يؤدي الاحتراق غير الكامل في أماكن العيش صغيرة المساحة والناجم عن التدفئة أو الطهو – جنباً إلى جنب مع التهوية المحدودة – إلى تراكم قاتل لغاز أول أكسيد الكربون عديم الرائحة. يمكن أن يحدث ذلك سريعاً بشكل مزعج في العربة. لقد أطفأت غاز بودي خاصتي ذات مرة، واستلقيت كي أغط في النوم، ولكن سرعان ما انطلق صوت مرتفع في الظلام، كان جهاز إنذار غاز أول أكسيد الكربون، حيث لم أعمل على تهوية السخان بشكلٍ كافٍ. فتحت الأبواب والنوافذ سريعاً، وخرجت لأقف في الصحراء، وأنا أرتجف لأنني لم أكن أرتدي سوى ملابسي، حتى تأكدت من أن العربة حصلت على تهوية مناسبة وأصبح الدخول إليها آمناً مجدداً.

في صباح اليوم التالي، أقل فينسنت أسرة فالنتينو إلى المدينة من أجل ملء وعاء بالوقود، بعد أن نفد منهم في سبيل البقاء دافئين. وعادوا يحملون أكثر من المتوقع؛ غنائم من بنك الطعام في كوارتزسايت بما فيها التفاح، والنقانق، وحقيبة بحجم الوسادة تحتوي سلطة مزيج الربيع.

حل عيد ميلاد أليكس العاشر بعد يومين من عيد الميلاد، وأقامت سوانكي حفلة مثلجات من أجله. حصل فينسنت في الوقت نفسه تقريباً على وظيفة بدوام جزئي في شركة دولار جنرال مقابل تسعة دولارات في الساعة. كما كان يبيع المآزر وأكياس الخضروات القابلة لإعادة الاستخدام والتي صنعها بواسطة آلة الخياطة خاصته بعد أن جعلها تعمل على الدواسة بدلاً من الكهرباء. أُهدي أليكس مئزراً في عيد ميلاده، مع نسخة من فيلم سيد الخواتم. كان أليكس سعيداً للغاية. بدا فجأةً أن فينسنت عاد طفلاً صغيراً.

كتبت كات لاحقاً كي تشكر الجميع على «الهدايا المبتكرة والكثير من الضحك من قبل أشخاص أعرفهم منذ بضعة أشهر فقط. أنا متأثرة، وخجولة، ومرتبكة. هذا ما هو عليه العائلة...».

ورددت شيئاً قالته سوانكي سابقاً. لقد قالت لي: «بمجرد أن تبقوا في مخيم سوانكي أكثر من اثنتي عشرة ساعةً، فأنتم من العائلة. لقد امتلكت أسلوباً يجعل الوافدين الجدد يشعرون أنهم مرحب بهم. قادت سوانكي مجموعةً منا في أحد الأيام من أجل رؤية بعض النقوش المنحوتة في صخرة قريبة. كان هنالك شيء مبهج حول تلك الرحلة، فقد كانت عربات الترفيه في قافلتنا متناثرةً خلف سوانكي. شعرت خلال قيادة هالين ومراقبة الغبار يتصاعد من العجلات أمامي، وكأني أقود عربة ركوب الخيل إلى الصحراء الواسعة. علق أحد أعضاء مجموعتنا في حفرة لاحقاً في ذلك اليوم، فأخرجت سوانكي عربته بواسطة عربتها وحزام من النايلون.

لقد حان الوقت من أجل ملتقى ساكني العربات. قدنا عرباتنا جميعاً إلى ساحة غير مأهولة خلف سكادان واش. كان ذلك اجتماعي الثاني، ووجدت نفسي ألحظ أشياء لم تلفت انتباهي في العام الماضي، لا سيما ما أطلقت عليه ساخراً اسم: «إشراقة العيش التي لا تحتمل في عربة».

قالت سوانكي مازحةً في السابق إن ملتقى ساكني العربات بدا مثل «اتفاقية العربة البيضاء»، وقد كان ذلك صحيحاً، إذ إن معظم العربات مطلية باللون الأبيض، وتتلألأ في وهج الصحراء المشرق. كانت هذه العربات موجودةً في كل مكان نظراً إلى استخدامها في مجال التجارة. يسهل شراء واحدة مستعملة منها كما أنها تناسب كل الأماكن، وهذا ما يجعلها خياراً شائعاً لدى ساكني العربات. يواجه العيش في عربة بيضاء تحدياته الخاصة – وهي ما أطلق عليها أحد العاملين في ملتقى سائقي العربات اسم «العامل المخيف»، مثل وجود الصورة النمطية الثقافية والتي تربط العربات البيضاء مع المتحرشين بالأطفال وغيرهم من المجرمين البغيضين. أخبرني أحد

المقاولين، الذي يبلغ من العمر خمسةً وثلاثين عاماً من مدينة سالم في ولاية أوريغون، أنه انتقل إلى عربة فورد إي–150 بيضاء بعد انهيار أعماله، فأطلق عليه أصدقاؤه اسم «المغتصب فان دان» وأصبحوا يطلبون منه الحلوى، لقد كانت مزحةً مؤلمةً رغم أن أصدقاءه لم يقصدوا شراً.

يتعرض سائقو العربات باستمرار – بغض النظر عن لون عربتهم – إلى مضايقات من قبل المارة، الذين يعتقدون أن سائقي العربات لا يصلحون من أجل أي شيء جيد. يروي رجل في منتدى عبر الإنترنت قصته في الوقت ذاته الذي أكتب فيه كلماتي هذه. يقول إنه استيقظ بعد منتصف الليل بسبب مضايقات من الغرباء الذين لا يمتلكون سبباً كي يزعجوه، إذ كانوا يهزون عربته ويصرخون: «أخرج أيها المنحرف اللعين، سنوسعك ضرباً».

ولكن لم تكن العربات البيضاء الشيء الوحيد الذي يدور في ذهني. لقد لاحظت شيئاً آخر، وسأبقى أفكر فيه فترةً طويلةً بعد ملتقى ساكني العربات. كما أن ذكره سيأتي كثيراً لاحقاً، ولا سيما بعد أن رأى أحد أصدقائي الصور التي التقطتها، وهو مصور إفريقي أميركي يتعامل في عمله مع العِرق والاستعمار. قال لي: «معظم الناس في هذه الصور بيض». وأراد أن يعرف السبب.

أردت معرفة السبب أيضاً. لقد التقيت المئات من الأشخاص إلى ذلك الحين والذين يعيشون بهذه الطريقة – العمال الجوالين، وسكان العربات والمنازل المتنقلة من مختلف المناطق. يشكل الناس من غير العِرق الأبيض قلةً بين الناس، ونسبةً أقل بكثير في هذه الثقافة الفرعية.

حسناً، لماذا كل أفراد الحشد من العِرق الأبيض؟ لقد تساءل أفراد مجتمع الرحّل الشيء ذاته. تظهر الصور على صفحة كامب فورس أمازون الرسمية على فيسبوك وجوهاً بيضاء في معظمها، وقد دفع ذلك أحد سكان العربات إلى نشر التعليق التالي: «أنا متأكد من أن الأميركيين من أصول

أفريقية تقدموا من أجل الحصول على هذه الأعمال، ولكنني لا أرى أحداً منهم في صور موظفي أمازون».

تساءلت عن وجود علاقة بين هذا الافتقار إلى التنوع العرقي وحقيقة أن التخييم يجذب جمهوراً من العرق الأبيض بشكل غير متناسب مع غيره من الأعراق، وهو توجه أثبتته دراسات أجرتها دائرة الغابات في الولايات المتحدة. لعل اعتبار «الحياة القاسية» في الهواء الطلق بمثابة إجازة تحتاج ميزةً محددةً. يلخص الموقع الإلكتروني الساخر «أشياء يحبها الناس البيض» على الشكل التالي:

> *إن وجدت نفسك محاصراً وسط الغابة دون كهرباء، ومياه جارية، وسيارة، فمن المرجح أن تصف الأمر على أنه «كابوس» أو «أسوأ سيناريو بعد حادث تحطم طائرة أو ما شابه». يشير الناس البيض إلى ذلك بـ «التخييم».*

أو لعل العنصرية هي المشكلة؟ سألت بعض الرحّل إن كانوا قد رأوا أمثلةً على ذلك في مجتمعهم، فقال معظمهم إنهم لم يلحظوا شيئاً صريحاً. تذكرت إحدى ساكنات العربات حادثاً يعود لفترة طويلة، عندما أهان أحد حضور ملتقى ساكني العربات واحدةً من صديقاتها السود، ناعتاً إياها بـ «السوداء». تقدم بعض الرحّل الآخرين من أجل مواجهة ذلك المتعصب، ولكن الضرر كان قد وقع، وغادرت المرأة المخيم. تصاعد القلق حول تلك الحادثة، وظل يزرع بذور عدم الارتياح. تقول إحدى القواعد الأساسية على موقع بوب ويلز الإلكتروني: «إياك ومهاجمة أحدهم، أو التقليل من شأنه، أو تشويه سمعته». ماذا لو فشل الرحّل في تطبيق ذلك في المجتمع الذي صنعوه في العالم الحقيقي خارج نطاق الإنترنت؟

كتب آش، صديق ليندا من أمازون، على الفيسبوك: «إن الغالبية العظمى منا نحن سكان العربات من البيض. وتتراوح الأسباب بين الواضحة والغبية، ولكن يوجد هذا بعد ذلك». وقد وضع في أسفل المنشور رابط مقال

حول تجربة «السفر وأنت أسود اللون». جعلني ذلك أفكر: تجعل أميركا عيش الناس حياة الترحال أمراً صعباً بغض النظر عن العِرق. إن التخييم خفيةً في المناطق السكنية على وجه الخوص يعتبر أمراً عكس التيار. قد يتضمن الأمر غالباً تجاوز القوانين المحلية التي تمنع النوم في السيارات. ويصعب في بعض الأحيان تجنب المشكلات مع رجال الشرطة والمارة المثيرين للشك، رغم ميزة الخروج المجاني من السجن التي يمتلكها البيض من الناس. يُعد العيش في عربة مناورةً خطيرةً بالنسبة إلى شخص قد يقع ضحية التمييز العنصري على وجه الخصوص، ولا سيما في عصر يتعرض فيه الأفارقة الأميركيون غير المسلحين إلى إطلاق النار من رجال الشرطة خلال توقف حركة المرور.

يجعلني كل ذلك أفكر في الحالات التي وجب أن أواجه مشكلةً فيها ولكنني لم أفعل. ذات ليلة أوقفت في داكوتا الشمالية عندما كنت أكتب تقريري. سألني رجال الشرطة من أين أتيت، وأعطوني بعض النصائح حول مناطق جذب السياح المحلية قبل أن يطلقوا سراحي مع تحذير. لا أشعر بالأسى من الناس عادةً عندما أقود هالين. أتمنى لو أنني أستطيع الاعتماد على الكارما أو نوع من الصدقة الكونية، ولكن تبقى الحقيقة: أنا بيضاء. لقد لعب الامتياز دوراً بالطبع.

تبعت القبيلة إلى إهرينبيرغ بعد ملتقى قاطني العربات، وأدركت في إحدى الليالي التي تناولنا فيها العشاء في عربة أحد الجيران أننا نستعمل دلو المرحاض المغطى ومحكم الإغلاق من أجل دعم الصينية التي تحمل طعامنا. ربما كانت طاولة مرتجلة كهذه ستزعجني في المنزل. ولكنها هنا واحدة من التفاصيل التي تحللت في خلفية واقعنا، حيث كنا في مساحة ضيقة، ونستعمل ما نملك.

بعد أسبوعين، سافرت إلى المنزل في نيويورك، وبعد اتخاذ الترتيبات اللازمة من أجل ركن هالين في موقف سيارات لفترة طويلة. استعدت شقتي في بروكلين، وشعرت بالغرابة إزاء ذلك. إن العيش في مكان ضيق مثل

العربة ورهاب الأماكن الذي تعانيه سيفسحان المجال أمام الكثير من الراحة من أجلك. الجدران قريبة، والنوافذ مغطاة، وكل ما تحتاج إليه تقريباً في متناول يدك، إنه أشبه بالرحم. يمنحك الاستيقاظ صباحاً شعوراً بالأمان، ولو لم تتذكر المكان الذي ركنت فيه عربتك في الليلة السابقة.

كل هذا جعل من عودتي إلى المنزل صادمةً أكثر من المتوقع. كنت أستيقظ في السرير وأنا أشعر بالتشويش طيلة أيام. لقد كانت ممسحة الأقدام كاملة الحجم كبيرةً جداً، والجدران بعيدة جداً، والسقف عالٍ جداً. لقد شعرت بالقلق وأنني مكشوفة بسبب كل تلك المساحة الفارغة. بدت أشعة الشمس التي شقت طريقها إلى الحمام مشرقةً جداً. لقد اعتقدت مرةً ولفترة قصيرة أن نافذتي هي نافذة العربة الخلفية، كنت نصف نائمة حينها.

تلاشى الارتباك بعد الأسبوع الأول في المنزل، وحل مكانه شيء آخر: لقد اشتقت إلى هالين والرُحل. أردت العودة إلى الطريق.

الفصل التاسع
بعض التجارب لا تقبل النقاش

كان التخييم في المناطق النائية البداية فحسب، فقد فتحت قيادة العربة أمامي آفاقاً رحبة كي أكتشفها. عدت لزيارة «الخيمة الكبيرة» في رحلتي الأخيرة إلى الصحراء – يقام مهرجان عربات الترفيه حيث يسعى مندوبو الوظائف من أجل الحصول على خدمات العمال الرحّل في مهن مختلفة حول البلاد. أعطتني امرأة بشوشة منشوراً يقول: «شارك في تجربة لا تقبل النقاش».

لقد أثار حصاد الشمندر السكري السنوي حيرتي فترةً طويلةً من الزمن. بدا عملاً صعباً على الجوالين الذين يشدهم المهرجان، ذوي الأجساد الهرمة والشعور التي يمتزج فيها اللونان الأبيض والرمادي، والذين يشدهم المهرجان. أنعمت النظر في المنشور الذي تضمن اقتباساً من عامل مجهول الاسم، يصف فيه العمل على أنه «يتطلب قليلاً من النشاط، ولكنه ليس صعباً جداً». لم أحصل على ما يكفي من المعلومات، ومعظم ما عرفته عن العمل كان من سؤال الناس في كوارتزسايت.

جلسنا معاً في عربة فليتوود بوندر الترفيهية من العام 1999 والتي تعود إلى غريتشن إيب التي قالت: «لقد كان بارداً. كان مثلجاً. كان رطباً». كانت تقف في هواء مينيسوتا الطلق في ظل درجات حرارة تحت درجة التجمد من أجل جمع الأعمال الورقية من سائقي الشاحنات و«أخذ العينات»، ويعني ذلك

ملء أكياس بلاستيكية عالية التحمل بثلاثين رطلاً من الشمندر، ونقلها إلى محطة العمل، حيث ستجمع لاحقاً وتنقل إلى مختبر من أجل تقييم محتواها من السكر. أخبرني عامل آخر، يدعى براين غور والذي يبلغ اثنين وستين عاماً من العمر، عن الحصاد في مونتانا، حيث قاد جرافة بوب كات لا باب لها، بل ما يشبه النافذة، يدخل منها السائق ويخرج، وأسفر ذلك عن قذف ثمار الشمندر السكري عليه من خلالها – بما فيها تلك التي في حجم الليمون الفردوسي – والتي تطايرت عن حزام النقل المعطل. صاح قائلاً: «لقد كان الشمندر يوسعني ضرباً». شبه الأمر بالتعرض إلى إطلاق النار من مدفع بطاطا آلي، ولكنه سيستمر في العمل لأنه يحتاج إلى المال، وقال: «إن فترة العمل القصيرة تساعد على تحمّل الأمر. لأن دماغك سيتلف في حال تعرضت إلى ضربات الشمندر طويلاً».

مندوبو التوظيف وهم يبحثون في الخيمة الكبيرة عن عمال جوالين من أجل موسم حصاد الشمندر السنوي

أخذت استمارةً من واحد منهم، وقلت في نفسي لم لا؟ لقد قضيت ساعات لا تُحصى في الحديث إلى الرحّل حول وظائفهم الموسمية ولكن لم

أرَ أياً من مواقع العمل مباشرةً. لم أتوهم شيئاً: لن تحولني تجربة هذا العمل الشاق إلى عاملة جوالة بشكل سحري، ولكنها قد تساعدني على أقل تقدير من أجل التعمق في فهم الحيوات التي سمعت عنها كثيراً.

قُبل طلبي بعد أشهر في إكسبريس إمبلويمنت بروفيشنالز، وهي وكالة توظيف، توظف العمال نيابةً عن شركة أميركان كريستال شوغر، ولذلك بدأت المطالعة حول هذه الصناعة. إن الولايات المتحدة الأميركية واحدةً من أكثر الدول التي تنتج السكر الصناعي في العالم، ويأتي 55 بالمئة منه من الشمندر السكري (وما تبقى من قصب السكر). يقع أكثر من نصف حقول الشمندر – قرابة ستمئة وثمانين ألف فدان مزروع – في وادي النهر الأحمر، الذي يمتد بين غرب مينيسوتا وشرق داكوتا الشمالية. إن هذه المنطقة هي موطن شركة أميركان كريستال شوغر، أكبر شركات سكر الشمندر في البلاد. كما أنها حالة خاصة في الأمة، تتباهى حول وجود عمالة كاملة فيها، وهذا ما يجعل الحصول على عمل فيها أمراً صعباً جداً. (كان الأمر أكثر صعوبةً حتى في الوقت الذي ازدهرت فيه حقول النفط في باكين). تبحث شركة أميركان كريستال لهذا السبب عن عمال جوالين قادرين على القدوم – وجلب منازلهم – من أجل العمل في حصاد الخريف.

تسلّحت بتلك المعلومة وزوجين من قفازات الأعمال الشاقة، ووصلت خلال الأسبوع الأخير من شهر أيلول إلى درايتون يارد، وهي منشأة ضخمة في داكوتا الشمالية قرب الحدود الكندية، خصصت من أجل تخزين سكر الشمندر ومعالجته. يمثل الأسبوعان الأولين من شهر تشرين الأول سباقاً مع الزمن نسبةً إلى منتجي الشمندر على امتداد وادي النهر الأحمر. يدعون ذلك في القطاع العسكري بـ «الحملة»، وتبدأ المعركة منتصف الليل في الأول من تشرين الأول، حيث يسارع المزارعون من أجل سحب الشمندر من الأرض قبل أن تتجمد، ويأملون أن تبقى درجات الحرارة دافئةً كفايةً من أجل درء العفن. تسير الشاحنات نصف المقطورة سريعاً على الطرق السريعة المحلية

على مدار أربع وعشرين ساعةً إلى منشآت التخزين محملةً بأطنان من البضائع تقريباً، حيث تكون ممتلئةً عن آخرها، وبالتالي يتناثر الشمندر على جانبي الطريق مسافة أميال في كل الاتجاهات. يدخن السائقون المتعبون كثيراً من أجل البقاء مستيقظين، وتحدث أزمات المرور والحوادث. يلقي بعض المحليين اللوم على قوانين الولاية التي تسمح لعمال المزارع عديمي الخبرة أن ينقلوا حمولات تبلغ عدداً من الأطنان من المنتجات دون الحصول على تراخيص القيادة التجارية المطلوبة من معظم سائقي الشاحنات. تستقبل أكثر من ثلاثين محطة استقبال من شركة أميركان كريستال في الذروة قرابة خمسين ألف شحنة يومياً.

كلفت بورديات عمل مدتها اثنتا عشرة ساعةً ضمن الطاقم الأرضي في «آلة التكديس رقم واحد». كانت محطتنا داخل مستودع، وهي عبارة عن منشأة تبريد ضخمة تشبه حظيرة طائرات ذات نهاية مفتوحة وأرضية خرسانية. كانت هناك كومة من الشمندر تشق طريقها إلى السقف، قدّر مدربنا التوجيهي أن وزنها يبلغ عشرين طناً تقريباً، وقد أحضروها إلى هنا على أنها محصول صغير «كومة أولية» قبل بداية الحصاد الرئيسي. أضاف المدرب أن إنتاجية موسم الشمندر في هذا العام أكثر من العام الماضي؛ لقد رأوا حبات شمندر في حجم كرة السلة.

كان العديد من المحطات الأخرى في الهواء الطلق. أخبرونا أننا محظوظون لأننا سنكون محميين من المطر والثلج، ولكن لا يمكن الحصول على الراحة المطلقة: إذ أن الضجيج والأبخرة كانت الأسوأ. اختلطت في الداخل رائحة الشمندر الموحل مع الغبار والديزل.

قيس وزن الشاحنات بعد وصولها إلى درايتون يارد في كوخ يُدعى المنزل– الميزان. ثم اصطفت في محطتنا. لوّحنا إليها كي تدخل واحدةً تلو الأخرى وتقف إلى جوار آلة التكديس. ثبت قمع عملاق خلف كل شاحنة من أجل تلقي حمل الشمندر، الذي ينقل من هناك على متن حزام ناقل إلى جهاز

دوار من أجل التخلص من الأوساخ الفائضة التي تلقى في الشاحنة مجدداً. يتابع الشمندر طريقه بعيداً عن آلة التكديس على متن حزام ناقل آخر في ذراع طويلة تشبه ذراع رافعة البناء كي يسقط منها أعلى جبل الشمندر المكون من ثلاثة طوابق. سيزداد طول ذلك الجبل كثيراً خلال موسم الحصاد. تتحرك آلة التكديس على حزام عجلاتها المتحرك أحياناً مسافةً قصيرةً إلى الخلف من أجل إفساح المجال أمام جبل الشمندر. سيصل طول كومة الشمندر في نهاية الحصاد إلى ما يعادل طول طائرتي بوينغ 747 تقفان إحداهما أمام الأخرى، وعرضها مثل عرض جناحي الطائرة تقريباً. سيساعد نظام التهوية بالهواء المدفوع على إبقاء كومة الشمندر جامدةً تقريباً إلى حين نقلها إلى المصفاة.

لقد كانت العملية صاخبةً جداً، وسريعةً للغاية، وفوضويةً كثيراً. تضمن عملنا التنظيف المستمر: كنا نعيد أكوام الشمندر التي تسقط – بعضها في حجم الديك الرومي المجمد – إلى الأقماع بواسطة مذار ومجارف زراعية. (إن الوقوف هناك دون فعل شيء يثبط الهمة، وقد كان شعار أحد المديرين المفضل: «إن استطعت الانحناء، يمكنك التنظيف). كنا نتخلى عن المجارف عندما يصبح تكرار رفع الكتل صعباً للغاية، ونلجأ إلى رفع الصغيرة منها بواسطة يدينا. وإن لم نتحرك سريعاً بما يكفي، فستطلق مراقبتنا – والتي انتعلت حذاء رعاة البقر وردي اللون، وضرجت وجهها بمساحيق التجميل – من غرفة التحكم المرتفعة بوقاً يشبه صوته صوت غواصة حربية من الحرب العالمية الثانية وكأنها تلقم القذائف، ثم تشير إلينا محمومةً بإيماءات التجريف عبر النافذة. سقطت في تلك الأثناء من الحزام الناقل في الأعلى أجزاء من الشمندر وكتل من التراب على كل شيء تحته، فتلوثت سترات الأمان الصفراء خاصتنا، وقبعاتنا الخضراء الصلبة. عندما رفعت يدي إلى إحدى زميلاتي في العمل كي أشير إلى شاحنة قادمة – حيث كان من الصعب سماع بعضنا حتى عندما نصرخ فوق ضجيج الآلة، سقطت على معصمي بقوة حبة شمندر بحجم تفاحة. تضمن عملنا أيضاً الحفاظ على الأرضية خاليةً من الطين

الكثيف والزلق بواسطة مجارف الثلج التي تعلق ضمنه باستمرار وتحتاج أن تدفعها بكامل جسدك كي تخرجها. وجب علينا أخذ العينات أيضاً، إنها المهمة التي أخبرتني غريتشن عنها. ما لم تخبرني به هو وجوب فتح كل كيس من الأكياس البلاستيكية تحت شلال عمودي يندفع من آلة التكديس؛ يجب أن تدعم نفسك من أجل امتصاص تأثير اندفاع حبات الشمندر إلى الكيس وتثبيته، ويشبه الأمر إمساك كريات البولينغ بواسطة غطاء وسادة.

كان تنظيف آلة التكديس هو الجزء الأصعب. أطفأ مشرفنا الآلة العملاقة كي ندخلها ونكشط الأوساخ عن ذراعها المائلة بواسطة مجارفنا – لقد كانت إزالة الطين لغزاً يستحيل حله – فنحصل على شرائط من الطين في سماكة أطر عجلات السيارات. صرخت مراقبتنا إلينا من أجل «بذل المزيد من الجهد»، موضحةً أننا نمتلك خمس عشرة دقيقةً. كان التوقف عن العمل باهظ الثمن.

حان موعد وردية عمل تمتد لاثنتي عشرة ساعةً بعد يومين من تلقي التوجيهات. عدت بعد الانتهاء إلى موقع التخييم الخاص بي في الظلام، متجاوزةً لافتة التوظيف من أجل الحصاد «تجربة لا تقبل النقاش». لقد كانت كل بوصة في جسدي تؤلمني، ولا سيما ظهري وكتفي؛ لقد أحسست بالإصابات القديمة والرضوض التي أصبت بها منذ زمن بعيد ونسيتها. فاجأني ذلك لأنني كنت في السابعة والثلاثين من عمري وفي حالة جيدة نسبياً، فضلاً عن وجود أناس في سن التقاعد ويعملون في بعض المحطات. كنت آمل الحصول على حمام دافئ – لقد تلقينا وعوداً بالوصول إلى مرافق الاستحمام – ولكن ذلك الجزء من المخيم كان قيد الإنشاء. طهوت العشاء في العربة، وخلدت إلى النوم دون تغيير ملابسي ورأسي يؤلمني بشدة. واستيقظت فجر اليوم التالي كي أبدأ ما تبين أنه وردية عمل حافلة بالأحداث. لقد علق عمود معدني يبلغ طوله سبع أقدام في آلة التكديس، حيث كان جزءاً من حصادة معطلة ومخفياً في حمولة الشمندر. أطفأت مشرفتنا المعدات بشكل طارئ

في الوقت الذي وصل فيه العمود إلى أعلى الناقل الأول جزئياً، واقترب من الوعاء الدوار الذي يزيل الأوساخ عن الشمندر، لو أنه وصل إليه لكان أحدث ضرراً جسيماً في الآلة، وأذيةً على الأرجح للعمال الواقفين على الأرض قريباً منها. كما سقط لاحقاً في ذلك اليوم أحد زملاء العمل على الخرسانة الزلقة واضطر إلى تقديم تقرير عن الحادث لأن ركبته تورّمت.

من بين جيراني العاملين في المخيم كان هناك شخص يدعى دان يبلغ من العمر تسعةً وستين عاماً. لقد ترك وظيفته كسائق شاحنة في وال مارت في العام 2006 بسبب مشاكل طبية. أخبرني دان أنه اضطر أن يتوسل إلى رئيس العمال من أجل إعفائه من المناوبة الليلية حيث كاد العمى يتمكن من عينه اليمنى كلياً وكان يحتاج إلى ضوء النهار من أجل أن يدرك ما حوله. لقد عاشت زوجته أليس معه في منزلهما المتنقل، ولكن منعتها من العمل إصابتها بالتصلب الجانبي الضموري التي شخصت في كانون الثاني. كان هنالك أناس آخرون متقدمون في السن في المخيم تتراوح أعمارهم بين الخمسينات، وآخرون في مثل سني أو أصغر. سكن إلى يميني مباشرةً زوجان في العشرينات من عمرهما من أفراد كراست بانك – نمط من الموسيقى تأثر بالروك الإنكليزي – في شاحنة بيك آب سوداء غير لامعة، كانا يتناولان أكواباً من معكرونة رامن – طبق ياباني– وينامان في المقاعد الأمامية. كما قابلت أيضاً عاملاً ملتحياً يقود دراجته عبر مخيم المنازل المتنقلة، وأطلق على نفسه اسم أوفر رايد. لقد أخبرني قليلاً عن فلسفته: «عندما تستيقظ في صباح ماطر، تستطيع وصفه بأنه يوم سيئ، أو يوم رائع. أنا أختار أن أقول إنه يوم رائع».

شعر الجزء المتعب مني، والمتألم، والذي تغطيه الأوساخ أنه مسؤول تجاه الأشخاص الذين التقيتهم، وأردت أن أواجه الصعوبات حتى نهاية الحملة. ولكن هذه التجربة لم تكن سترتقي بي إلى مراتب العمال الجوالين الحقيقيين بغض النظر عن المدة التي سأقضيها فيها، حيث سأعود إلى المنزل في النهاية

من أجل الكتابة. لقد رأيت – وشعرت على وجه الخصوص – إلى الآن ما يكفي من أجل معرفة أن العمال الذين التقيتهم لم يبالغوا في تجاربهم. ولذلك أخبرت رئيسة العمال في واحدة من الليالي بعد انتهاء مناوبتي أنني سأترك العمل، ولكن ذلك لم يفاجئها؛ لقد كان الإنهاك شائعاً بين العمال. علمت بعد أيام قليلة أن معظم زملائي في العمل في محطة التكديس التي عملت فيها قد استقالوا، وسمعت أن امرأةً في محطة أخرى قد كسرت معصمها. شعرت بارتياح يشوبه قليل من الذنب لأنني لم أكن مكانها.

قدت عربتي بعيداً عن درايتون يارد في الظلام، متجاوزةً رتلاً من الشاحنات نصف المقطورة التي تسير في الاتجاه المعاكس. رأيت في المرآة الخلفية لافتة النيون الحمراء الخاصة بالمصفاة والتي كتب عليها «أميركان كريستال شوغر»، وتوهجّت عبر البخار المتصاعد من المصنع. قضيت تلك الليلة في فندق في غراند فوركس، حيث أخذت حماماً دافئاً منعشاً، ودخنت الماريجوانا، وغفوت خلال محاولتي إيجاد فيلم كي أشاهده.

***

أرسلت طلبين مختلفين في الوقت نفسه من أجل الحصول على عمل، أحدهما إلى كامب فورس، والآخر من أجل حصاد الشمندر السكري. تطلب الحصول على العمل في أمازون الخضوع إلى فحص المخدرات قبل التوظيف، وهو تصرف أزعجني دوماً لكونه منتهكاً ومهيناً، وبدا أكثر سخافةً في نظري عندما تخيلت أن ساكني العربات المسنين عبر البلاد يقدمون أنسجةً أو سوائل من أجسادهم من أجل تحليلها في سبيل الحصول على عمل مؤقت وغير مستقر ومنخفض الأجر.

لقد بحثت بالفعل في سياسة الاختبار في شركة أمازون، ووجدت الموظفين يتحدثون حول اختبار «كشط الخد». تكشف وسيلة المسح هذه معظم المخدرات بما فيها الماريجوانا خلال بضعة أيام من تعاطيها فحسب.

أدركت أنني في مأمن، فقد أخبرت أمازون سابقاً أنني أستطيع إعلامهم حول بدء العمل في شهر تشرين الثاني.

تلقيت رسالةً إلكترونيةً من كامب فورس بعد عودتي إلى المنزل، وقد حددوا موعد البدء: الرابع من تشرين الثاني في مستودع أمازون في هاسليت في تكساس، قرب فورت فورث. تلقيت رسالةً أخرى بعد بضعة أيام تتضمن مهلةً أقصاها اثنتان وسبعون ساعةً من أجل إجراء فحص المخدرات في جادة أتلانتيك، قرب شقتي. لم أجد مشكلةً في الأمر، حتى برزت مفاجأة غير سارة من الرسالة الإلكترونية مفادها أنني سأخضع إلى فحص بول.

يمكن الكشف عن الماريجوانا في البول بعد فترة تصل إلى أشهر من تعاطيها، حيث تختزن مستقلباتها في الأنسجة الدهنية. لقد حدد موعد الفحص بعد أسبوع ونصف من التدخين في داكوتا الشمالية، وكان لا بأس بذلك نسبة إلى فحص مسح الخد، في حين كان الأمر متذبذباً بالنسبة إلى فحص البول. طلبت عشر عبوات من شرائط اختبار تي إتش سي – تي إتش سي هي المادة الفعالة في الماريجوانا – من أمازون، وجربت واحدةً منها. ظهر الخط الذي يبين سلبية المخدرات، ولكنه كان باهتاً جداً بشكل مخيب. قالت التعليمات أن ظهور أي خط – بغض النظر عن شدة لونه – مجاز من أجل تجاوز الاختبار. كان الخط خاصتي بالكاد مرئياً، ولذلك لم أرغب في المخاطرة.

كان هناك طريقة واحدة مضمونة من أجل التحايل على الفحص وتجاوزه: تهريب بول نظيف. ولحسن الحظ، ما زال لديّ تسعة شرائط تي إتش سي غير مستخدمة، والتي وزعتها على الأصدقاء والأحباء، وسرعان ما وجدت متبرعاً بينهم وفر عينةً نظيفةً من البول من أجلي. خزنتها في علبة صابون الاستحمام، وخبأتها في ملابسي الداخلية في يوم الفحص، وارتديت سروال جينز ضيق من أجل تثبيتها في مكانها. أخبرني أحد التقنيين بعد الانتهاء من الاختبار أنني سأستلم النتيجة في غضون ثمان وأربعين ساعةً.

لم أتلق أي رد من المختبر، ولكن وردتني رسالة إلكترونية من كامب فورس مفادها: أنني أستطيع العمل. عدت إلى العربة خلال فترة قصيرة، وشددت الرحال إلى هاسليت في تكساس.

***

بدأ التدريب في صباح يوم أربعاء، في صف درسي في مستودع أمازون والذي ضم واحداً وثلاثين فرداً. قال مدربنا محذراً: «سنبذل جهداً بدنياً ضخماً هنا، ستمارسون ألف تمرين قرفصاء يومياً تقريباً، وهذه ليست مبالغةً. ها نحن قادمون أيتها المؤخرات الفولاذية! أليس كذلك؟».

ضحك عدد قليل من المتدربين. جلسنا إلى طاولات طويلة وفقاً للترتيب الأبجدي مثل أطفال المدارس. لقد تجاوز معظم الحضور الستين من العمر، وكنت الوحيدة تحت سن الخمسين، وواحدة من ثلاثة عمال لا يمتلكون شعراً رمادياً. قيل لنا إن مديري مخزن هاسليت طلبوا ثمانمئة عامل من أجل كامب فورس، واستقبلوا أكثر من تسعمئة طلب، ولم تستوعب مواقف المقطورات في الجوار جيش الرحّل كاملاً. خطرت في بالي فكرة أخرى – استئجار مرعى أبقار – ولكن رفضتها على الفور. (هل تستطيع أن تتخيل حقلاً متجمداً خلال واحدة من عواصف تكساس الثلجية الجليدية الشهيرة، مع مئات من العمال كبار السن والذين يفتقرون إلى الكهرباء، والماء، ومجاري الصرف الصحي؟ إنه كابوس من العلاقات العامة).

تفقد المديرون في النهاية عدداً محدوداً من عربات الترفيه ضمن عدد من مواقف المقطورات في مدى أربعين ميلاً. لقد وظّفوا مئتين وواحداً وخمسين عاملاً في كامب فورس، وهو أقصى ما استطاعوا تأمينه من الشواغر. وبالتالي أجبر بعض الموظفين الجدد على التنقل تسعين دقيقةً يومياً فضلاً عن وردياتهم التي تستغرق عشر ساعات. أخبرتني امرأة تعيش في

شاحنة فورد بيضاء أنها تخطط من أجل «التخييم خلسةً» في موقف سيارات أمازون مرتين كل أسبوع توفيراً للوقود والوقت.

اعتذرت مدربتنا عن المتاعب التي وقعت – وهي نفسها من ساكني عربات الترفيه وعمال كامب فورس المخضرمين. وعبّرت عن سعادة شركة أمازون بالترحيب بنا، وقالت: «يُعرف عن المخيمين النزاهة، والحضور، والجودة. نحن نعلم كيف تكون الأمور في نهاية يوم شاق، وهذا ما تعتمد عليه شركة أمازون، حيث إنها تشجع هذه المجموعة الخبيرة من الناس من أجل كسب الغنائم. عرف عن مجموعتنا «تأثير كامب فورس»: وهي مجموعة أخلاقيات العمل من حقبة أيزنهاور القابلة للتطبيق والتي أصبحت جزءاً من العمال الشباب الأقل خبرةً. في الأيام التالية بدا أن فريقنا امتلك تأثيراً صغيراً على زملائنا الساخطين من جيل الألفية، لقد شعرنا بـ «الملل» و «التعب» كما في العشرينيات.

لقد امتلكنا مجموعةً واسعةً من الخبرات على أقل تقدير. جلس إلى جانبي قس في الستينيات من عمره يدعى كيث، وله عشرة أطفال (خمسة منهم بالغون وخمسة آخرون يعيشون معه في عربته). أخبرني تشارلي الذي بلغ السابعة والسبعين أن ركبتيه أصيبتا بسبب سنوات من العمل ميكانيكياً في مجال تعدين النحاس. تقاعد إد وباتريسيا في أواخر تسعينيات القرن الماضي من عمليهما فقعد عمل إد شرطياً دراجاً وعملت باتريسيا ساعية بريد على التوالي. لقد مضت أربعون سنةً على زواجهما.

تدربنا معاً من أجل العمل في قسم يُدعى: ضمان جودة مراقبة المخزون، أو اختصاراً (آي سي كيو أي – ICQA). بدا العمل سهلاً، وتضمن فحص البضائع من أجل التأكد من مطابقتها سجلات الجرد الرقمية. ولكننا أدركنا سريعاً أن مخزننا – الأكبر في شبكة شركة أمازون والذي تفوق مساحته مساحة تسعة عشر ملعب كرة قدم – ليس إلا متاهةً محفوفةً بالمخاطر. حيث تجد أكثر من اثنين وعشرين حزاماً ناقلاً تحمل الصناديق ضمن المبنى على

هيئة قطار الشحن، وقد كانت تزدحم بالبضائع سريعاً. طلب منا الإبقاء على شعرنا مثبتاً إلى أعلى وتجنب ربط السترات حول خصورنا كي لا تعلق في البكرات، كما استخدمت شرائط قصيرة من أجل شارات الهوية التي تدلت من أعناقنا تجنباً للاختناق. ضجّ صوت بوق في الأرجاء، وعندما سألت عن معناه أجابني أحد زملاء العمل أن حزاماً عالقاً قد أصلح ويعاد تشغيله مجدداً.

وجدت أن كلاً من بارب وتشاك ستاوت يعملان في هاسليت أيضاً، وقد رأيتهما في كوارتزسايت يحرقان أوراق إفلاسهما. كان تشاك يقف بالقرب من أحد الأحزمة الناقلة في الوقت الذي سقط فيه أحد الصناديق الورقية وطرحه أرضاً، فاصطدم رأسه بالأرضية الخرسانية. سرعان ما اجتمع حوله طاقم أم كير الطبي المختص بالخدمات الطبية الداخلية. قالوا إنه لم يصب بارتجاج، ولذلك يستطيع العودة إلى عمله في قسم الاستقبال حيث يمشي خمسة عشر ميلاً يومياً. (التقيت تشاك وبارب مجدداً في بوفالو واليلد وينغس بين الورديات. أخبراني أنه وقبل وصولي إلى تكساس، شن منظمو النقابات حملات على موقف سيارات المستودع، وقد ألقى المديرون على مسامعنا مرتين يومياً على مدى الأسبوعين الماضيين تقريباً محاضرات حذروا فيها من الاقتراب ناحية منظمي النقابات، والأهم من ذلك عدم التوقيع على أي شيء. وقد ذكر تشاك قول المديرين إن معلومات الموظفين الذين انخرطوا مع المنظمين ستصبح ضمن قاعدة بيانات النقابة، وستُستعمل من أجل «تعقّب» أولئك الموظفين من أجل التواصل معهم).

لقد تعلمنا خلال التدريب أن منشأتنا واحدة من عشرة مراكز توزيع تستخدم شركة أمازون فيها رجالاً آليين من نوع «شيربا» – رجال شيربا الآليون مصممون من أجل الحركة بسهولة في البيئات الوعرة وصعود ونزول السلالم وزودت بستة أرجل مفصلية تساعدها. يبلغ وزن تلك العجائب قرابة مئتين وخمسين رطلاً وتبدو مثل مكانس رومبا الكهربائية. إنها «وحدات قيادة» عملياً، ولكن معظم الناس يدعوها «كيفا» على اسم الشركة المصنعة المطبوع على

جانبها. تتجول هذه الآلات داخل قفص معتم، إذ إنها لا تحتاج إلى الضوء من أجل الرؤية، على أرضية تسمى «حقل كيفا». تقتضي مهمتهما نقل البضائع من الرفوف المفتوحة المليئة بالبضائع إلى المحطات التي يديرها البشر ضمن نطاق عملها. لم يسمح لأي شخص خارج أعضاء وحدة العمل المسماة «أمنيستي» بالدخول إلى حقل كيفا حتى عند سقوط البضائع عن الرفوف هناك. أتيح للعمال العاديين محاولة التقاط تلك البضائع من خارج القفص بواسطة «أداة أمنيستي للاستعادة». (وعلى الرغم من هذا الاسم الرنان، فإن الأداة لا تعد تعدو بكرة طلاء بحامل طوله خمس أقدام. كانت موجودةً في كل المحطات). عندما أردت محاولة استخدامها، أخبروني أن عليّ الانتظار: يتطلب استخدام هذه الأداة تدريباً خاصاً.

لقد سمعت كثيراً من الصخب حول كيفا. إنها إما ابتكار يحرر البشرية من إجهاد جسد المرء دون عقله، أو نذيراً لعالم البطالة المرير، حيث عفّ الزمن عن العمل اليدوي تزامناً مع استحالة الفجوة جداراً بين الفقراء والأغنياء.

كان الواقع أقل إثارةً للجدل، وأكثر خشونةً، مثل نسخة محدثة من فيلم تشارلي تشابلن موديرن تايمز. لقد روى لنا المدربون قصصاً ممتعةً حول جموح الرجال الآليين، حيث غادر آليو كيفا عبر فتحة في السياج دون أمر رسمي. وحاول آليو كيفا سحب درج نقال من المحطة في ظل وقوف أحد العمال عليه. نادراً ما يصطدم آليا كيفا ببعضهما – يحمل كل منهما بضائع تزن سبعمئة وخمسين رطلاً – مثل مشجعي كرة القدم الأوروبيين السكارى الذين يضربون صدور بعضهم ببعض. كما أنهم يسقطون أشياء في بعض الأوقات، ويدهسونها في أوقات أخرى أيضاً. وقعت في شهر نسيان عبوة «رذاذ مضاد للدببة» (يدخل في تركيبها رذاذ الفلفل الصناعي بشكل أساسي) من حمولة أحد الآليين ودهسها آلي آخر. لقد وجب إخلاء المستودع مباشرةً. عالج

المسعفون سبعة عمال في الخارج، وأسعف آخرون إلى المستشفى بعد إصابتهم باضطرابات تنفسية.

لقد طلبوا منا، بعيداً عن اللصوص الآليين، الانتباه إلى الإجهاد المفرط. حيث كتب في ملصق تحذيري: «استعد من أجل الألم!». إن وصفت يوماً ما بأنه يوم جيد، فسيقول لك أحد مدربينا مازحاً: «ما كان يجدر بك تناول أكثر من حبتي تايلونول الليلة الماضية». توفر الموزعات المثبتة على الجدران والتي تحمل اسم «ليل ميديك» مسكنات ألم عام مجانية. يمكنك شراء الحاجيات التي تحمل علامةً تجاريةً من غرفة الاستراحة إن أردت ذلك، كعبوة من فايف أول إنيرجي على سبيل المثال.

تجولنا في المبنى. رأينا لوحات جدارية لتميمة مستودع أمازون – كانت رسماً كاريكاتورياً برتقالي اللون يشبه الفقاعة ويدعى «بيرسي: الشاب المتميز» – وشعارات أورويلية – نسبةً إلى ما حدده جورج أورويل على أنه نشاط اجتماعي يدمر رفاهية المجتمعات الحرة – مثل: «المشاكل عبارة عن كنوز»، و«التغيير هو العدو، دورة تصنيع المنتج هي المفتاح». (إن «دورة تصنيع المنتج» عبارة عن مصطلح تجاري وتعني الوقت اللازم من أجل إنتاج وحدة واحدة من المنتج، وتستخدم من أجل تنظيم وتيرة العمل). كشف التقويم السنوي تسجيل حادثة واحدة يومياً على الأقل تتعلق بالسلامة في شهر تشرين الثاني الحالي. وأشار مرشدنا إلى وجود «جدار العار» الذي يحمل وصفاً مجهول الاسم للعمال المطرودين، وقد مثلت كلاً منهم قصاصة فنية: صورة مظللة سوداء لرأس تغطيه كلمة «موقوف» في أحرف حمراء كبيرة، وأخرى تحمل كلمة «مفصول». لقد سرق أحد العمال هواتف آيفون محمولةً وهربها إلى الخارج ضمن حذائه ذي الرأس الصلب، وقبض على فرد آخر يتناول البضائع بدلاً من وضعها على الرفوف (لقد تناول ما قيمته 17.46 دولاراً تحديداً من منتجات الأطعمة، وقد ساعد مظهره على التعرف إليه). كانت الصرامة هي القاعدة. طلب منا أن نسير في الممرات ذات الشريط الأخضر

على الأرض، وقد وبخ الدليل أحدنا عندما تجاوز إحدى الزوايا. وجدت عند ذهابي إلى المرحاض وجود مخطط ضمن الحجيرة تظهر فيه ألوان تراوحت من الأصفر الشاحب إلى الأحمر الداكن المرعب. استدللت منه على اللون الذي يطابق لون بولي منها، وارتأيت بناءً على ذلك وجوب شرب المزيد من الماء.

قضيت أسبوعاً في المستودع، وأدهشتني كمية المعلومات التي حصلت عليها في تلك الفترة. كانت تأتي في بداية كل وردية عمل مديرة شقراء في العشرينات من العمر، وقد سرحت شعرها على شكل ذيل حصان وتلقي التحية مترنمةً على مجموعتنا المسنة في غالبها: «مرحباً أيها المخيمون»، في حين يشرف علينا مساعدها خلال تمارين التمدد. مسحت بعد ذلك الرموز الشريطية على كل شيء بدءاً من القضبان الاصطناعية (الشركة المصنعة «كلاود 9»، الطراز «قضيب ممتع»)، إلى متجر سميث وويسون غان وارب (متوفر في شكل أنسجة حبيبية ومطاطية) وبطاقات هدايا من أي إم سي بقيمة خمسة وعشرين دولاراً (كان هناك مئة وست وأربعون بطاقة، ويجب مسح كل منها على حدة).

ذات مرة، اقترب أحد رجال كيفا الآليين من مكان عملي حاملاً خزانة رفوف. لقد شممت رائحةً عطر مقززة ازدادت كثافتها مع اقترابه أكثر. لقد ذكرتني تلك الرائحة... بالجامعة لسبب ما؟ لقد كان ذلك غريباً. وضعت الرفوف أمامي، فرأيت ثمانية عشر صندوقاً من عيدان بخور البتشولي – نوع من النبات – في انتظار مسحها. لقد علقت رائحتها في يدي.

أزيل محتويات الرف الذي يحمله الرجل الآلي من أجل مسح الرموز الشريطية

ارتديت كمامةً، وأنهيت العمل، وضغطت زراً كي يبتعد الرجل الآلي. كان هناك ثلاثة رجال آليين في الانتظار إلى يمينه والتي تشبه كلاب لابرادور ريتريفرز الخاصة بالمرضى. جاءني رف جديد بعد أن أبعد القديم النتن، ولكن الرجل الآلي الذي يحمل عيدان بخور البتشولي عاد مجدداً بعد خمس دقائق. أعدت مسح كل شيء سريعاً فغادر مجدداً، وعاد بعد خمس دقائق أخرى. لم أعلم إن كان ذلك دليلاً على أن البشر أذكى من الآليين، أم أنه يتردد عليّ من أجل عد البضائع دون فائدة مرةً تلو الأخرى كي يعتمد في حساباته على أفضل نتيجتين من أصل ثلاثة؟ انتهت وردية عملي بعد إرسال الرف للمرة الثالثة. وانضممت إلى زملائي كي نغادر. لقد استطاعوا شم رائحة البخور. صاح القس كيث: «تحيا ليلة السبت».

ستكون مناوبة الليلة التالية هي الأخيرة بالنسبة إليّ. لقد عملت بضع ساعات إضافيةً مع رجال كيفا الآليين. حاولت أن أهدئ من روعي، وأدخل في حالة من التأمل. مؤخراً، أخبرتني عاملة أخرى في كامب فورس، وهي سبعينية بيضاء الشعر، أنها أوشكت على الاستقالة لأن أولئك الرجال الآليين يغضبونها. لقد استمروا في جلب الرف ذاته إليها كي تمسحه مراراً وتكراراً،

وهذا شبيه بالمشكلة التي صادفتها مع عيدان البخور، بعد أن مسحت المرأة البضائع ثلاث مرات، حمل الآلي الرف إلى زوجها في محطة تبعد خمساً وعشرين قدماً، لقد أعاد مسحها ست مرات في المجمل. حكت لي قصتها خارج غرفة الاستراحة في الوقت الذي تجاوزنا فيه عاملةً بشوشةً من طاقم التنظيف تنفض الغبار عن الخزائن. تناست حكايتها وحدقت إلى العاملة وسألتني: «كيف حصلت على هذا العمل؟ أنا أفضل أن أعمل مثلها، أنا أفضل تنظيف المراحيض».

طلب مني أحد المديرين أن أمسح بعض الأشياء في «دامج لاند»، حيث توضع كل البضائع التالفة. ولكن قراءة الماسح الضوئي اليدوي خاصتي تقول إنه من المفترض أن أقود رافعةً شوكيةً. (أنا لا أعلم كيفية قيادة رافعة شوكية). لم يعرف المدير ماذا يفعل. أعدنا تشغيل الماسح مراراً وتكراراً. في النهاية وصلت إلى دامج لاند. قضيت بضع ساعات في جرد العلب المبعوجة، والصناديق المعطوبة، وهدية غريبة تدعى منشفة الوجه/الخلفية، وبعد ذلك انتهت وردية عملي.

مررت إلى جوار ثلاث عاملات أخريات في كامب فورس وقد امتثلن تماماً إلى الأوامر الخاطئة على ماسحاتهن الضوئية. جلسن بلا حراك خارج غرفة الرفوف وقد أسندن ظهورهن إلى الجدار. كان الوقت المناسب من أجل الاستقالة، ولكني لم أقرر كيفية فعل ذلك بعد. لقد تملكتني رغبة ملحة كي أتصرف بحماقة. لقد أخبرونا بوجود فعل واحد يستدعي الفصل الفوري من العمل. ماذا لو ركضت متهورةً إلى حقل كيفا؟ لقد تخيلت سابقاً خلال الأسبوع ما سيبدو عليه الأمر. كيف سأشعر عندما أتجول في تلك الممرات المعتمة، وأراوغ رجال كيفا الآليين المشغولين، وكأني أمارس نوعاً من باركور بروليتاري اعتيادي؟ كم سيستغرق الأمر من فريق أمنيستي كي يمسك بي؟ وما الذي سيحدث إن تمكنوا مني؟ (لقد حدثت أشياء أكثر غرابةً من تلك التي

تجول في رأسي، إذ سمعت عن عاملين عاشقين طردا بعد أن حاولا أن يتواعدا في حقل كيفا).

لقد جئت إلى هنا كي أجمع القصص، وليس كي أمثل مشهداً من فيلم بريفهارت. كما أنني لا أريد خسارة ملاحظاتي التي جمعتها بعناية على دفتر صغير في جيبي الخلفي. كما كنت أملي الملاحظات جهراً إلى مسجل صوت مخفي في قلم، وصورت مقطع فيديو بواسطة آلة تصوير تبدو مثل سلسلة مفاتيح. علقت الجهازين على الشريط القصير الذي يحمل بطاقة تعريفي بصفتي عاملة في الموقع.

مشيت إلى محطة الأمن عند مخرج المستودع. وضعت الشريط وما عليه في سلة مصممة على نمط تي إس أي مخصصة من أجل المفاتيح والفكة، ثم دفعته عبر منحدر إلى الحارسة الأمنية كي أعبر جهاز كشف المعادن. توقفت وقد نال مني التوتر، حيث نظرت مراراً وتكراراً إلى السلة والحارسة الأمنية التي بالكاد نظرت إلى محتوى السلة، بل رمقتني بعينيها ورفعت حاجبيها وكأنها تقول: «ماذا تنتظرين؟». ولذلك تمنيت لها ليلةً سعيدةً وغادرت.

القسم الثالث

الفصل العاشر
الكلمة إتش

خيّمت لافون وحدها خلسةً في سان دييغو بعد انتقال ليندا إلى سكويز إن. لقد كانت محبطةً بعد خوضها بضعة أشهر صعبة، حيث تعطل منزلها المتنقل السابق – عربة جي أم سي سفاري طراز 2003 والتي أسمتها لافان – بعد ملتقى ساكني العربات الأخير، وقد تركها ذلك عالقةً في إهرينبيرغ من دون مالٍ كافٍ من أجل الإصلاحات. وزاد الطين بلةً أنها كانت مدينة ببضعة آلاف من الدولارات من ثمن عربتها التي تعطلت كثيراً في السابق ولا تساوي شيئاً الآن. قررت البقاء على حالها وانتظار شيكات الضمان الاجتماعي. وافقت لوري، المرأة التي تعيش مع ابنها في تشيفي تاهو، أن ترافقها لافون من أجل شراء الخضار، ووجدت الأخيرة العزاء في احتضان شريك سفر جديد: جرو مشاكس يدعى سكوت والذي أنجبته كلبة لوري.

انتهى أمر لافون بالعيش في عربتها المعطة شهراً ونصف الشهر تقريباً، والذي ارتفعت فيه درجات الحرارة وتناقص أفراد العشيرة حولها. أخيراً، تمكنت من تحمل كلفة سحبها إلى ورشة الإصلاح، حيث طلب منها ثلاثة آلاف دولار من أجل إصلاح المحرك، وقد فاق ذلك قدرتها المادية. كانت تنزه سكوت في الجوار عندما رأت عربة تشيفي إكبريس سعتها اثني عشر راكباً في إحدى ساحات السيارات المستعملة. خرج مندوب مبيعات من المكتب، وقال إنه

يستطيع مساعدتها في الحصول على قرض رغم سوء حالتها المادية. لم يكن ذلك مفاجئاً، فقد ارتفعت قروض رهن السيارات كثيراً في السنوات الأخيرة.

ترددت لافون عندما علمت بالشروط، ولكن لم يكن لديها خيار؟ أخبرتني لاحقاً: «لو لم أفعل ذلك، كنت سأصبح مشردةً». أطلقت على العربة اسم لا فان تو.

كانت تلك التجربة بمثابة معركة قصيرة غير مرحب بها رافقتها كلمة إتش[12] المخيفة: التشرد. يتجنب معظم الرحّل هذه الصفة وكأنها عدوى. إنهم «بلا مأوى» في نهاية المطاف، في حين تشير كلمة «المشردين» إلى أناس آخرين.

شعرت لافون أن تلك الكلمة تطاردها حتى بعد النجاة من إهرينبيرغ والعودة إلى سان دييغو المألوفة. كتبت على مدوّنتها، ذا كومبليت فلايك:

– يعتقد الناس أنك مشرد عندما تسكن في عربة في المدينة.

– وينتابك الشعور بأنك مشرد إزاء اعتقادهم هذا.

– لذلك تبدأ الاختباء في العراء... وتفعل كل ما في وسعك كي تبدو «طبيعياً»...

– لا يسعك سوى الاستياء على أقل تقدير عندما يبستم إليك رجل عجوز ويلقي التحية وكأنه يعرفك، وأنت تدرك أنه مشرد ويخبئ كيس القمامة الخاص به في الشجيرة قرب عربتك.

– لأنك تدرك أنك انضممت إلى نادي سكان الشوارع المتنامي، ولا فرق بينكما في نهاية المطاف.

بعد بضعة أيام، أدلت لافون باعتراف يشوبه الإحساس بالذنب. شرحت في منشور جديد كيف أنها اعتمدت على قروض يوم دفع الرواتب – قروض بمبالغ صغيرة وقصيرة الأجل وغير مؤمنة، حيث يتعهد المقترضون بسدادها

من شيك الراتب التالي – من أجل العيش خلال الشهر، وحصلت على مئتين وخمسة وعشرين دولاراً في كل منها، ويجب سدادها خلال أسبوع مع فائدة تبلغ خمسةً وأربعين دولاراً مقابل كل قرض. كانت مستاءةً وخجولةً. كتب صديقها سمير سريعاً من ملتقى ساكني العربات، والذي كان يسافر مع كلبه التشيواوا، بيكو:

أتمنى لو أنني قريب منك يا أختي كي أحتضنك، أود أن أخبرك أنك لست وحدك من عايشت هكذا ظروف. ما زلت أذكر عندما جلست مع بيكو في غابة دولوريس في كولورادو قبل ثمانية أيام من يوم دفع الرواتب وإبرة عداد خزان الوقود تشير إلى أنه فارغ تقريباً، امتلكت طعاماً يكفي خمسة أيام وماءً يكفي يومين...

... يصعب تقبل الفقر وحقيقة أن الناس قد يعتبرونك فقيراً. لقد أخبرونا أن أسلوب الحياة هذا مثير ومبتكر، وهو كذلك فعلاً، ولكن حقيقة لجوئنا إليه تنطوي ضمن أوضاعنا الاقتصادية... إليك بعض النصائح من وجهة نظر أخيك سمير... غادري كاليفورنيا وشوارع سان دييغو التي تعتبرين فيها مشردةً. تذكري أن إقامتك في الصحراء أو الغابة تُعد تخييماً... اذهبي إلى هناك، واسكني مع شعبك الذي يحبك ويهتم بك.

من أخيك سمير.

لم يكن سمير أو لافون ساذجين. إنهما يدركان أن القانون يعتبرهما مشردين. ولكن من يستطيع العيش تحت وطأة تلك الكلمة؟ لقد تجاوز مصطلح «المشرد» معناه الحرفي، وأصبح يشكل تهديداً رهيباً. إنه يهمس: المنفيون. الفاشلون. أولئك الذين خسروا كل شيء. اقترحت لافون على مدونتها مصطلح: «منبوذو مجتمعنا».

في إحدى المقابلات أخبرني سمير: «كنت أقلق في البداية حيال تصور الناس عن عيشي في عربة. لم أشأ أن يعتبروني مشرداً». لقد سببت له هذه

الكلمة مشكلةً. قاد عربته مرةً كي يزور أخته في شهر رمضان، والتي طردته في النهاية، واعتبرت أنه «مشرد غير صالح» ولا يمثل قدوةً حسنةً من أجل أبناء أخته وأبناء أخيه. ثم تابع: «اعتقدت أن عائلتي قد تكون ألطف معي. إن معرفة ماهية أنفسنا أمر في غاية الأهمية، حيث أنك ستواجه مشكلةً إن كنت تقود عربتك على الطريق وتدعو نفسك مشرداً، أو تنعت نفسك بأية صفة سلبية أخرى. كتب بول بوليس كتاباً بعنوان ذا شيلترينغ سكاي – السماء الحاميةْ. وصف فيه الفرق بين السياح والمسافرين، وأنا أجد نفسي مسافراً». يفرق بوب ويلز في كتابه بين ساكني العربات والمشردين بشكل واضح. لقد اقترح أن ساكني العربات أشخاص عذبهم التنظيم الاجتماعي الفاسد والفاشل. لقد اختاروا سبيل حياتهم، واعتنقوه سواء أحببنا ذلك أم لا. وقد وضّح من ناحية أخرى: «قد يعيش المشرد في عربة، ولكن ليس لأنه يكره قوانين المجتمع، بل لأنه يريد تحقيق هدف وحيد وهو العودة إلى ظل استبداد تلك القواعد حيث يشعر بالراحة والأمان».

تبيّن أن فكرة اختيار المرء مصيره مشكلة كبيرة. لقد سمعت هذه العبارة مراراً وتكراراً – لا فرق مهما كانت خيارات المرء ضئيلةً، إن مجرد الاختيار هو الحل. أعاد غوست دانسر، مدير مجموعة ساكني العربات على موقع ياهو، صياغة ذلك من أجلي في إحدى المقابلات: «إن الاقتصاد لا يتحسن؛ يمكنك أن تتحرر، أو تغدو مشرداً».

لا تشكل وصمة العار الاجتماعي سوى أحد جوانب القضية. قد تحدث الأمور السيئة إلى أولئك الذين يعيشون حياة الترحال. لقد طبقت أميركا في السنوات الأخيرة ضغوطاً غير مسبوقة على الأشخاص الذين لا يقطنون في منازل تقليدية. في العام 2016 ذكرت صحيفة نيويورك تايمز ما يلي:

سمير يجلس في عربته مع مستر بيكو

تجتاح الأمة بشكل فعال مجموعة من القوانين التي تجرم التشرد، وقد تبنتها مناطق مثل أورلاندو في فلوريدا، وسانتا كروز في كاليفورنيا، ومانشستر في نيوهامبشير. كشف استطلاع أجراه مركز الحقوق الوطني للتشرد والفقر والذي شمل مئةً وسبعةً وثمانين من المدن الأميركية الكبرى أن الجلوس على الرصيف أصبح جريمةً في مئة مدينة مع نهاية العام 2014، بزيادة قدرها 43 بالمئة عن العام 2011، وارتفع عدد المدن التي تحظر النوم في السيارات من سبع وثلاثين إلى واحدة وثمانين خلال الفترة نفسها. جاءت هذه الإجراءات الصارمة وسط عملية التغيير – تغيير الطبقة المتوسطة من المجتمع بطبقة أرقى منها – الذي يغير مدناً مثل نيويورك، وسان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس، وواشنطن، وهونولولو، ويساهم في ارتفاع تكاليف السكن ومعدل التشرد على حدّ سواء.

تمنح هذه القوانين الأفضلية للممتلكات على الأشخاص. يقولون للرحالة: «يمكن أن تبقي سيارتك هنا، ولكنك لا تستطيع البقاء فيها». لم تناقش المجتمعات في البلاد احتمال أن يعبر ما يحدث عن تحول مظلم في القيم المدنية.

لا يقتصر هذا «التنميط الاقتصادي على المدن فقط، بل يحدث في الأماكن العامة أيضاً، حيث استجوب حراس غابة كوكونينو الوطنية في أريزونا المخيمين في عربات الترفيه وغيرها حول عناوين منازلهم، واعتبر مخالفاً كل من تبيّن أنه رحّال دائم وطرد بسبب ارتياده الغابة من أجل «السكن». يعد الملصق الذي يشير إلى أن العربة خيمت في كوارتزسايت بمثابة هدية مجانية لأي كان. ذكرت صحيفة ستيتمان مؤخراً أن خدمة الغابات تطور تطبيقاً يعمل على الهواتف الذكية ويسمح للمواطنين أن يبلغوا عن مواقع التخييم طويلة الأمد المشبوهة.

إن المواقف السلبية تجاه ساكني العربات ليست شيئاً جديداً. لقد اعتبرت وسائل الإعلام سكان المقطورات المنزلية تهديداً على أفراد الطبقة المتوسطة ولاسيما بعد تزايد شعبيتها في الفترة بين منتصف ثلاثينيات القرن العشرين وأواخرها. وصرحت بأنهم مصدر خطر متنقل، ولصوص، وينشرون الأمراض، ولا مأوى لهم، وتائهون، وعاطلون، وطفيليون، ومتهربون.

جاء في شكوى مجلس تحرير صحيفة نيويورك تايمز عام 1937: «يدفع الغجري الذي يستخدم الوقود إلى الخدمات الاجتماعية أقل من أي مواطن آخر في هذه الولايات المتحدة التي تخضع إلى نظام الضرائب».

وتساءلت مجلة فورتشن في العام نفسه: «من يجب أن يتحمل مسؤولية استضافات الجوالين الذين يشاركوننا المسكن هنا وهناك دون جذور تثبتهم كالنباتات الهوائية، ولا يدفعون الضرائب، ويخلقون نوعاً جديداً من الأحياء العشوائية ذات المحركات؟».

سخرت شركة كارافان ترايلر المصنعة من ذلك الرأي عن طريق إطلاق اسم «تاكس دوغر – المحتال على الضرائب» على نموذجها الاقتصادي الذي يبلغ ثمنه أربعمئة وخمسة وعشرين دولاراً وطوله إحدى عشرة قدماً.

ولكن معظم أنصار موضة مقطورات ثلاثينيات القرن العشرين استقروا في منازل تقليدية في ظل انتعاش الاقتصاد من جديد، ما سبب اندثارها. أياً يكن، لقد أخبرني العديد من الرحّل المعاصرين الذين قابلتهم أنهم لن يعودوا إلى تلك الحياة أبداً، ولا يمتلكون خططاً تنطوي على استيعابهم مجدداً ضمن أساليب السكن السائدة. يعني ذلك أن كثيرين سيضطرون إلى العيش في الخفاء حتى مماتهم.

لقد سمعت لافون «الطرقة» على مقطورتها مرةً في ذلك الربيع الذي خيمت خلاله في سان دييغو. كان يمكن أن ينتهي الأمر بشكل أسوأ. لقد كان الضابط نونيز ودوداً، حيث أخبرها أنه أراد التأكد أنها على قيد الحياة، ولا تدير مختبر ميثامفيتامين. أدركت لافون أنها محظوظة، فقد بدت عربتها جديدةً ونظيفةً، وكان كلبها رائعاً. إن لافون من البيض. لم يحرر لها الضابط مخالفة، بل دوّن اسمها، ورقم لوحة ترخيصها، ونوع لافان تو وطرازها، عنى ذلك أن أمرها اكتُشف، ويجب عليها أن تنتقل سريعاً مجدداً.

الفصل الحادي عشر
العودة إلى الديار

حل عيد الشكر بعد أسبوعين من مغادرتي كامب فورس في تكساس. اتصلت بليندا لأطمئن عليها، وأتمنى لها عطلةً سعيدةً.

كانت الأخبار سيئةً. فقد أوشكت عائلتها على إخلاء المنزل الذي استأجرته في ميشن فييغو، حيث خسر صهرها منافع الإعاقة قصيرة الأمد والتي بدأ يتلقاها قبل عام بعد أن ترك عمله المكتبي بسبب نوبات الشقيقة والدوار. لم يستطيعوا دفع الإيجار، ولذلك منحتهم ليندا منزلها المتنقل الذي كان في المخزن. (لقد أوشكت على بيعه في الصيف، ولكن فشلت الصفقة). كانت سعيدةً لأنهم استطاعوا استعمال إلدورادو التي يبلغ طولها ثماني وعشرين قدماً، ولكنها خشيت من عدم قدرتها على استيعاب فردين بالغين، وثلاثة مراهقين، وأربعة كلاب. اقتضت الخطة أن تنام ابنتها أدورا وزوجها كولين في غرفة النوم، وحفيدها جوليان في السرير العلوي فوق كابينة القيادة، وحفيدتاها غابي وجوردان في حجرة الطعام الصغيرة القابلة للطي، والكلاب في مكان ما.

استعد أفراد العائلة من أجل بيع مقتنياتهم وإخلاء المنزل الذي تبلغ مساحته ألفي قدم مربعة إضافةً إلى مرأبه. أخبرتني ليندا: «يشبه الأمر المكتنزين على التلفاز إن سمعت بهم». منحت أدورا كلاً من أولادها المراهقين حوضاً من شركة رابرميد، والذي وجب أن يتسع من أجل كل ما يرغبون في

الاحتفاظ به. ساعدت ليندا في ترتيب ساحة مبيعات ضخمة. وضعوا صناديق تحتوي الملابس والكتب، وألواح تزلج مائية صغيرة وهياكل أسرة. علقت الأثواب بأناقة على طول السياج الذي يحيط بالمرج، وتخلت جوليان، والتي كانت عازفةً موهوبةً، عن معظم أدواتها بما فيها أكورديون لطيف، وجوردان، خبيرة التجميل الطموحة، عن الكثير من محتويات خزانة ملابسها الواسعة. (قالت ليندا بجفاء: «إنها لم تتقبل هذه الفكرة بعد»)، وجمعوا ألف دولار من مبيعات الساحة خلال عطلتي نهاية الأسبوع. رأت قلة من المتسوقين عربة سكويز إن مركونةً في المرأب وسألوا عن ثمنها. شعرت ليندا بالإطراء إزاء اهتمامهم، ولكنها أخبرتهم أنها ليست للبيع.

تظاهرت ليندا بأنها على ما يرام وسط أزمتها التي أنهكتها، حيث قالت لي: «لقد نال الإرهاق مني، ما زلت أساعدهم، ولكن بوتيرة أقل». كانوا يعدون عشاء عيد الشكر خلال إخلاء المنزل. نفد لحم الديك الرومي من كوستكو ورالف، ولكن لم تمانع العائلة من تناول لحم آخر.

تحدثت إلى ليندا مجدداً في أواخر كانون الأول. أخبرتني أن لافون قد جاءت إلى ميشن فييغو وساعدت عائلتها على الاستقرار في العربة الترفيهية. كانت ليندا مستعدةً من أجل العودة إلى الطريق، واستاء الجميع لأنها لن تشاركهم عيد الميلاد، وقد أجهشت أدورا في البكاء.

انطلقت ليندا ولافون في عربتيهما من ميشن فييغو إلى مخيم العشوائيات مترامي الأطراف والمعروف باسم سالب سيتي والواقع إلى جوار بحيرة سالتون. لقد سمعتا عنه منذ سنوات وأرادتا زيارته. كان الظلام دامساً عندما وصلتا إذ لم تستطيعا رؤية ما حولهما، ولذلك أوقفتا عربتيهما وخلدتا إلى النوم. استيقظتا صباحاً ووجدتا القمامة متناثرةً في كل مكان. استقلتا عربة لافون من أجل العثور على موقع تخييم أفضل. أقامت إحدى صديقات لافون على الفيسبوك في سلاب. وعندما عثرتا عليها، أخبرتهما مباشرةً أنهما قضتا الليلة حيث يتسكع مدمنو الميثامفيتامين، وأجفلت ليندا. ما

زالت سكويز إن وسيارتها الجيب هناك، فماذا لو اقتحمها أحدهم؟ عادتا سريعاً إلى هناك. كان منزل ليندا سليماً، ولكنها لم تتخلص من شعور عدم الارتياح. غادرت مع لافون مباشرةً من أجل الالتحاق بعشيرة ساكني العربات في إهرينبيرغ.

كان التواصل مع الأصدقاء جيداً بعد أسابيع من الإجهاد. خططت ليندا ولافون من أجل البقاء في المنطقة واستئجار صندوق بريد معاً. (تقاسمتا المبلغ عن طريق بطاقتي ائتمانهما. قالت ليندا أنهما فعلتا ذلك لأن المرء لا يستطيع اقتراض المال من لافون، حيث أنها لن تأخذه منك لاحقاً، وترحب بالمشاركة دوماً: فعندما تحصل على شيك راتبها الشهري، إن احتاج أحدهم خمسين دولاراً فستمنحه إياها). نشرت كلتاهما على صفحتيهما على الفيسبوك مقطعاً من رواية كيرت فويغوت، سلوترهاوس فايف – المسلخ الخامس، وذلك بعد حديث مباشر عن وصمة العار التي تتملك أصحاب الدخل المنخفض:

> *إن أميركا هي الأمة الأغنى على وجه الأرض، ولكن معظم شعبها من الفقراء المجبرين أن يكرهوا أنفسهم... تمتلك كل أمة أخرى قصصاً شعبيةً حول رجال غارقين في الحكمة والفضيلة رغم فقرهم، وهذا ما يجعلهم أكثر تقديراً من أي شخص يمتلك السلطة والذهب. لم يرو الفقراء الأميركيون مثل هذه الحكايات، بل سخروا من أنفسهم، ومجدوا من هم أفضل منهم.*

أضاعت لافون ذات ليلة حقيبتها في العربة. تفاجئني سهولة فقدان الأشياء في المساحات الصغيرة – أطلق بعض أصدقائها على هذه الظاهرة اسم «ثقب ساكني العربات الأسود» – ولذلك تجاهلت الأمر، وذهبت إلى سكويز إن كي ترى ليندا، التي قدمت إليها بعض الشوكولا. (كتبت لافون لاحقاً على مدونتها: «أنا أحب ليندا. إنها الصديقة التي تمنيت الحصول عليها طوال

حياتي؛ لا أحكام، ولا جدول أعمال، بل صداقة خالصة، وحب، ودعم فحسب. كما أنها تطعمني»). انتاب لافون قلق مفاجئ، وعادت إلى عربتها. لقد كان خوفها في محله، إذ حبست نفسها في الخارج، فالمفاتيح في المشغل، وكلبها سكوت لا يزال في الداخل. حاولتا فتح الأبواب عبثاً، ولكن دون جدوى. ذهبتا من أجل رؤية بوب، الذي لم يمتلك أية اقتراحات. اتصلتا مع جمعية السيارات الأميركية، ولكن مأمور تسيير العربات رفض إرسال أحد إلى مناطق غير مأهولة أو معبدة. قررتا انتظار ضوء النهار من أجل حل المشكلة بما أن لدى سكوت طعام وشراب. خلدت لافون إلى النوم على بساط في سكويز إن إلى جوار ليندا، التي سجلت صوت شخيرها، وأسمعتها إياه في الصباح – «يبدو وكأنه خرخرة!» – بعد أن أخرج قسم الإطفاء سكوت من العربة. تغوط الكلب المسكين في كل مكان تقريباً، ولذلك أمضت لافون معظم ذلك اليوم في المغسلة.

جاء عشرات من الناس من أجل مشاركة الطعام في عشية عيد الميلاد. التقت ليندا مع سوانكي ويلز للمرة الأولى. وقد أضحكت كيندال، مصففة الشعر في الملتقى، صديقاتها بواسطة عمل فني: رجل الثلج روكي المكون من كومة من الحجارة وجزرة في مكان الأنف. ناقشت لافون مع بعض أصدقائها خططاً من أجل زيارة لوس ألغودونس. (أرادت ليندا الذهاب، ولكن توجب عليها الحصول على جواز سفر، وعنى ذلك تجديد رخصة قيادتها أولاً والتي انتهت صلاحيتها في حزيران باستخدام عنوانها الجديد، وهو صندوق البريد في إهرينبيرغ).

وزعت كيندال وزوجها الهدايا في صبيحة عيد الميلاد – رزم من مناديل يدوية مزينة بواسطة شرائط العطل والحلوى – في حين أعدت ليندا فطوراً مميزاً من أجل لافون: فطائر اليقطين مع صلصة التوت البري، وهو مزيج اقترحته سوانكي.

أفادتني ليندا بالكثير من التفاصيل خلال تلك المكالمة الهاتفية في كانون الأول. لقد دفعت ثلاثين دولاراً مقابل كاشف أول أكسيد الكربون، ولكنها أسقطته في دلو بولها، وانتهت مؤخراً من قراءة كتاب مذكرات سيندي لاوبر الذي سمي باسمها. لقد نجا بالكاد أحد ساكني عربات الترفيه وقطتاه من حريق نتيجة احتكاك كهربائي في منطقة الزوار طويلي الأمد في كوارتزسايت، والذي أحال منزله وكل ممتلكاته رماداً.

لافون وهي تصنع الفطائر في عربتها

أرادت ليندا أن تعرف إن كنت سأذهب إلى ملتقى سكان العربات لعام 2016 الذي سيقام بعد أسبوعين. ستحضره للمرة الأولى بعد تجربتها الافتتاحية في عام 2014 حيث التقينا للمرة الأولى. أخبرتها أنني لن أفوته.

***

رأيت زوجاً من الأضواء الوامضة الحمراء وسط الظلام أثناء قيادتي على طريق ميتشيل ماين، والتي وضعتها ليندا من أجل أن أعثر على مخيم ملتقى ساكني العربات ليلاً. لقد كانت الساعة العاشرة بالفعل عندما أوقفت هالين، فخرجت ليندا من أجل جلب الأضواء وإلقاء التحية. دخلنا إلى سكويز إن،

وصبت كأساً من الماء من أجلي. لم ينطفئ واحد من الأضواء الوامضة التي تعمي الأبصار من شدتها، فقلت لها مازحةً: «ضعيه في الثلاجة!». ولكنها فعلت ذلك حقاً.

لقد انقضت نصف مدة ملتقى ساكني العربات تقريباً في الوقت الذي وصلت فيه منتصف شهر كانون الثاني. بدأ بطيئاً بسبب الأمطار، التي أعاقت التواصل الاجتماعي، وأجبرت الرحّل على الاحتماء في عرباتهم، ولكن الطقس تحسن لاحقاً. لقد بلغ عدد السكان منذ فترة طويلة أربعة أضعاف ما كان عليه في زيارة ليندا الأولى قبل عامين، وقدّر بوب مجيء مئتين وخمسين شخصاً في وقت لاحق. خيّمت قلة من القدماء والانطوائيين بعيداً، حيث شعروا أن ذلك ينم عن مكانة أعظم. وأقام أحد الرحّل رهاناً حول سحب باوربول القادم في محاولة من أجل الاستفادة من أعدادهم الكبيرة. بلغت قيمة الجائزة الكبرى 1.5 بليون دولار، وهي أكبر جائزة في تاريخ اليانصيب.

تكرر العديد من الندوات القديمة، وأقيمت أحداث جديدة أيضاً، تضمنت جلسةً حول العيش في السيارات الصغيرة على اعتبارها بديلاً أقل ثمناً وأكثر خفيةً من أجل ساكني العربات. كان بين المقدمين رجل يدعى ديفيد سوانسون البالغ من العمر ستةً وستين عاماً، وكان صانع خزف محترفاً سابقاً قبل أن يُصاب بالتهاب مفاصل شديد في يديه، ويتلقى الآن بدل إعاقة مالياً من الضمان الاجتماعي. انتقل قبل ثمانية عشر شهراً إلى عربة بريوس 2006 اشتراها مقابل ستة آلاف دولار بعد تجميعها وترميمها.

أخبر ديفيد جمهوره: «إن أهم الأمور في حياتي هي النوم والطهو، وهي ما تجعلني أشعر وكأنني في مغامرة رجل في العزلة. أنا أكتشف العالم! وأستمتع بوقتي! طالما أنني أمتلك سريراً لطيفاً، وأستطيع الطهو، فلا أشعر بالتشرد، وهو ما أنا عليه بخلاف ذلك».

عرض ديفيد على المجموعة كيف وضع منضدةً قويةً مكان مقعد الراكب الأمامي، وهو يستخدمها الآن كسطح من أجل إعداد الوجبات على موقد يعمل بالتحريض والذي أوصله إلى محول كهربائي يعمل على بطارية السيارة. تصبح المنضدة في الليل منصةً من أجل بساط التخييم خاصته القابل للنفخ وكيس نومه. صنع ستارةً داكنةً من أجل الخصوصية وحجب الضوء، وزودها بفتحات أزرار على طول حافتها وعلقها على النافذة بواسطة خطافات. امتلك خيمةً مصنوعةً خصيصاً وتتصل إلى الجزء الخلفي من العربة عند رفع بوابتها الخلفية وذلك من أجل توفير الوقت.

لقد وصف أيضاً أبرز الميزات التي تجعل بريوس منزلاً – إنها مولد طاقة ذكي محمول على عجلات بشكل أساسي. كان يستطيع تشغيل أنظمة التبريد والتدفئة في العربة عن طريق البطارية المدمجة التي تشحن عن طريق المحرك الذي يعمل تلقائياً مرةً أو مرتين في الساعة.

قال ديفيد بمجرد اعتياده على إعدادات بريوس، أنه وجد العديد من وسائل الراحة فيها، ووضح كلامه ضاحكاً: «إن توقفت قرب ستاربكس واستخدمت شبكة واي فاي، أستطيع الحصول على قهوتي في وقت أقصر من أن أدخل إلى هناك وأقف في الصف. أما من أجل الترفيه المسائي، فأجلس في مقعد السائق، وأثبت جهازي اللوحي الصغير إلى حافة زجاج العربة بواسطة شريط تثبيت فيلكرو، وأميل المقعد إلى الخلف وأحظى بليلة سينمائية».

بعد أيام قليلة من ندوة العربات الصغيرة، استعد ملتقى ساكني العربات من أجل حدث آخر والذي كان الأول من نوعه: عرض مواهب المجموعة. أشعلت ليندا شموعاً داخل أكياس ورقية بنية مثقلة بالحصى، مشكلةً بذلك صفاً من الأضواء المسرحية يدوية الصنع والتي أومضت بحرارة حول المسرح المرتجل. بدأ العرض مع الغروب، وانطلقت الموسيقى – عزفت واحدة من الرحّل على طبلة دجيمبي، وأخرى على أطباق الغناء التيبتية، ودندنت عازفة

غيتار بأغنية لبوتل روكتس والتي جاء فيها: «إن سيارةً بعشرة آلاف دولار، لا تساوي شيئاً، تستطيع كذلك أن تضرم النار في أموالك هذه». تضمن العرض فقرات مضحكة – من مناجاة حول أخطبوط حاول مضاجعة مزمار قربة – آلة موسيقية في شكل كيس جلدي يخرج منه عدد من المزامير، له شكل يشبه الأخطبوط نوعاً ما – إلى إلقاء النكات القصيرة، وأذكر منها: «إن التخييم وسيلة باهظة من أجل التشرد». عقد بهلوان لا يرتدي قميصاً يديه خلف ظهره ثم خلع كتفيه من أجل تدوير ذراعيه أعلى رأسه، ووضعهما أمام جذعه. وقطع خبير في الكاراتيه لوحاً خشبياً إلى نصفين بواسطة يده العارية. وقاطع سكير صاحب العرض باستمرار وهو ينادي: «جوليو! جوليو!» على كلب ظل يحاول الانقضاض على ساق أحد الراقصين. رمق الحاضرون الرجل بنظرات غاضبة، ولكنها لم تجد نفعاً، فدفعهم ذلك إلى إسكاته، وسحب كلبه عن المسرح.

كانت الأجواء مبهجةً، ولكن انتابني خلالها حدس سيئ سبق لي أن أحسست به. ذكر بوب خلال إحدى الندوات برنامج ريل أي دي – الهوية الحقيقية، والذي كان يشدد معايير الأمان حول رخص القيادة. لقد حدّد الرحّل إقامتهم سابقاً باستعمال عناوين مراكز خدمات إحالة البريد المحلية. بدأ الآن العديد من موظفي قسم السيارات يبحثون عن كل عنوان على الإنترنت، فإن عاد إلى شركة ما، طالبوا بعنوان سكني فعلي. عمدوا إلى ذلك من أجل مكافحة الإرهاب، الأمر الذي زاد من صعوبة الأمر نسبةً إلى الرحّل، ودفعهم إلى اختلاق معلومات زائفة – كادعاء السكن في منزل عائلة أو صديق، أو استعارة عنوان عقار عشوائي رأوه معروضاً من أجل البيع.

حذّرهم بوب: «تريدكم الحكومة أن تعيشوا في منزل، إنهم يعلمون ما الذي نفعله ويضيقون الخناق على الدوام».

وجدت نفسي في ذلك الوقت غارقةً في بحر من التساؤلات: ماذا سيحل بكل هؤلاء الناس؟ تساءلت على وجه الخصوص إن كانت ليندا تسعى إلى بناء سفينة الأرض. لقد ذكرت منذ بضعة أشهر أنها نقلت بحثها عن أرض

إلى فيدال في كاليفورنيا قرب نهر كولورادو، ولكن لم تتحدث بشأن ذلك كثيراً في ملتقى ساكني العربات. بدت فاترةً بعض الشيء عندما سألتها، وأخبرتني أنها تخلصت من بعض كتبها حول سفن الأرض مؤخراً خلال الإخلاء في ميشن فييغو.

سمعت على مر السنوات كثيراً من نقاشات الرُحل حول الاشتراك في شراء قطعة من الأرض، ولكن لم تتحقق تلك الخطط أبداً. أعرف زوجين تخليا عن حياة الطريق بعد أن التقيا أولادهم البالغين، الذين أسكنوهما معهم أو استأجروا منزلاً من أجلهما. ولكن ليس لدى الجميع ذرية، كما أن الجيل القادم يمتلك كوارث اقتصاديةً خاصةً به. بالكاد يعيل بعض الأولاد البالغين أنفسهم، فما بالك بوالديهم.

لقد سمعت عن مركز مساعدة معيشية في تكساس يدعى إسكابيس كير، يرحب بساكني العربات الذين عجزوا عن القيادة. وهو ملحق بموقف عربات يدعى ريبنو إيند أكبر من مثيله في مدينة ليفينعستون. (طرح سؤال غريب على صفحة الأسئلة الأكثر شيوعاً والخاصة بالمنشأة: «هل صحيح أن مؤسسة كير هي المكان الذي يقصده المرء كي يموت؟»). يقيم السكان في منازلهم المتنقلة، ومع ذلك، يبلغ إيجار مكان هناك أكثر من ثمانمئة وخمسين دولاراً شهرياً، فضلاً عن خدمات رعاية البالغين اليومية الاختيارية والتي تكلف مئتي دولار أخرى كل أسبوع. كان ذلك بعيد المنال نسبةً إلى معظم الناس الذين قابلتهم.

أخافتني بعض القصص التي سمعتها. روت إيريس، وهي رحالة تقطن مع ببغاء ناطق، كيف أن أحد أقاربها الذي يدعى رون احتسى الكحول حتى الموت خلال عزلته في موقف السيارات في وال مارت على بعد ستة وثلاثين ميلاً عن كوراتزسايت، وقالت إن أحداً لم يعثر على جثته قبل مضي شهر على وفاته. ذكرت بيكي هيل، وهي واحدة من متطوعي مشروع إشْعْياء الثامن والخمسين، قصة لجوء رجل في الثمانين من عمره إلى كنيستهم لثلاثة أشهر،

ووجد ميتاً في عربته في الصحراء قرب إهرينبيرغ. قالت بيكي حزينةً: «لم يحظ بأحد كي يساعده على الطريق».

توفي أحد عمال كامب فورس – والذي أجريت مقابلةً معه قبل أربع سنوات – في الصحراء في شباط الفائت. التقيت باتي دي بينو في السابعة والخمسين من عمرها، عندما كانت ترتب البضائع خلال وردية عمل ليلية في مستودع أمازون في كوفيفيل في تكساس. لقد دعتني كي نتحدث في منزلها المتنقل من طراز فورد مونتيرا 1993.

أخبرتني باتي أنها أمضت خمسة عشر عاماً وهي تعمل محاسبة في إحدى شركات دينفر للإنشاءات، ثم سرحت عندما أغلقت الشركة أبوابها في العام 2009. خسرت منزلها خلال طلاق في الفترة نفسها تقريباً. ولذلك انتقلت باتي إلى عربتها وحاولت العودة إلى العمل بدوام كامل. كانت واثقةً من أن العقود الثلاث التي قضتها في إدارة المكتب ستعود عليها بشيء ما، ولذلك أرسلت آلافاً من الطلبات عبر الإنترنت خلال السنوات القليلة التالية. ولكن لم يكن سوق العمل رحيماً مع امرأة عاطلة عن العمل في العقد الخامس من العمر، إذ لم تحصل على شيء.

صبت فنجاناً من القهوة السوداء من أجلي. تحدثنا عن سامي، وعن كلبها التشيواوا المحبوب والذي يزن خمسة أرطال، وحول قضاء الوقت في كوارتزسايت، وخطتها من أجل التقدم إلى عمل في أدفينتشر لاند. لقد ألقت نكتةً: «إن موظفي المحاسبة لا يموتون، بل ينفد رصيدهم فحسب». أخبرتني عن هوايتها، وهي حياكة البطانيات من أجل الجنود المقعدين الذين خسروا أطرافهم في أفغانستان. (عرضت إحدى بناتها، وهي من المحاربين القدامى، توزيع البطانيات في القاعدة في كاليفورنيا).

لقد كانت باتي سعيدةً بالحصول على عشرة دولارات ونصف مقابل ساعة عمل في أمازون، ولكنها لم تشأ إنفاق ما تجنيه هناك، حيث قالت لي:

«أنا أقول للجميع، أتعملون شيئاً؟ لا تذهبوا إلى وال مارت، ولا تشتروا عن طريق أمازون. بل انطلقوا إلى الشارع، واشتروا من المتاجر الصغيرة، واستهدفوا جيوب الأثرياء. أنا أقصد أن الأثرياء يزدادون ثراءً في حين نجلس هنا ونزداد فقراً».

لم تشأ باتي قضاء بقية حياتها في التجوال. كانت تحلم في الاستقرار ضمن مجتمع دائم، وشرحت ذلك بقولها: «ما أريده هو وسيلة أقنع بها بعض المقاطعات أن تسمح للمواطنين المسنين بناء حدائقهم الخاصة وإنتاج الميثان الخاص بهم، ووقودهم الخاص، وأشياء كهذه. وأنا أمتلك مطبخاً، ولذلك ما رأيك؟ نستطيع طهو الطعام. لا يعلم الناس سعة حيلتنا؛ فإن امتلكنا حديقةً فنستطيع صنع الطعام المعلب، لأن بعضنا يعلم كيفية فعل ذلك، فقد تعلمناه منذ سنوات».

توفيت باتي في الستين من عمرها. وتبيّن من المعلومات التي جمعتها أنها كانت تتلقى علاجاً إشعاعياً من أجل السرطان. نشرت إحدى صديقاتها على صفحتها على الفيسبوك رثاء دفعني إلى البكاء:

> *أخيراً تحررت من الديون وتعيشين في منزلك الأبدي! لا مزيد من التجمد في الصحراء أو في كانساس! لا مزيد من المساحات الضيقة! وكما أقول دوماً عندما أغلق الهاتف: أنا أحبك يا باتي. سأفتقدك يا عزيزتي.*

سألت قارئة التاروت سيلفيان مرةً عن خططها طويلة المدى، فقالت لي: «أفكر في الاستمرار على هذه الحال إلى الأبد. لا أكترث إن انتهى بي الأمر كما في فيلم ثيلما ولويس وكان جل ما أستطيع فعله هو القيادة فوق المنحدر».

سألت إيريس أيضاً، وأجابت: «اعثري على جثماني في الصحراء فحسب، وضعي عليّ بعض الأحجار، ودعيني أرقد في سلام».

امتلك بوب خطةً أكثر عمليةً من أجل سنواته المتدهورة: «سأحفر خندقاً كبيراً وطويلاً، وأشتري حافلةً مدرسيةً رخيصةً، وأردمها بالكامل من جانب واحد وعلى السقف، وأجعل النوافذ على الجانب الجنوبي. تستطيع شراء حافلة مدرسية مهترئة ومعطلة مقابل خمسمئة دولار. إنها متينة جداً وتصمد فترةً طويلةً». ولكن في حال فشل الأمر، فقد خطط من أجل التجول في البرية وإنهاء حياته برصاصة. قال بوب: «وتقوم خطتي للرعاية الصحية طويلة المدى على التحول إلى عظام بيضاء في الصحراء».

تلمح هذه اللعبة البائسة إلى شيء أكبر: كان بوب متشائماً بشأن مستقبل الحضارة، فقد آمن أن الكوارث البيئية والاقتصادية الوشيكة ستؤدي إلى انهيار المجتمع البشري، وتوقع حدوث ركود من شأنه أن يجعل «الكساد الكبير وكأنه فترة ما بعد الظهر في الحديقة».

كان بوب يعاين مصير الكوكب المزدحم في الوقت الذي اعترى القلق فيه بعض قراء موقعه حول انتشار السكن في العربات على نطاق أوسع. لقد أرادوا أن يتوقف بوب وغيره من دعاة الترحال عن الحديث حول نمط الحياة، خوفاً من أن يضاعف المزيد من الاهتمام صعوبة الابتعاد عن الأضواء، فضلاً عن احتمال حدوث مداهمة مفاجئة من رجال الشرطة.

***

بعد ظهر أحد الأيام، قدت عربتي إلى كشك تاكو في كوارتزسايت، وتعود ملكيته إلى رجل أطلق على نفسه اسم غرامبي غرينغو. كان يحاول بيع كشكه منذ أكثر من عام، واستمر في خفض السعر، ولكن أحداً لم يشتره. أخبرني عندما طلبت البورتيو أنه يود كتابة سيناريو حول كبار السن الذين يأتون إلى كوارتزسايت كي يلقوا حتفهم. ارتسمت الدهشة على وجهي، فأخبرني أن البلدة شهدت خمس حالات انتحار أو ست في العام الفائت، واختتم حديثه بحزن: «لا يوجد شيء هنا». أخذت طعامي وغادرت.

قابلت بيتر فوكس في ملتقى ساكني العربات العام الفائت، وهو رجل في السادسة والستين من عمره. كان يتدرب على السكن في عربة تخييم مستعارة من ويستفاليا في ملتقى ساكني العربات. بعد أن قضى ثمانية وعشرين عاماً يعمل سائقاً في مكتب سيارات أجرة في سان فرانسيسكو، وعامل إرسال، ومدير، كما حصل على ميدالية سائق سيارة الأجرة، وهو تصريح قابل للنقل إلى شخص آخر، يُسمح بموجبه لسائق سيارة الأجرة بالعمل، فقد استبعدته شركة أبر، وأعلن بحزن: «لقد جاءنا الاقتصاد التشاركي الذي يقوم على كاهل الناس الضعفاء. وصلت إلى مرحلة لم أستطع فيها دفع الإيجار أو تناول الطعام». حاول بيع ميداليته والتي اعتقد أنها ستدر عليه حوالي مئة وأربعين ألف دولار بعد حسم الضرائب، ثم يستغل العائدات من أجل أن يتقاعد، ولكن كان البيع يسير عن طريق مجلس المدينة فضلاً عن انخفاض الطلب عليها. ما زال بيتر على قائمة الانتظار. انتقل في الأشهر الستة الأخيرة إلى عربة فورد بيضاء تتسع لاثني عشر مسافرا وأسماها بيليكان – البجعة. (شرح سبب هذه التسمية قائلاً: «لأنها تطير ببطء على ارتفاع منخفض). امتلك في داخلها تمثال غانيش، مزيل العقبات.

لقد أمل بيتر في إيجاد عمل من أجل العمال الجوالين، ولذلك اتجهنا معاً إلى الخيمة الكبيرة. راقبته يقترب من أحد مندوبي التوظيف المضيفين في المخيم – «لقد أجبرت على التقاعد وأحتاج أن أجني المال» – ثم تركته كي يجري مقابلاته. تناولنا عشاءً سريعاً في المدينة، وعدنا إلى المخيم. قال لي: «أشعر في هذا الوقت تقريباً من كل ليلة أنني لست في إجازة أو نزهة، ولكن اليوم يبدو مختلفاً».

بيتر وهو يصنع القهوة في مطبخه الذي نصبه قرب عربته

بعد يومين، جلسنا خارج عربته على مشمع، وتجاذبنا أطراف الحديث، وتطرقنا إلى نقاش حول المستقبل. قال لي: «ما زلت متردداً بين الخوف والفرح. أود سؤالك، إلى أين يذهب الناس عندما يشيخون على التخييم أو السكن في عربة؟». أخبرني أنه كان ممتناً للممرضة التي تعمل في ملتقى ساكني العربات، حيث ساعدته في إخراج القيح من أحد أصابعه. لقد اعتقد أنه من الجيد وجود فرق طبية متنقلة أو محطات على الطريق من أجل خدمة الرحّل، ولا سيما في حدائق الولاية والأماكن المجانية الأخرى التي يجتمع فيها الناس. كما ارتأى أنه من الرائع إنشاء مؤسسة غير ربحية من أجل ساكني العربات المسنين. هل يمكن أن يمول شخص ما شيئاً كهذا؟ أراد تسميتها مؤسسة «هيلو إن ذير – مرحباً بكم»، على اسم أغنية جون براين. لم يسبق لي أن سمعت الأغنية، ولذلك أحضر غيتاراً وبعض النوتات الموسيقية وبدأ العزف. بح صوته عندما وصل إلى اللازمة: وهي نداء من أجل الدفء الداخلي الذاتي، والتواصل بهدف تخفيف الوحدة عند التقدم في السن.

سألته عن خطته من أجل المستقبل، فأجابني: «ألا أموت، وألا أتقدم في السن. أنا لا أدري». وأضاف أن ابنة أخته وابن أخيه عرضا عليه استقباله في حال ساءت الأمور.

***

صنع الرحّل في نهاية ملتقى ساكني العربات عربةً صغيرةً من صندوق شحن من الورق المقوى من أمازون. وقع الجميع عليها، وألقوها في النار تحت سماء الليلة المظلمة، وأطلقوا على هذا الطقس الجديد اسم «العربة المحترقة». واحتفلوا بها عن طريق غناء كلمات كتبوها على أنغام «ليتل بوكسز»، وهي قصيدة غنائية تسخر من وحدة الضواحي في كل شيء – أن تمتلك ضواحي المدن الأبنية ذاتها والشوارع ذاتها وهكذا، ألفها مالفيان رينولدز في العام 1962:

عربات صغيرة في الصحراء

عربات صغيرة مصنوعة من الخردة

عربات صغيرة في الصحراء

عربات صغيرة تختلف عن بعضها

توجد واحدة بيضاء وواحدة بيضاء

وواحدة بيضاء وواحدة مزينة بالزهور

وجميعها مصنوعة من الخردة

ولا تشبه واحدة الأخرى

والناس ساكنو العربات

ألطف الناس في كل مكان

ولن يُحتجزوا في صناديق

ولن يكونوا متشابهين

نحن ودودون

نحن عائلة

نحب أن نجتمع معاً

في الصحراء، في الصحراء،

حيث المناظر كلها متشابهة...

ولا نمتلك خيمةً كبيرةً.

لا حماماً عاماً، ولا مسرحاً مركزياً

بل مجرد حفرة نار حيث تنشأ الصداقات

جميعنا مصنوعون من الخردة

ولا أحد يفكر مثل الآخر

لقد استمتع الرحّل بالاحتفال، وتعهدوا أن يجعلوه تقليداً سنوياً. اقترح أحدهم صنع عربة من الخشب الرقيق في العام القادم، حيث يستغرق إحراقها فترة أطول.

***

تلقت ليندا أخباراً من عائلتها. تقيم حفيدتاها الآن في خيمة إلى جوار العربة. طارت الخيمة المطرية خلال عاصفة شديدة، فأغرقتهما المياه، وتدفقت من أسفل الخيمة أيضاً. حاولت إحداهما تنظيف الأرض بواسطة مكنسة كهربائية تجنباً للفوضى، ولم تدرك أنها سحبت حبيبات الرمل خلال القماش ما أحدث ثقوباً صغيرةً أغلقاها بواسطة شريط لاصق. قالت إنهما تبذلان قصارى جهدهما.

واجهت ليندا في ذلك الوقت تحديات جديدةً أيضاً. أخبرتني أنها بدأت ترى بقعةً سوداء في مركز مجال رؤيتها خلال القيادة ليلاً. كانت لوحة العدادات في سيارة الجيب معطلةً: لاحظت ذلك عندما كنا نقود على طول سكادان

واش بعد رحلة إلى المدينة. قالت ليندا: «لقد انتهى أمري دون عداد السرعة. لا بد من وجود مشكلة دوماً».

حاولت ليندا ولافون إيجاد فرص عمل للعمال الجوالين مع حلول الربيع. اعتقدت ليندا أنها تمكنت من تأمين وظيفة مضيفة مخيم مع إدارة الأراضي في كاليفورنيا. تلقت ليندا مكالمةً عندما كنت أستعد من أجل مغادرة ملتقى ساكني العربات: أخبروها أن الوظيفة قد ألغيت.

***

اعتقدت أن القصة ستنتهي عند هذه النقطة، مع عودة ليندا إلى ملتقى ساكني العربات، وإعادة بدء الدورة الفصلية التي تحكم حياتها كمهاجرة، بين أفراد العشيرة التي غدت بمنزلة عائلة. تنامت علاقاتها الجديدة بشكل أقوى خلال الأسابيع التالية التي ارتحلت فيها مع بعض الرحّل إلى إهرينبيرغ. أصابها هناك التهاب شديد في القصبة لهوائية. استلقت في سكويز إن عاجزةً عن طهو الطعام، ولكن جيرانها الرحّل جلبوا لها: بيضاً مسلوقاً، وطماطم، ونقانق. لقد رأيت رعايةً مماثلةً في العام الماضي، عندما سقطت واحدة من الرحّل، تدعى بيث، خلال خروجها من عربتها (الملقبة بالوحش)، وكسرت ذراعها اليسرى. أعدت اثنتان من «عائلة الرُحل» ما سمتاه «استشفاء المخيم»، من أجل مساعدتها على فعل العديد من الأشياء التي يستحيل تأديتها بيد واحدة، كربط حذائها وصدريتها، حتى تعافت كفايةً من أجل المضي قدماً.

أخبرتني ليندا في إحدى محادثاتنا على الهاتف بعد أشهر من مرضها شيئاً فاجأني، لقد وجدت أرضاً من أجل سفينة الأرض التي تريد بناءها.

لقد شاهدت إعلاناً على موقع كريغزليست حول أرض تبلغ مساحتها خمسة فدادين قرب حدود مدينة دوغلاس في أريزونا، على الحدود الغربية لصحراء تشيهواهوان، وعلى بعد تسعة أميال شمال الحدود المكسيكية. اكتشفت ليندا تلك المنطقة سابقاً بعد أول ملتقى ساكني عربات ارتادته،

وكانت مقتنعةً حينها أن المنطقة بعيدة ومعزولة جداً، أما الآن، فقد شعرت بشكل مختلف. قالت لي: «إن الوقت يمضي، إلى متى سأمتلك الصحة والقوة الكافيين كي أنهي هذه المهمة؟ ستضيع حياتي سدى إن لم أسكن في منزل بنيته لنفسي». سألتها إن كانت تخشى الوحدة، فأجابت مشيرةً إلى عشيرة الرحّل: «يمر كثير من الأصدقاء على ذلك الطريق وسيزورونني. لن أكون وحدي هناك».

كانت الأرض في منطقة ريفية، حيث أُعفي سكان المنازل المعزولة المبنية على أرض مساحتها أربعة فدادين أو أكثر من قوانين البناء في المقاطعة. بعبارة أخرى، كانت واحدةً من المناطق الذي أطلق عليها مايكل رينولدز، مبتكر سفينة الأرض، اسم «محافظ الحرية»؛ المناطق التي لا تتطلب معاملات ورقيةً، حيث يمكن للهندسة المعمارية التجريبية أن تزدهر. لقد كانت على ارتفاع أربعة آلاف ومئتي قدم، وبالتالي لن يكون الصيف حاراً جداً، وفي حال ساءت درجة الحرارة، توجد فرص عديدة من أجل العمل في استضافة المخيمات في الجبال المجاورة.

كتب في إعلان كريغزليست: «أراض خالية وغير محسنة، ومن دون كهرباء، أو بئر ماء، أو نظام صرف صحي»، كما تضمن صوراً لصحراء مقفرة ممتدة من دون أثر لأي منزل في الجوار. ذكرت بعض السلبيات أيضاً، حيث غطى نبات المسكيت – نبات شائك في هيئة شجيرات، ينمو في المناخ الجاف – الطرق التي تحد الملكية، وتسير إحداها ضمن واد جاف، حيث تصرف الفيضانات الناجمة عن العواصف المطرية.

لقد شدها السعر في النهاية. أراد البائع ألفين وخمسمئة دولار مقابل الأرض مقسمة على أقساط صغيرة: ستحصل على حسم مئتي دولار، وتدفع مثلها شهرياً، من دون فائدة، حتى إيفاء المبلغ كاملاً. قرأت ليندا في العام الماضي خلال العمل مضيفة في مخيم في سان برناردينو كتاباً حول المساعدة الذاتية بقلم شخص أسس شركةً ناشئةً، كان اسم الكتاب تحويل

الأفكار إلى واقع: التغلب على العوائق بين الرؤية والواقع. لقد سألتها عن سبب قراءتها إياه، فأخبرتني أنها أعطته إلى زوج ابنتها، ولكن لم يبدُ مهتماً به، ولذلك احتفظت به لنفسها. قالت بتجرد: «لديّ مشروع متوقف لسبب ما، وهو سفينة الأرض. ما هو العائق الذي أواجهه؟ الأمور المالية. ولكن هل أعتبرها عائقاً حقاً؟». توقفت عن الكلام، واستغرقت في أفكارها وهي تدخن سيجارتها. قالت لاحقاً إنها تستطيع الإعلان عن مشروع بناء منزلها المعزول خلال ملتقى ساكني العربات، لعلها تحصل على مساعدة بعض الناس. قالت ضاحكةً: «هل تودون المجيء والإقامة في أرضي؟ تستطيعون ذلك مقابل إطار واحد مليء بالتراب كل يوم. سأجعلهم يملؤون المزيد من الإطارات بالطبع عندما يصلون إلى هناك».

إحدى الطرق المؤدية إلى أرض ليندا وقد اختفت بين النباتات الصحراوية

كانت ليندا تعمل مضيفة مخيم في غابة سيكويا الوطنية، التي تبعد مسافة اثنتي عشرة ساعةً من القيادة، عندما رأت إعلان كريغزليست للمرة الأولى. (لقد عينتها إدارة أراضي كاليفورنيا مرةً أخرى؛ حيث وُجد شاغر في مكان آخر بعد إلغاء الوظيفة التي وُعدت بها سابقاً). لم تستطع الذهاب كي

ترى الأرض بنفسها، لذلك تصفحت الموقع الإلكتروني الخاص بمقيم الضرائب في مقاطعة كوتشيس وأدخلت رقم الأرض، وحصلت بذلك على إحداثيات خطوط الطول والعرض، التي ربطتها إلى موقع ماب كوست. أظهرت صور القمر الصناعي قطعةً من الأرض صفراء اللون تتخللها بعض النباتات، فضلاً عن الأخاديد التي شقت طريقها فيها مثل التجاعيد في راحة يد ممدودة.

نشرت ليندا بعد سداد الدفعة الأولى على صفحتها على فيسبوك أنها اشترت الأرض.

كتبت آش، وهي واحدة من رفاقها ساكني العربات من كامب فورس أمازون: «أجل!!! إن الحلم يتحقق. أخبرينا عندما تحتاجين عمال بناء».

أضافت ويندي: «هذا رائع! رائع! رائع! أشعر بالغيرة. نود أن نزورك ونساعد في البناء يوماً ما». كانت ويندي من الرحّل أيضاً، سكنت مع صديقها الحميم وكلابها في «منزل صغير ذي عجلات»، والذي كان باص مدرسة سابقاً، وزوداه بمرحاض سمادي – يعالج الفضلات البشرية ويحولها إلى سماد – وموقد أخشاب.

خططت ليندا كي تزور الأرض بعد الانتهاء من عملها مضيفة في المخيم، وقبل أن ترسل تقريراً إلى عملها الجديد في أمازون. أراد صديقها المقرب غاري رؤية الأرض أيضاً، والذي كان من ساكني العربات ويعمل معها مضيفاً في المخيم، وتعرفت إليه في ملتقى ساكني العربات. لقد خطط كي يعمل في أمازون أيضاً. كان غاري لطيفاً مع ليندا، رغم تردده حول الخوض في علاقة رومانسية.

سألت ليندا عن إمكانية ذهابي معهما كي أرى الأرض، وافقت على ذلك، فحجزت مقعداً في رحلة جوية إلى فينيكس. ولكنني علمت وجود تغيير في الخطة، حيث عانى غاري قبل موعد الرحلة في منتصف تموز من سكتة دماغية طفيفة. لجأ وليندا إلى قبيلة ملتقى ساكني العربات في فلاغستاف كي

يتعافى، وقررا تأجيل الزيارة. وفضلاً عن صحة غاري، فقد انتاب ليندا القلق بشأن درجة الحرارة هناك، حيث توقعتها أن تكون في حدود 80 درجة فهرنهايت، وقالوا في النشرة الجوية أنها ستبلغ مئةً وثلاث درجات. كان جهاز تكييف الهواء في سيارة الجيب معطلاً، وفوق كل ذلك، طلبت منهما شركة أمازون العمل مبكراً في الأول من شهر آب، وتوجب عليهما رفع تقرير إلى مستودع في كامبيلسفيل في كينتاكي، من أجل الانضمام إلى وحدة كامب فورس والتي ستضم أكثر من خمسمئة عامل. لقد خططا من أجل الانطلاق في رحلة بطيئة عبر البلاد من دون القيادة نهاراً عندما تكون الحرارة مرتفعة. قالت ليندا وقد بدت منهكةً: «لقد صدمت من أنني لا أستطيع الذهاب إلى هناك».

أياً يكن الأمر، قررت الذهاب، فقد حجزت تذكرة الطائرة بالفعل. كانت أرض ليندا ذات الفدادين الخمسة غير محاطة بسياج، ومفتوحةً أمام كل من يرغب في زيارتها. كما أدركت أن الذهاب إلى الأرض سيجيب على بعض الأسئلة المزعجة. هل يمكن أن يتجلى المستقبل التي رسمته ليندا في مخيلتها أن يتجلى حقيقةً على تلك البقعة الفارغة من الصحراء؟ أم أن ذلك حلم مستحيل؟

حطت طائرتي في فينيكس في إحدى أمسيات منتصف تموز وسط الرياح الموسمية في ولاية أريزونا. أطلقت مجموعة من الهواتف المحمولة – بما فيها هاتفي – نغمة تنبيه الطوارئ مع نزول الركاب من الطائرة. ظهرت تحذيرات من خدمة الأرصاد الجوية الوطنية حول اقتراب عاصفة رملية. تعرف هذه العواصف باسم «الهبوب»، وقد أثارت هذه التسمية استياء بعض سكان أريزونا الذين احتجوا في السنوات الأخيرة على استخدام مصطلح ذي جذور عربية من أجل الأرصاد الجوية. كتب رجل من غيلبيرت من أريزونا في رسالة إلى أريزونا ريبابليك: «أنا أشعر بالإهانة في كل مرة تطلق فيها نشرات الأخبار المحلية اسم «الهبوب» على هذا النوع من العواصف. ألا يتساءلون عن

مشاعر جنودنا العائدين إلى أريزونا عند سماعهم مصطلحاً شرق أوسطياً يطلق على ظاهرة من الواضح أنها تخص أريزونا؟».

كان الهواء خارج المطار خانقاً وساخناً، وملأ الغبار الناعم السماء المظلمة، ونثر الأضواء البيضاء على الطريق الإسفلتي، التي بدت كأنها بقع من الحليب.

عدلت المرايا في سيارة تويوتا كورولا التي استأجرتها (ركنت هالين في الشرق مع العائلة). بدأت ليندا إرسال الرسائل النصية. لقد توقفت عن القيادة بعد وصولها إلى الرينو، وهي إحدى ضواحي مدينة أوكلاهوما، وتبعد ثلاثمئة وخمسين ميلاً عن موقفها السابق في توكومكاري في نيو مكسيكو. أرادت أن نلتقي في اليوم التالي.

ما زالت ليندا متحمسةً كي ترى أرضها، ولكننا وضعنا خطةً جديدةً على اعتبار أنها لن تستطيع السفر إلى هناك حتى كانون الثاني بعد انتهاء عملها في شركة أمازون. سأقود إلى الصحراء المهجورة، وأقترب قدر الإمكان من أرض ليندا، ومن هناك أتابع سيراً على الأقدام حاملةً هاتفي وحاسوبي المحمولين، وأستخدم نظام تحديد المواقع العالمي من أجل تحديد موقع زوايا الأرض. وإن كانت إشارة الهاتف قويةً كفايةً، سأبث مقطع فيديو مصوراً عن جولتي إلى هاتف ليندا، فتستطيع بذلك المشاهدة وتوجيهي والإشارة إلى أية ميزات تود اكتشافها في الأرض، مثل ربان يتحكم عن بعد في نسخة بشرية ضعيفة التقنية من مركبة أُرسلت إلى المريخ.

أخيراً، استطعنا اكتشاف فرق التوقيت – لا تخضع أريزونا إلى التوقيت الصيفي – واتفقنا بعدها على أن نبدأ في الساعة الواحدة ظهراً من اليوم التالي وفقاً إلى ساعتي، والثالثة وفقاً إلى ساعة ليندا، التي تحمست من فورها إزاء خطة الرحلة البديلة.

ألحت عليّ ليندا في رسائلها النصية: «حاولي العثور على فندق غادسدين خلال وجود في دوغلاس. ستشاهدين هناك أعمدةً رخامية وزجاج تيفاني الملون الذي يعود إلى الزمن الذي ازدهرت فيه المنطقة بمناجم النحاس. هل أنت تقودين الآن؟».

أجبتها بالنفي، فقد ركنت السيارة؛ أنا لا أرسل الرسائل النصية وأقود في الوقت نفسه.

تابعت ليندا: «هذا جيد. يوجد سوبر وال مارت في دوغلاس، احرصي على شراء الكثير من المياه».

أكدت على المياه، وواقي الشمس، وقبعة.

قالت ليندا: «إن تهتي، أستطيع الحصول على مساعدة الرجل الذي اشتريت منه العقار... ولكن حاولي ألا تهتِ».

سأركن السيارة على الرصيف، وأتابع سيراً على الأقدام في حال كانت الطريق المغبرة هشةً جداً. وافقت ليندا على ذلك.

كتبت: «حسناً، انطلقي، سنتحدث غداً». أرسلت إليها: «يا لك من امرأة مجنونة. لا أصدق أنك تفعلين هذا! ليلةً سعيدةً».

كان الطقس هادئاً والسماء صافية بحلول الساعة التاسعة. قدت سيارتي خارج فينيكس إلى الجنوب الشرقي على الطريق السريعة 10، ووصلت إلى دوغلاس بعد منتصف الليل. في صباح اليوم التالي، دخلت عبر الإنترنت إلى موقع مقيم الضرائب في مقاطعة كوشيس، وحصلت على صورة أرض ليندا المستطيلة من الأقمار الصناعية، كما عثرت على صورة الأرض ذاتها في موقع خرائط غوغل، وحددت زواياها بواسطة دبابيس افتراضية، والتي تحولت بعد حفظها على الخريطة إلى نجمة ذهبية صغيرة، ما أسفر عن مجموعة منها في شكل مستطيل في الصحراء على بعد ثمانية أميال ونصف

الميل إلى الشمال الشرقي من موقعي الحالي، والذي ظهر على الشاشة في هيئة نقطة زرقاء.

أخذت عبوة مياه وخضت في طريقي في ظل حرارة قبل الظهر. كانت محطتي الأولى شارع دوغلاس الرئيسي، في جادة جي، موطن الفندق الأثري الرائع الذي أخبرتني ليندا عنه، والذي أحاطت به مجموعة من المباني الفارغة، ذات الطلاء المتقشر، والواجهات باهتة الملامح، والنوافذ التي غطتها ألواح خشبية رقيقة. كانت الأرصفة مهجورةً. يصعب تصديق أن هذه المدينة كانت أكبر مدينة في ولاية في أريزونا. تأسست في العام 1901 على أنها مركز صهر الفلذات القادمة من مناجم النحاس. لقد ازدهرت دوغلاس عقوداً من الزمن، ولكن ليس إلى الأبد. في النصف الثاني من القرن، أصبح الأميركيون على دراية بالتهديدات الصحية والبيئية الناجمة عن تلوث الهواء، فموّل المشرعون بحثاً عن المشكلة في العام 1995، الذي أسفر عن إصدار قانون الهواء النظيف العام 1963 وتبعاته. ولكن تمكن المصهر المحلي التابع إلى شركة دوغلاس ريدكشن ووركس، لمالكها فيلبس دودج، من الالتفاف حول المعايير الفيدرالية الحديثة حتى ثمانينيات القرن العشرين، حيث أصبح بحلول ذلك الوقت أكبر باعث لغاز ثنائي أكسيد الكبريت في الصناعات الأميركية، مطلقاً ما يقارب تسعمئة وخمسين طناً من الملوث في الهواء والذي يسبب بدوره أمطاراً حامضيةً. كان الدخان كثيفاً إلى درجة دفعت أحد الأطباء إلى التوقف عن تشجيع المرضى على ممارسة التمارين الرياضية خوفاً من خطورة تثاقل أنفاسهم. قال مالك مقهى في بيسبي المجاورة إلى وكالة أسوشيتتد برس في حين كان يستعد من أجل نقل عائلته من المنطقة: «ستشعر بالرطوبة في رئتيك عندما يسوء الأمر».

فرضت وكالة حماية البيئة على فيلبس دودج تركيب ضابطات انبعاثات والتي بلغت كلفتها نصف مليار دولار تقريباً، فأغلقت الشركة المصهر بدلاً من ذلك. صب أربعة عمال الدفعة الأخيرة من النحاس في منتصف كانون الثاني

من عام 1987، فتوقفت المداخن الشاهقة عن إصدار سحب الدخان، وتلاشى الضباب المعلق فوق الوادي. لم يفتقد أحد إلى الهواء الكثيف، بل أشياء أخرى: فقد ثلاثمئة وسبعة وأربعون شخصاً أعمالهم مع ما يقارب في مجموعه عشرة ملايين دولار في كشوف المرتبات، وهذا ما قُدر أنه يساوي ربع الاقتصاد المحلي. أثار الأمر قلق مواطني دوغلاس، حتى أولئك الذين لم يخسروا وظائفهم. قال موظف توزيع جعة في شركة كور إلى ذا بوسطن غلوب: «آمل أن ينفى كل الأوغاد المتسببين في إغلاق المصهر إلى كندا أو روسيا. إنه فعل مستوحىً من الشيوعية على حدّ علمي».

ما زالت ملامح مستقبل دوغلاس تتهاوى، فقد أغلق مستشفى المدينة الوحيد في صيف العام 2015، آخذاً معه سبعين وظيفةً أخرى. صنفت منطقة قطار الأنفاق التي تضم دوغلاس وسييرا فيستا، وهي مدينة مصهر أخرى، كرابع أسرع المناطق الأميركية انكماشاً. شهدت مدينة دوغلاس انخفاضاً حاداً في عدد السكان بين عامي 2010 و2015 أكثر من مدن حزام الصدأ، وهو مصطلح يُطلق على مناطق التدهور الاقتصادي وانخفاض عدد السكان واضمحلال المناطق الحضارية بسبب نقص قوة القطاع الصناعي، ويمتد شمال شرق الولايات المتحدة: فلينت وميشيغان ويونغس تاون، وأوهايو، ومنطقة قطار الأنفاق.

عندما مشيت في جادة جي وجدت أن الفجوة بين ذروة حضارة مدينة دوغلاس والحقبة الحديثة مرئية في كل مكان. تربع مقابل فندق غادسدن بناء بروفي يعود تاريخ بنائه إلى قرن مضى، وكان مركزاً تجارياً في الماضي، ويتمتع بمنظره الكلاسيكي الجديد مع دروع الزينة، وتصميم البيوض والسهام، فضلاً عن إفريز الدنتيل – شريط زخرفي بارز من الجص يحمل نتوءات مستطيلة بارزة مرصوفة مثل صف الأسنان –تضفي على واجهات المحلات فيه مظهراً غريباً. نُصبت خيمة كبيرة في مسرح غراند المهجور منذ فترة طويلة والذي يبعد مسافة مبنىً واحد شمالاً، وكتب على لافتة عليها: «العرض

جار». أشار داعمو غراند عند افتتاحه عام 1919 إلى أن قصر الأفلام هذا الذي يتسع إلى ألف وستمئة متفرج هو «أفخر مسرح بين سان أنطونيو ولوس أنجلوس» وروجوا من أجل وسائل ترفيه مثل آلة الأرغن ذي الأنابيب الذي يرافق الأفلام الصامتة، وغرفة الشاي، ومتجر الحلوى. استضاف مسرح غراند، إلى جانب عرضه الأفلام، عروضاً ترفيهيةً بدءاً من غينغر روغرس وصولاً إلى جون فيليب سوسا. ولكن شكّل ظهور التلفاز في منتصف القرن العشرين نهاية دور السينما الفاخرة، وأغلق مسرح غراند أبوابه في العام 1958. انهار السقف لاحقاً، ونبتت الشجيرات في الأنقاض. اشتراه دعاة الحفاظ على الإرث التاريخي مقابل دولار واحد، ولكن تتطلب إعادته إلى الحياة 9.5 مليون دولار، وبسبب ذلك لا يزال متوقفاً عن العمل. حصل المسرح المهجور في أوائل القرن الحادي والعشرين على دور واحد في الحياة على الأقل: منزل الهالوين المهجور. أقام بعض المتطوعين تقليداً سنوياً لجمع التبرعات من أجل المبنى، حيث مثّلوا مشاهد مخيفةً في الداخل، بما فيها معمل التحنيط الذي بني على أساس جنازة حقيقية، ومشهد مرعب من رواية بيت سيماتاري، الذي مثله طلاب من المدرسة الثانوية.

لم تكترث ليندا من تدهور مدينة دوغلاس رغم أنها مفتونة بماضيها. تحاول دوماً إبقاء متطلباتها ضمن الحد المعقول نظراً إلى كونها تسعى إلى بناء منزل معزول بميزانية محدودة. لقد لفتت العقارات رخيصة الثمن عدداً قليلاً من رواد الأعمال والفنانين، من روبيرت أريبي، المهاجر من مانهاتن والذي افتتح مقهى في دوغلاس وانتخب عمدةً بعد أربع سنوات، إلى هارود بلانك، وهو صانع أفلام من بيركلي والذي كان يبني أرت كار ورد، وهو متحف يضم السيارات المعدلة بشكل إبداعي. ضم المتحف كارثيدرال، وهي سيارة دفن موتى ذات نوافذ زجاجية ملونة وأبراج قوطية، وكلوت موبيل المزينة بواسطة ألف وخمسة وأربعين حصاناً بلاستيكياً. بنيت الأخيرة على يد طبيب بيطري فيتنامي مدمن على الكحول، والذي ألصق خلال فترة تعافيه حصاناً على السيارة في كل مرة أراد الشرب فيها.

لكن المدينة فرضت تحديات، حيث واجهت ليندا نذير سوء خلال بحثها عن معلومات عن منزلها الجديد. بعد فترة قصيرة من سداد الدفعة الأولى قالت لي: «تقع دوغلاس على الحدود المكسيكية مباشرةً، وهذا يجعل مشكلة تهريب المخدرات قائمةً». أضافت ليندا أنها حصلت على تلك المعلومة من كتب عن مدينة دوغلاس، وبالتالي لا تعلم كم مضى عليها من الزمن. ولذلك أليس ممكناً أن تكون الأمور قد تحسنت من حينها؟

قرأت ليندا عن التهريب، وعلمت حول أشهر عملية ضبط مخدرات جرت في المدينة. يعود تاريخها إلى 1990، إذ وجد العملاء حينها نفقاً مدعماً بخرسانة يمتد على طول ثلاثمئة قدم أسفل الحدود، استخدمته مافيا سينالوا من أجل تهريب الكوكايين، ويقبع تحت الأرض على عمق ثلاث طوابق، ويبدأ من منزل في أغوا بيريتا، حيث أخفي المدخل بذكاء. يؤدي فتح حنفية مياه إلى تفعيل مصعد هيدروليكي يرفع منضدة البلياردو واللوح الخشبي الواقعة عليه، ليكشف عن سلم إلى الأسفل. بلغ ارتفاع النفق في الداخل خمس أقدام وكان مكيفاً وأضيء بوساطة مصابيح كهربائية ودعم ضد الفيضانات عن طريق مضخة. احتوى عربةً تسير على سكة حديدية تنتهي في دوغلاس أسفل مستودع مساحته ألفا قدم مربعة ومجهز على أنه محطة غسيل شاحنات. كما وجُد نظام رافعة يعمل على نقل حزم الكوكايين إلى السطح حيث يحملها العمال على المقطورات التي تنتظر. لقد أدهش النفق المسمى «زقاق الكوكايين» العملاء، حيث كان أشبه «بشيء من فيلم جيمس بوند»، وما أدهشهم أكثر هو سينالوا كينغبين خواكين «إل شابو» غوزمان والذي تفاخر بأن عماله «صنعوا نفقاً رائعاً».

لقد ذهلت ليندا بذلك، ولكن لم يثنِها أي منه عن الإقامة في المنطقة. قالت بتجرد: «كتب أحد رجال دوريات الحدود السابقين عن أشخاص لقوا حتفهم في عملهم مخبرين للشرطة. أجل، المافيا تذبح المخبرين، وأنا مثل... حسناً، لا علاقة لي بأي من هؤلاء الأشخاص». تساءلت بعد أن أقفلنا الخط

حول إن كانت ليندا تحاول طمأنة نفسها، أو أنني كذلك، أو كلانا. أياً يكن الأمر، لم تبالغ عندما قالت إن مدينة دوغلاس على الحدود مباشرةً، حيث تصل إلى نهاية امتدادها – ونهاية امتداد الأمة – أمام سياجين متوازيين يقعان على بعد اثني عشر بناءً جنوب مسرح غراند، ويحيطان بقناة تحوي ما بدا أنه إسمنت جاف. (إن الاسم الرسمي الذي يطلقه عليها المقاولون الفيدراليون هو «مقاطعة دوغلاس الدولية»). صنع سياج الجانب الأميركي من الخندق من شبكة ثقيلة من الأسلاك بلون الرمال الصحراوية وهذا ما يجعلها خفيةً، في حين بدا سياج الجانب المكسيكي، والذي يمثل الحاجز الحدودي الرسمي، وكأنه من أحد أفلام السجون، حيث تألف من مجموعة من القضبان المصنوعة من الفولاذ الثقيل، وارتفع ثماني عشرة قدماً في السماء، فضلاً عن غوصه مسافة ست أقدام أو ثماني تحت الأرض من أجل منع الحفارين. كانت قضبانه سوداء اللون مرقطةً ببقع الصدأ، ويبعد بعضها عن بعض مسافة أربع بوصات تستطيع من خلالها إلقاء نظرات خاطفة على مدينة أغوا بريتا المكسيكية الشقيقة، وهي مدينة صناعية مترامية الأطراف وتبلغ مساحتها خمسة أضعاف مساحة دوغلاس. يعمل العديد من مواطنيها في ماكيلادوراس، وهي مصانع أجنبية تجمع المنتجات من أجل تصديرها، وتصنع كل شيء، من قطع السيارات إلى اللوازم الطبية، وستائر النوافذ، والإلكترونيات، والملابس.

كانت الكتب التي قرأتها ليندا حول التهريب صحيحةً أيضاً. يستطيع مهربو المخدرات الحصول في ليلة واحدة على ما يعادل مرتب شهر لعامل في ماكيلادوراس. ولذلك من المعتاد أن يجد عملاء دورية الحدود حزماً من الماريجوانا مخبأةً في الألواح الربعية – القسم من السيارة الواصل بين أبوابها والصندوقين الأمامي والخلفي – والإطارات الاحتياطية للسيارات القادمة إلى الداخل (ويجدون في حالات نادرة الميثامفيتامين، أو الهيروين، أو الكوكايين). اعتقلوا مؤخراً فتىً مكسيكياً في السادسة عشرة من العمر يستخدم حزام الأمان من أجل أن يتجاوز السياج إلى دوغلاس. اقتضت مهمته جمع أكياس الخيش المحشوة بتسعين رطلاً من الماريجوانا والتي رميت سابقاً من فوق

السياج من أغوا بريبتا ونقلها إلى سيارة قريبة. لقد وعد بمبلغ أربعمئة دولار. أما في وطنه، فكان يصنع أحزمة السير المتزامن في العربات – الحزام الذي يربط اثنين من التروس معاً، ويشبه الجنزير المعدني الذي يصل بين دواسات الدراجة والعجلة الخلفية – في ماكيلادوراس مقابل اثنين وأربعين دولاراً في الأسبوع، وهو المال الذي استخدمه من أجل إعالة أمه وأشقائه التسعة.

أبلغ عملاء الحدود عن وجود ظواهر أكثر غرابةً، بما فيها صناعة أحد التجار حبل انزلاق من أجل نقل حزم المخدرات عالياً مثل عربات تلفريك صغيرة، وحاول مهرب مبدع آخر الوصول إلى دوغلاس عبر المجاري حاملاً خمسةً وخمسين رطلاً من الماريجوانا. فتح العملاء منفذاً بواسطة المتفجرات، وعثروا عليه مرتدياً بذلة غوص سوداء وأرجوانية، وقناعاً وأسطوانة أوكسجين. رمى معدات الغطس والماريجوانا وانطلق سريعاً إلى أغوا بريبتا. تناهت إلى المسامع حكايات من مكان آخر من الحدود حول محاولة تهريب جوية بواسطة طائرة خفيفة الوزن تعمل بالتحكم عن بعد. (أسقطت إحدى هذه الطائرات عن طريق الخطأ رزمةً تزن ثلاثة أرطال على سطح سيارة في نوغاليس في أريزونا).

***

بعد الظهر، انطلقت من أجل رؤية أرض ليندا، قدت سيارتي إلى وادي سولفور سبرينغر القاحل الذي يحد صحراء سونوران تشيهواهوان، ويمتد قرابة مئة ميل إلى شمال شرق أريزونا وشمال المكسيك. يحد النصف السفلي ست سلاسل جبلية: جبال دراغون، ومولس من الغرب، وجبال تشيريكاهواس، وسويسهيلمس، وبيدريغوساس، وبوريالاس من الشرق. كان موقع بناء منزل ليندا على سفح جبال بوريالاس. لقد أخبرتني عن وجود وظائف من أجل مضيفات المخيمات شمال أرضها في سلسلة جبال تشيريكاهواس، والتي تعد جزءاً من غابة كورونادو الوطنية.

لقد تجاوزت ما بدا أنه أرض شجيرات لا نهاية لها، وغير مأهولة في معظمها. بدا الإسفلت أمامي وكأنه بركة مياه تتلألأ من بعيد تحت أشعة الشمس؛ إنه سراب حراري يختفي عندما أقترب منه. رأيت لافتةً مهترئةً كتب عليها: «سياسة تجارة حرة: اجلب المخدرات واحصل على المليارات». وجدت بعض المنازل منخفضة السقف بين النباتات هنا وهناك، واتضح أنها مهجورة منذ زمن بعيد؛ نزعت الأبواب والنوافذ من مكانها وتُركت فجوات مفتوحةً، فضلاً عن تلك الموجودة بين ألواح الأسطح الملتوية، والتي اخترقتها العوارض الخشبية الهيكلية. رأيت على الجانب الأيسر من الطريق ضريحاً أبيض صغيراً غطته زهور اصطناعية، إضافةً إلى عربة ترفيهية إفرادية حديثة الطراز ومعزولة على مسافة بعيدة، كان المشهد أشبه بلقطة البداية من مسلسل بريكينغ باد.

بعد عدد من الانعطافات الخاطئة، وجدت طريقاً وعراً إلى الشرق، والذي ذكر في إعلان كريغزليست عن أرض ليندا. عانقت العقارب الساعة الواحدة، فأرسلت إلى ليندا رسالةً نصيةً مفادها أنني سأتأخر عشر دقائق. جاءني ردها سريعاً: «أنا مستعدة».

كان الطريق ضيقاً وغير مستوٍ، ولكن من حسن حظي أن التراب الأحمر تكتل على بعضه بسبب أمطار منتصف الصيف. لقد شعرت بالتوتر والحماسة في الوقت نفسه، ربما كنت أقود بسرعة أكثر قليلاً من اللازم. ماذا لو وجدت شيئاً سيئاً هنا؟ ماذا لو لم يعجب المكان ليندا؟ اهتزت السيارة على طول الطريق طاردةً كل الطيور من الشجيرات المنتشرة على جانبيه. عبر الطريق أمامي أرنبوس أسود الذيل وهو نوع من الأرانب، ذو أذنين كبيرتين تشبهان أذني الأرانب في الرسوم المتحركة. سرعان ما ظهر تقاطع مع زوج من لافتات الشوارع الرسمية التي لم أرَ أياً منها إلى تلك اللحظة، لقد كان وجودها غريباً وسط طريق برية غير معبدة. سلكت طريقاً ترابياً آخر، وقدت السيارة

مسافة نصف ميل. ظهر إلى اليسار شبح طريق غطته نباتات المسكيت، تدلى من إحدى الشجيرات شريط وردي باهت بسبب أشعة الشمس.

تفقدت خريطة هاتفي الذكي. كانت نقطة الجي بي إس الزرقاء إلى جوار مجموعة النجوم التي تحدد أرض ليندا. كانت إشارة الهاتف قويةً، ولذلك استعملت الهاتف كنقطة اتصال واي فاي كي أتمكن من الاتصال بالإنترنت عن طريق حاسوبي المحمول، ثم اتصلت مع ليندا من أجل الاجتماع معها عن بعد. لم تجب في المحاولة الأولى، ولكنها أجابت عندما اتصلت مرةً ثانيةً. كانت تبتسم وقد تجعدت زوايا عينيها خلف نظارتها ثنائية البؤرة حمراء اللون. انتظرتها أن تلقي تحيتها المألوفة ذات المقاطع الثلاث.

صاحت ليندا: «مرر – حباً – أأأأ». تخلل مقطع الفيديو سلسلة من الصور الساكنة بسبب انقطاع الإرسال، مثل صفحات كتاب التقليب وهو كتاب يحتوي مجموعة من الصور التي تعطي رسماً متحركاً عند تقليب الصفحات سريعاً. قالت لي: «إن الاتصال لديك متقطع». ولكن كان الصوت واضحاً ولم أفقد الاتصال، ولذلك قررنا أن نجرب الأمر. أدرت واجهة حاسوبي المحمول إلى الأمام، واتجهت غرباً على الطريق. صاحت ليندا: «أنا أرى غيوماً!». كنت قد وضعت آلة التصوير في زاوية واسعة بحيث صورت مشهداً للسماء، رأت ليندا منظر أنفي من الأسفل بينما عدلت وضعيتها. أخيراً، تمكنت منها.

قالت ليندا غير مصدقة: «أوه، انظري! هل ذاك هو الطريق؟». وأضافت أنه كان يفترض بالفدادين الخمسة أن تكون محددة بواسطة أوتاد من أنابيب بلاستيكية. هل رأيت شيئاً كهذا؟ أجبت نفسي: ليس بعد. تمكنت من رؤية: الجفاف، والأرض المحمرة، وظلال جبال مول على الجانب الآخر من الوادي. قالت ليندا في دهشة: «لا بد أن المناظر جميلة جداً أليس كذلك؟ غاري، تعالَ واجلس وشاهد هذا». لم أرَ غاري قبل أن تناديه ليندا.

جاء صوت مكتوم قليلاً: «لا أستطيع الجلوس».

أجابت ليندا: «حسناً، اتكئ إلى شجرة».

حدق إلى الشاشة من فوق كتف ليندا رجل كبير في السن، يضع نظارة ذات إطار بلاستيكي أسود، بشعر رمادي خفيف من الأعلى، عبست جبهته عندما ألقى نظرةً، وارتسمت على وجهه أمارات الفضول وحب الاستطلاع.

أشار غاري قائلاً: «إن الطقس غائم اليوم. انظري إلى كل ذلك العشب». ابتسم غاري عندما ضحكت ليندا على الدعابة، وتابع مكفهراً: «ربما ستحتاجين إلى آلة جز العشب».

تراءى لي عمود منبثق من الأرض كالشظية فسألتها: «هل هذا العمود البلاستيكي؟».

انحنت ليندا، وحدقت إلى الشاشة، ولكنها أجابت بالنفي. بقيت أسير، وحذرتني بقولها: «احترسي أين تخطين وتأكدي من عدم وجود أية أفعى». كان وجود ثعبان الأجراس شائعاً حول المخيم حيث عمل غاري وليندا في غابة سيكويا الوطنية، وكانت ليندا تعلم بوجودها هنا أيضاً.

أخيراً اقتربنا، فقد وجدت أنبوباً بلاستيكياً بطول خمسة أقدام تقريباً إلى جوار كومة صخور صغيرة إضافةً إلى عمود من حديد التسليح. قالت ليندا متحمسة: «أوه! أنا أراه. كيف يبدو الأمر على نظام تحديد المواقع خاصتك؟». لقد كانت النقطة الزرقاء – موقعي في الصحراء – على إحدى النجوم التي تحدد زاوية الأرض الشمالية الشرقية تماماً. قلت لها: «لقد تطابقتا!». هتفت ليندا فرحاً. سألتها: «أين تريدين أن أذهب؟ نستطيع أن نفعل ما تشائين».

أرادت ليندا رؤية الأخدود، والذي يمثل سريراً نهرياً جافاً يعبر زاوية أرضها الشمالية الشرقية. لقد أخبرها البائع أن العديد من الزبائن المحتملين تراجعوا عن شراء الأرض بعد رؤيته، ولكن ليندا فكرت في كونه مفيداً في جمع مياه الأمطار خلال العواصف الصحراوية، وشرحت ذلك لاحقاً بقولها: «حسناً وكما تعلمين، أنا أفكر في الحصول على المزيد من المياه دوماً».

تبادلنا النكات على طريقي غرباً، كنت أحمل حاسوبي أمامي مثل عصا التنقيب عن المياه الجوفية؛ عصا تشبه الرقم ثمانية، وتوجد خرافة في كونها وسيلة من أجل تحديد مكان وجود المياه الجوفية. توسلت إلى ليندا قائلةً: «أخبريني مباشرة إن رأيت أفعى قبل أن أراها». ولكنها أشارت إلى أن البث متقطع، وأن تحذيرها إياي لن يجدي نفعاً، وقالت بصوت متخامد: «أوه أجل، مع التأخير وكل شيء آخر». تحدثنا بشأن الطقس حيث كانت وغاري على الطريق إلى كنتاكي غرب مدينة غوبلين في ميسوري، لقد وصلت درجة الحرارة إلى ثلاث وتسعين درجةً كما الحال هنا، باستثناء أن الطقس مشمس هناك ورطب. قالت ليندا: «يا إلهي! أنا أتعرق بشدة». لقد كانت تسابق على الطريق السريع 44 قبل لقائنا كي تجد استراحةً مع الكثير من الأشجار الظليلة والتي من شأنها أن تقيها من عذاب الحرارة ورطوبة صيف الغرب الأوسط. (شرحت لي لاحقاً أن كلمة «تسابق» تعني قيادة سكويز إن بسرعة اثنين وستين ميلاً في الساعة، وأية زيادة إضافية في السرعة ستجعلها تهتز بشدة).

خطوت خلال تجولي على كثيب نمل – بيت النمل – نشط جداً. أدرت آلة تصوير حاسوبي المحمول إلى الأسفل كي ترى ليندا المشهد، فقالت: «أوه! النمل اللطيف». أثار المنظر إعجابها في الوقت الذي سأل فيه غاري عن ثبات الأرض، حيث أراد معرفة إن كان هنالك صخور، فأجبته: «هناك بعض الصخور المتناثرة». تساءلت ليندا إن كان التراب رملياً حبيبياً أم مسحوقاً ناعماً. أرادت تركيب أنابيب تبريد أرضية – تشكل الأخيرة نظاماً طبيعياً للتحكم في المناخ، يدفن فيه عدد من الأنابيب على مسافة تتراوح بين خمس أقدام وثماني تحت الأرض، حيث تنخفض درجة الحرارة إلى خمس وخمسين درجةً – واستعمالها من أجل تحريك الهواء في منزلها وفي دفيئة إلى جواره. يتطلب تركيب تلك الأنابيب كثيراً من الحفر.

أخذت حفنةً صغيرةً من التراب الجاف الخشن كي أريهما إياها ثم فتحت أصابعي وراقبتها تنسكب إلى الأرض وقلت: «إنه يتفتت بسهولة. ألا تريانه

يجري من يدي؟».

أجاب غاري: «يمكن الحفر فيه بسهولة»، ووافقته ليندا بقولها: «يبدو أن تركيب أنابيب التبريد سيكون غايةً في السهولة. هذا جيد، بل رائع».

تابعنا نحو الأخدود، وأبدت ليندا إعجابها بالنباتات، فقد جعلتها أمطار الصيف مفعمةً بالحيوية ومورقةً تقريباً. تدلت أزهار صفراء رقيقة بين أوراق حشيشة الشحم – اسم النبتة – الشمعية. كللت الفطور النفاثة التي تغطيها حبوب الطلع الصغيرة أزهار الأكاسيا بيضاء الأشواك. كما أنهت نبتة اليوكا للتو دورة إزهارها، وبرزت ساق ذابلة من كل كتلة من الأوراق التي تشبه النصول الحادة، حاملةً رأساً من الأزهار الجافة. مررنا إلى جوار نبتة صبار غريبة ذات أذرع طويلة متموجة تبدو وكأنها مجسات شائكة، وقد غطتها فاكهة حمراء تشبه مقابض الأبواب والتي ذكرتني بالتين الشوكي. كانت ليندا تعلم أنها ليست كذلك، إذ قالت: «يمتلك نبات التين الشوكي أوراقاً مسطحةً، إن هذا صبار من نوع آخر. يجب أن يكون قابلاً للأكل». (علمت لاحقاً أنها كانت نبتةً شمعيةً ليلية الأزهار – تدعى ملكة الليل – والتي تتفتح أزهارها الليلية مرةً واحدةً في السنة).

عدت إلى طريقي بحثاً عن الأخدود الذي ظهر أمامي. سألت ليندا: «هل هذا أخدود حقاً أم مجرد خندق؟ كم يبلغ عمقه؟». وضعت الحاسوب على الحافة، ووجهت آلة التصوير ناحية الأخدود، ونزلت إليه كي تتمكن ليندا من تقدير عمقه. اصطدم وركي في بعض الأماكن، وكتفاي في أماكن أخرى؛ أعتقد أن عمقه يتراوح بين ثلاث أقدام وأربع.

سألت ليندا: «هل هو بهذا العمق على طول الأرض؟». لم يكن كذلك في الحقيقة. شرحت لها كيف أنه اقتطع من الأرض مثلثاً صغيراً في الشمال الغربي. خرجت من الأخدود كي أبحث عن الأنبوب البلاستيكي الذي يحدد هذه

الزاوية من الأرض كحال الزوايا الأخرى. رأته ليندا على الفور هذه المرة وصاحت: «أجل!! انظري، ها هو هناك!».

عدت أدراجي بعد ذلك إلى الأنبوب الأول وسألت ليندا: «حسناً، ما رأيك؟».

أشادت بمناظر الجبال الشاسعة ونوعية ترابها وقالت: «لقد فاقت توقعاتي. اعتقدت أنه يمكن أن ينتهي بي المطاف في مكان مليء بالصخور مثل إهرينبيرغ، ولكن لا وجود لذلك هنا»، مشيرةً إلى المدرجات الحصوية حيث خيمت بعد انتهاء ملتقى ساكني العربات. بدا المشهد وكأنه لسطح القمر، مع القليل جداً من الحياة النباتية. كانت ليندا مسرورةً من مسح الأرض وتحديدها بشكل ملائم. قالت لي: «إنها صفقة رائعة، ولا سيما نسبةً إلى سعرها، يا إلهي!».

عرضت عليّ ليندا باستمرار طيلة السنوات الثلاث والنصف التي عرفتها فيها صوراً عن سفينة الأرض المفضّلة لديها، كانت نموذجاً يدعى نوتيلوس، ذات أرضية مصممة وفق متتالية فيبوناتشي. تخيلتها قائمةً على قطعة الأرض هذه، بجدران طينية مائلة تحاكي ملامح الجبال المحيطة. أخبرتها أنني أحاول تخيل سفينة الأرض هنا.

أجابت ليندا بسعادة: «أجل، ستكون جميلةً جداً هنا، أليس كذلك؟». لقد خططت من أجل المجيء والتخييم عندما ينتهي عملها في أمازون ويصبح الطقس أكثر برودةً. فكّرت في تحديد مكان البناء بمجرد رؤيتها الأرض بنفسها. قالت لي: «سأجلس على الأرض قليلاً وأكتشف أين سأبني المنزل».

قضيت نصف الساعة الماضية أمشي وأتحدث تحت سماء ملبدة بالغيوم، وهذا ما جعل الأمور مريحةً على الرغم من درجات الحرارة التي هي بحدود التسعينات. برزت الشمس لاحقاً، وأحالت الصحراء مشواةً. أومض تنبيه

درجة الحرارة على حاسوبي المحمول؛ لن يعمل لفترة طويلة في ظل درجات الحرارة المرتفعة. توقف مقطع الفيديو ثم انقطع الاتصال، وانتهت الجولة.

أمضيت وقتاً طويلاً أفكر في معنى هذه الأرض بالنسبة إلى ليندا. كانت خطوتها هذه تقدماً ملموساً نحو حلم بناء شيء لا يستطيع أحد سلبها إياه. ولكن أضافت رؤيتها على الشاشة اليوم رفقة غاري بعداً جديداً. لقد صدمتني ليندا على الدوام في كونها انعزاليةً رغم جاذبيتها. امتلكت عائلتها وأصدقاء أعزاء بالطبع، ولكن أبقتهم على مقربة منها في ظل استقلالها الشديد. بدأت أتساءل الآن حول ماهية حياتها المستقبلية مع دخول أناس جدد إليها. هل سينتهي المطاف بأن يسكن غاري مع ليندا؟ هل ستزورها لافون والرحّل الآخرون في منازلهم المتنقلة؟ ومن هم جيران ليندا؟ هل يوجد شخص آخر يمكن الاعتماد عليه في أرضها المعزولة؟

لم أرَ شخصاً آخر في الأرجاء، ولذلك شربت كثيراً من الماء، وانطلقت في السيارة مجدداً بحثاً عن علامات تشير إلى وجود سكن بشري.

كانت الأحصنة هي الدليل الأول، حيث وقف ثلاثة منها خلف بوابة خضراء اللون على بعد ميل واحد جنوب غرب أرض ليندا، راقبت الأحصنة السيارة بارتياب وهي تقترب، ثم مشت على مهل. كتب على لافتة على البوابة «ممنوع التعدي على الملكية: تحت طائلة القانون»، تخللها تسع ثقوب صدئة صنعتها رصاصات سابقة إضافةً إلى انفجار طلقة بندقية حديث العهد لم يصدأ بعض. وجدت غلافاً أصفر اللون يعود إلى طلقة من عيار عشرين محطمةً على الأرض في الجوار.

هب نسيم حرك الشجيرات، وأصدر صوتاً بين الحك والصرير، والذي بدا أنه قادم من كوخ متهالك على شكل حرف (آي – A) قائم على بعد مئة ياردة إلى الغرب. كان لوح قصديري مخلوع يترجح على السقف صعوداً وهبوطاً. للوهلة الأولى خطر لي أن بعض الناس قد لا يرغبون في أن يعثر أحد عليهم.

إن إخافة الناس هنا خطأ جسيم، ولذلك اقتربت ببطء وناديت كما لو أنني سائحة تائهة: «مرحباً!»، ولكن أحداً لم يجب.

صُنع الكوخ من الخشب الرقيق والأسلاك التي تستخدم في صناعة قن الدجاج والقصدير. تدلت قطعة قماش زرقاء من ثقب في الجدار. كان فارغاً من الداخل باستثناء وجود مقعد صغير على الأرضية القذرة. غطت أكوام من المخلفات الأرض الصحراوية حول الكوخ مشيرةً إلى غياب الحياة عنه. كان هناك زوج من دمى الدب، ووعاء طهو ذو مقبضين، وفردة حذاء ذات كعب عال، وعلاقات ملابس، وعلب فارغة، وأكواب خزفية، وشريط كاسيت لفرقة شيكاغو. تساءلت إن كان سكان هذا المكان قد غادروه على عجلة من أمرهم. (سأقرأ لاحقاً حول البقايا التي تتراكم في الصحاري الحدودية، لقد ترك المهاجرون المرهقون الكثير منها. إذ يجب في بعض الحالات على أولئك الذين يدخلون البلاد سيراً على الأقدام أن يستغنوا عن بعض ممتلكاتهم من أجل أن يحصلوا على مكان في السيارات المزدحمة التي ستنطلق بهم بعيداً).

تابعت القيادة، واكتشفت المزيد من الأدلة على الوجود البشري. استطعت خلال مسيري على طريق ترابي يبعد نصف ميل شمال الكوخ السابق رؤية رقعة من الأرض برز عليها عدد من الأكواخ المسطحة، وحظيرة مصنوعة من الألواح النقالة، ودفيئتين في شكل حلقتين، أو أنهما حديقتان ربما؟ إضافةً إلى سيارة قديمة بغطاء محرك مفتوح، وجميع ما سبق محاط بأسلاك شائكة. وجدت على طريق العودة إلى الشرق قطعة أرض لم ألاحظها سابقاً، كانت تبعد ثلثي ميل جنوب غرب أرض ليندا. نهق حمار في الحقل بصوت عالٍ عندما أوقفت السيارة. رأيت مقطورة سفر أيضاً، لونها أبيض كالعظام، مع بورتا بوتي مربوطةً إلى جانبها. ناديت على من يسمعني، ولكن لا إجابة.

أظهرت خريطة الأقمار الصناعية مزرعةً بعيداً في الجنوب. ربما أجد أحداً في المنزل؟ تابعت التوجيهات على الخريطة. مررت بأبقار سوداء

تسترخي تحت أشجار المسكيت. تراءى لي بعد برهة سياج يحيط بمنزل خلفه، ولكن سرعان ما أصبح الطريق سيئاً، حيث قدت السيارة صعوداً، ثم هبطت بها إلى بركة مائية تعكس زرقة السماء. حاولت القيادة على حافتها، ولكن التراب كان ناعماً، ولذلك انتهى أمر الكورولا غارقةً في الوحل. لم تفلح محاولة إرجاع السيارة إلى الخلف سوى في تدوير العجلات ونشر كتل الطين على السيارة البيضاء المستأجرة.

تذكرت تحذير ليندا: لا تعلقي.

كانت إشارة استقبال الهاتف ضعيفةً من السيارة، ولذلك خرجت بصعوبة وتسلقت ساتراً رملياً. تمكنت بعد خمس محاولات فاشلة من الاتصال مع جمعية السيارات الأميركية، ولكنهم أخبروني أن الخدمة غير متوفرة على الطرق الترابية. كان الخيار التالي هو الاتصال مع نالي بيت ستوب، وهي شركة جر سيارات عائلية. كان لوني، مالك الشركة، قد خرج من أجل العمل. هل كان بإمكاني الانتظار من أجل أن يعاود الاتصال بي؟ بالطبع. تجمعت سحب كثيفة في السماء الجنوبية الشرقية، ما جعل السير إلى منزل المزرعة فكرةً جيدةً. عندما اقتربت، اخترق نشاز من النباح الصمت الذي خيم على المنزل. كانت الكلاب هي حراس الباب، فقد جابت العشرات منها الأراضي، بعضها حر وبعضها يسير في الحظائر. كان أصغرها جرواً أبيض وأسود، عيّن نفسه مفوّضاً من أجلي وهرول خلفي. رأيت في الفناء الأمامي جهاز لحام، وجزازة عشب آلية، ووعاء مرحاض مليئاً بالحجارة الكبيرة. ارتقيت إلى البوابة وناديت على السكان، ولكن أحداً لم يجب.

رنّ الهاتف خلال عودتي إلى السيارة. قال لوني إنه قريب مني. سرعان ما ظهرت شاحنة جر مسطحة حيث كانت الأبقار. تسلقت الساتر الترابي ولوحت بذراعي وكأنني منبوذة.

رأى لوني وابنه، لوني جونيور فأسرعا. وقع جزء من المزرعة ضمن السهول الفيضية. علقت شاحنة يو بي إس هنا مرةً خلال الموسم المطري. تذكر لوني أنه في وقت اتصال السائق به، كان الماء يندفع متجاوزاً الإطارات، ولم يسعه فعل شيء حتى جفت الأرض.

ربط لوني الصغير خطافاً أسفل مصد الكورولا الخلفي، ووضعتها على الوضع الحيادي ورفعت إبهامي إليه. بدأت السيارة تسير إلى الخلف خارج الطين في الوقت الذي وصلت فيه شاحنة بيك أب عنابية اللون ذات دفع رباعي من الجانب الآخر من الخندق. خرج منها رجل يعتمر قبعة كرة القاعدة سوداء بحافة عريضة وسروال جينز من رانغلر وراقب ما يحدث واضعاً يديه على خصره. لوّحت إليه بخجل من خلف المقود.

علّق الرجل: «يا لها من بقعة غادرة». كانت لحيته حمراء وجلده وردياً منمشاً مثل لحم البقر المشوي غير الناضج. دفعت إلى لوني وابنه بعد إخراج السيارة مقابل سحبها – ثمانين دولاراً وعشرين إضافيةً إكرامية – وشكرتهما. قدم صاحب البيك أب نفسه على أنه مالك المزرعة، وسألني: «هل جئت إلى هنا بمفردك؟». شعرت بعدم الارتياح، ولكن لم أستطع التفكير في أية إجابة معقولة باستثناء الصدق. ولذلك أخبرته عن ليندا وسألته عن ماهية الحياة هنا. أخبرني المالك أنه يربي قطيعاً من خمسين رأساً من ماشية برانغوس – وهي هجينة فصيلتي براهمان وأنغوس، وربيت على تحمل الحرارة والجفاف، ويعيش على هذه الأرض منذ ستة وعشرين عاماً. قال إن الأمور هادئة غالباً، باستثناء بعض الأوقات التي تمر فيها بغال تهريب المخدرات محملةً بحقائب ظهر ثقيلة، يفضل تجنبها. لقد تعرض إلى طلق ناري مرتين، ويحمل الآن بندقية أي أر خمسة عشر في البيك أب خاصته.

قدت بعيداً في سيارتي المستأجرة والملوثة بشكل مضحك، والتي بلغت سماكة الطين فيها إنشاً في مكان وضع القدمين، كما خرخر حذائي الرياضي في كل مرة دست فيها على الدواسات. ظهر قوس قزح أعلى الأرض التي

غادرتها للتو، فشعرت كأن الطبيعة تسخر مني بشكل شرير، أليس كذلك؟ ولكنني توقفت كي ألتقط صورةً له على أية حال.

عدت إلى وسط مدينة دوغلاس، وأوقفت سيارتي خارج فندق غادسدين وغامرت بالدخول إليه. كانت الغرفة الكهفية كهرمانية اللون بالفخامة نفسها التي وصفتها ليندا، حيث احتوت أعمدةً إيطاليةً ودرجاً رخامياً هائلاً وأرائك جلديةً. (كتب مراسل لوس أنجلوس تايمز مرةً: «إن الجلوس فيه يشبه الاسترخاء في عرين قرصان تلقى تثقيفاً كلاسيكياً). كانت نافذة تيفاني الزجاجية التي أخبرتني ليندا عنها عبارة عن لوحة جدارية على المشرف – بهو صغير كالشرفة، ولكن أكثر اتساعاً – ارتفاعها اثنان وأربعون قدماً. تصور الألواح المضيئة في الخلف مشهداً صحراوياً في دوامات من الألوان – تراب أسمر، وجبال أرجوانية في الأفق، ونباتات اليوكا الخضراء المتفتحة. لعله صور أرض ليندا بالخطأ بواسطة جواهر ثمينة. تجولت في كاسا سيغوفيا، وهو مطعم الفندق الفارغ تقريباً، وطلبت طبق إنتشيلادا – طبق مكسيكي – ثمنه سبع دولارات وكأس ميكيلادا – مشروب مكسيكي يضم الجعة وعصير الليمون ونكهة حارة. علق مشهد تيفاني في ذاكرتي مثل انطباع وميض من الضوء. أردت أن أرى ليندا تخطو إلى تلك البرية الجميلة: جنوب غرب عدن. ولكن قضيت فترة بعد الظهر كاملةً أتقي المخاوف التي بدأت تتسلل إليّ الآن بعد أن غدوت وحيدةً مع أفكاري.

قد يصل غاري وليندا إلى كامبلسفيل في ولاية كنتاكي بعد أن يقودا ليومين إضافيين. سيقضيان الأشهر الخمسة التالية هناك يعملون في ورديات عمل ليلية مدتها عشر ساعات في مستودع لأمازون. كان هدف ليندا من الوظيفة كسب المال من أجل بدء بناء منزلها، لقد عول قلبها على ذلك. ولكن عندما فكّرت في بعد الأرض – إلى جوار حرارة الصيف المثيرة للدوار، وبغال المخدرات المسلحة، والفيضانات المفاجئة، والأفاعي الجرسية – تساءلت: هل كانت تلك خطةً مجنونةً؟ لقد انتابتني شكوك من قبل حول حلمها خلال

السنوات الثلاث التي تأملته فيها جيداً. ولكنني اعتمدت في معظم الأوقات على شعار ثوكس مولدر من مسلسل ذا إكس فايلس: «أريد أن أؤمن».

أرسلت إلى ليندا لاحقاً بعض الملاحظات حول ما علمته عن المنطقة من أشياء جيدة وسيئة، وأفصحت عن مخاوفي، إضافةً إلى رسالة إلكترونية تحوي خريطةً، مع صور عن أرضها ومحيطها. لم تجب على الرسالة الأولى، ولكن كتبت إليّ من أمازون تخبرني بمقدار سعادتها بشأن الصور، حيث قالت: «أراها عدداً من المرات كل يوم وأحلم بأنني هناك. أنا أكره هذا العمل اللعين، وهذا ما يشجعني على المضي قدماً، سأكون حرةً بعد خمسة عشر أسبوعاً».

اجتمعت مخاوفي في تلك الأثناء في قلب معدتي. هل سيحتمل جسد ليندا مصاعب البناء وقسوتها؟ عادت بي الذاكرة إلى جولتها الأولى في أمازون في فيرنلي، نيفادا، عندما أودى بها الدوار إلى غرفة الطوارئ بسبب الحركة المتكررة عند استخدام مسدس الماسح الضوئي. استغرق معصمها ثلاث سنوات حتى شفي. ماذا لو آذت نفسها مجدداً؟ منذ ذلك الحين، بدأت أمازون تستخدم ماسحات ضوئية خفيفة الوزن من أجل الرموز الشريطية؛ ربما سيساعدها ذلك؟ كما قلقت بشأن أن ينهكها العمل. رغم تعيين ليندا في البداية عاملة تخزين، مهمتها ترتيب البضائع على الرفوف، فقد أخبرتني أن المديرين كانوا يفكرون في نقلها وبعض عمال كامب فورس الآخرين إلى وظائف أكثر صعوبةً، كالجامعين، الذين يجمعون الطلبات. لقد أخبرتني في العام الماضي إحدى الجامعات أنها ارتدت ساعة فيت بيت إلى العمل، وأدركت في النهاية أنها قطعت ثمانية عشر ميلاً وصعدت الأدراج أربعةً وأربعين مرة في يوم واحد.

هل ستتمكن ليندا، رغم نجاح جولتها في أمازون، من توفير ما يكفي من المال كي تبدأ بناء سفينة الأرض؟ لقد بلغ أجرها في المرة الأخيرة التي عملت فيها في كامب فورس قرابة 11.50 دولاراً في الساعة دون إضافات العمل الليلي والإضافي. يبلغ راتبها الآن 10.75 دولارات. (لقد بدأت ليندا العمل في

منشأة فيرنلي، والتي قدمت أجوراً أفضل من بعض فروع كامب فورس، ولكن المستودع أغلق في العام 2015).

أنا قلقة حيال معنوياتها أيضاً. لقد راقبت ليندا عن كثب خلال موسم عملها الأول في أمازون كمية الأمور التافهة التي ينفق الأميركيون أموالهم عليها وشعرت بالاشمئزاز. زرعت تلك التجربة بذرة خيبة الأمل فيها، واستمرت في النمو حتى بعد مغادرتها المستودع. بدأت تقرأ حول البساطة وحركات نصرة المنزل الصغير بعد انتقالها من عربة ترفيهية كبيرة إلى مقطورة صغيرة. لقد فكرت كثيراً في ثقافة المستهلك وكمية القمامة التي يكدسها الناس في حيواتهم القصيرة. تساءلت إلى أين ستقود كل تلك الأفكار.

ما زالت ليندا في صراع معهم. بعد أسابيع من بدء عملها في كنتاكي، أرسلت إليّ أنها ستنشر التالي على الفيسبوك:

> *«سألني أحدهم لماذا أريد بناء منزل معزول والسكن فيه؟ إن ذلك من أجل الاستقلال، والخروج من سباق الجرذان، ودعم الأعمال المحلية، وشراء البضائع أميركية الصنع فقط، والتوقف عن شراء أشياء لا أحتاجها كي أثير إعجاب أشخاص لا أحبهم. أنا أعمل الآن في مستودع كبير تابع إلى شركة توزيع ضخمة عبر الإنترنت. تصنع كل الأشياء التافهة في مكان آخر من العالم حيث لا توجد قوانين عمالة الأطفال، ويعمل العمال أربع عشرة ساعةً أو ست عشرة دون استراحة طعام أو لدخول الحمام. إن هذا المستودع الممتد على مليون قدم مربعة مكدس بالعديد من الأشياء التي لن ينقضي شهر على وجودها هنا، ستنتقل إلى مكب النفايات. تمتلك الشركة المئات من المستودعات. إن اقتصادنا قائم على عاتق العبيد الذين نبقيهم في الدول الأخرى، كالصين، والهند، والمكسيك، وأي من دول العالم الثالث حيث القوى العاملة رخيصة، ولا نحتاج فيها أن نراهم، بل نستمتع من*

نتاج عملهم. إن هذه الشركة الأميركية على الأرجح أكبر مالكة عبيد في العالم».

تابعت بعد إرسال الرسالة السابقة:

«إنها أفكار متطرفة وأنا أعي ذلك، ولكن هذا ما يجول في خاطري عندما أكون في العمل. لا شيء قيم في مستودع المواد هذا. إنه يستعبد الزبائن الذين يستخدمون بطاقاتهم الائتمانية من أجل شراء تلك التفاهات. يبقيهم في وظائف يكرهونها من أجل إيفاء ديونهم. إن الوجود هناك أمر محبط».

أضافت ليندا: «لم أتطرق بعد إلى المشاكل الأخلاقية. كيف أفتخر بالمال الذي أجنيه من أجل إكمال خطتي. أنا أعلم أن المال لا يدري مصدره. ولكن هل توجد طريقة في الوقت الراهن من أجل الحصول على الأموال التي أحتاجها في الوقت المناسب؟ لا أملك الكثير من الوقت كي أعيشه».

عبّرت ليندا عن مشاعرها في سطر أخير: «يشبه الأمر سارق بنك يسطو للمرة الأخيرة قبل أن يتقاعد».

لم تخبرني ليندا أياً من ذلك عندما كنت في دوغلاس. أخذت طبق إنتشيلادا وتساءلت ماذا سيحدث لاحقاً. كانت الشمس تغرب عندما ركبت سيارتي، وقدت شمالاً على الطريق السريع 191. لم يهطل المطر الذي هدد اليوم بأكمله، ولكن الغيوم تحركت إلى الغرب واستقرت أعلى جبال مول، حيث اخترقتها قممها وشكلت صدعاً في السماء، وتخللتها جدائل شمس النهار الأخيرة ذات اللون الصدفي، يجمع درجات اللونين الوردي والبرتقالي، قبل أن تستحيل حمراء قاتمة. التفتت إلى اليسار بعد عشرين ميلاً، وتابعت على حافة جبال مول العلوية. كان الظلام قد خيم حينها، وأومض البرق فوق نطاق جبال دراغون، وإلى الشمال منها.

مررت عبر مدينة تومبستون – «المدينة صعبة الزوال» – وتوقفت في تيكساكو في بينسون. أطلقت مصابيح الإنارة في المظلة فوق مضخات الوقود وهجاً ساطعاً يشبه ضوء النهار، والذي حلقت حوله حشرات العث والخنافس في شكل حلزوني، إنه مرقص حشرات. رن هاتفي مشيراً إلى وصول رسالة نصية من ليندا سألتني فيها: «هل عدت إلى المدينة؟». أجبتها بالإيجاب. أخبرتني أنه بعد فقدان الاتصال بيننا في الصحراء، قطعت وغاري سبعين ميلاً في رحلتهما عبر البلاد إلى كنتاكي قبل التوقف ليلةً واحدةً في سبرينغفيلد في ميزوري. وأضافت: «نحن نقطع ثلاثمئة ميل في اليوم، إن غاري منهك للغاية، والشمس تنهل مني».

كتبت إليها: «أنا سعيدة لأنكما تقتربان». استغنيت عن إرسال الرسائل النصية واتصلت بها، وتحدثنا عن الأرض.

قالت ليندا: «إنها جميلة. ستحبين التراب حتى عندما تمسكين به. أما غاري، فهو معجب بي حقاً، وقد عمل في العديد من الوظائف كما فعلت أنا! لقد أدار قسم تصوير شعاعي، ومتجر خضار، وعمل في البناء. كما أنه ذكي جداً وقوي الذاكرة. ويكتب بخط جميل، ويتعامل ذهنياً بسهولة مع الأرقام وكل ما يتعلق بالرياضيات».

سألتها إن كان سيساعدها في بناء سفينة الأرض، فأجابتني متأملةً: «لا أدري إن كان يريد الاستقرار. ولكنه وجد خطتي جيدةً جداً. أنا لا أتخيل أشياءً، الأمر ليس مجرد خيال، بل هو شيء قابل للتنفيذ». أضافت ليندا أن أرض الصحراء ستبقى ملكاً سواء تطورت علاقتهما أم لا. لقد كان بناء المنزل حلمها في نهاية الأمر.

ما يهم الآن هو الوصول إلى كنتاكي والنجاح في البقاء هناك حتى عيد الميلاد. لقد استطاعت بالفعل رؤية الجانب الآخر من أمازون: الانتهاء من العمل وحصولها على أموال وامتلاكها خطةً من أجل إنفاقها، ثم القيادة إلى

أريزونا من أجل التخييم في أرضها. تخيلت نفسها طوال الطريق تخطط من أجل المستقبل في أرضها والتراب ينسل بين أصابعها. كان أي شيء يدفعها خلال ليالي أمازون. لقد أمضت سنوات تخطط، وكانت مستعدةً من أجل تحويل كل ذلك التفكير الكامن إلى عمل.

قالت لي: «أنا سعيدة، سعيدة، سعيدة. لا أطيق انتظاراً حتى أصل إلى هناك وتحقيق حلمي».

بعد ذلك، أنهينا المكالمة. فقد تأخر الوقت وكان أمام ليندا يوم طويل آخر من القيادة».

الخاتمة

الأخطبوط في جوز الهند

حلّ الشتاء باكراً في أميركا. هبت العواصف الثلجية بشدة، ملونةً القارة من الغرب إلى الشرق باللون الأبيض.

حلّق الثلج في أعالي جبال سان برناردينو في كاليفورنيا بين أشجار الصنوبر في جيفري كي يستقر في المخيمات غير المأهولة في هانا فلات، وحطّ على سطح مصنع ألواح الجص الهادئ ومنازل إمباير الفارغة في نيفادا، وغطى حقول الشمندر السكري النائمة، وهبّ حول مستودع أمازون في كامبلسفيل، وكنتاكي، ومواقف العربات المجاورة، حيث يقطن عمال كامب فورس.

أما في مدينة صغيرة في صحراء سونوران، فالشمس مشرقة وتتجاوز درجات الحرارة بعد الظهر حاجز السبعين. بدأت الهجرة السنوية إلى كوارتزسايت، التي يقوم بها عشرات الآلاف من الرُحل من كل أنحاء البلاد. يجتمعون حول نيران المخيمات المسائية، ويقصون القصص التي حدثت لهم خلال العام الذي يوشك على الانتهاء، ويخططون من أجل العام القادم.

عادت سوانكي ويلز إلى كوارتزسايت بعد استضافة المخيم خلال أوائل الخريف في كولورادو روكيز، حيث احتفلت بعيد ميلادها الثاني والسبعين، وكسرت ثلاثة أضلاع خلال عملها. ركبت سقفاً متحركاً في عربتها بعد معاناتها

مع الليالي الباردة في عربتها التي تفتقر إلى الدفء، ولفتها حول سريرها خلال نومها. إنها تتدرب الآن من أجل التحدي الجديد الذي ستواجهه مستقبلاً: الخروج في نزهة أريزونا ترايل التي تمتد على مسافة ثمانمئة ميل.

أقيم مخيم سيليفيا ديلمارس قرب سوانكي. كانت تعمل نهاراً أمينة سجل في جيم ورد، وهو منفذ بيع في المدينة من أجل البلورات ومستلزمات صناعة المجوهرات. نهضت متحمسةً في إحدى حفلات عشاء الكاريوكي كي تغني نشيدها، «ملكة الطريق»، أمام عشرين شخصاً تقريباً وسط الهتافات والتصفيق. وكانت تستعد من أجل الخروج في موعدها الأول منذ سبع سنوات؛ عشاء مع ساكن عربة ترفيهية وسيم التقته في محطة حراسة الغابة.

عادت لافون إليس إلى إهرينبيرغ بعد مهمة استمرت أسبوعين في ستاندينغ روك، حيث انضمت إلى المتظاهرين الذين يعترضون على خط النفط في داكوتا الذي يمتد تحت الأرض – احتج الكثيرون على افتتاحه بسبب آثاره الضارة وتدميره مدناً ذات حضارات عريقة. جاهدت في هدوء الصحراء وخلال دخولها في حالة قفلة الكاتب – هي حالة يفقد فيها الكاتب القدرة على إنتاج عمل جديد أو يتباطأ في إنهاء عمله الإبداعي – من أجل إنهاء مذكرات طفولتها القصيرة بعنوان شجرة عيد الميلاد ذات الريشة الحمراء، والتي نشرتها على موقع أمازون. (كتبت في التشكرات: «لم تشك ليندا ماي فيّ أبداً»). زارت لوس ألغودونيس في وقت لاحق من أجل الحصول على نظارة طبية رخيصة الثمن. إنها ترى حلماً جديداً من أجل المستقبل: شراء أرض قرب تاوس في نيو مكسيكو، حيث تستطيع أن تركن حافلةً مدرسيةً قديمةً بشكل دائم، وتنشئ قاعدةً منزليةً من أجل السكن فيها بين رحلاتها في العربة.

كان بوب ويلز في إهرينبيرغ أيضاً، ويستعد من أجل استضافة أكبر ملتقى ساكني عربات على الإطلاق. وضع قواعد جديدة من أجل التجمع الذي سيستمر أسبوعين، وذلك بعد أن توقع قدوم مئات الأشخاص، حظر فيها الموسيقى الصاخبة وإطلاق الكلاب، كما أزال وجبات المجموعات عن برنامج

الأحداث، حيث اعتقد أن تنظيمها سيكون صعباً نظراً إلى وجود الكثير من الأفواه من أجل إطعامها. (لا يعرف بوب سوى القليل: سيصل أكثر من خمسمئة منزل متنقل إلى الملتقى في هذا العام، حيث جذب معظمهم مقاطع الفيديو التي كان بوب ينشرها على اليوتيوب).

سيصل المزيد من الرحّل قريباً، ومن بينهم ديفيد سوانسون، عامل الخزف المحترف السابق الذي يعيش في سيارة بريوس معدلة. كان ديفيد متحمساً من أجل العودة إلى ملتقى ساكني العربات، حيث أدخل بعض المراقبين إلى عربته في العام الماضي، إنه يركن عربته الآن في بادر آيسلاند في تكساس. لقد وصفها في رسالة أرسلها إليّ على فيسبوك على أنها «جنة الرحال»، حيث التخييم في الخيام والسيارات قانوني، ثم سألني: «هل ستذهبين إلى ملتقى ساكني العربات 2017؟».

كتبت إليه متأسفةً: «لقد حضرت ملتقيات ساكني العربات الثلاثة الأخيرة، وأنا حزينة جداً من لقدرتي على حضور الملتقى القادم». سأخبر ديفيد أنني بصدد إنهاء الكتاب الذي أكتبه.

أجابني ببشاشة: «حظاً سعيداً في تجميع الكلمات، اعملي بجد».

لقد أثار سؤال ديفيد قلقاً كبيراً في داخلي، من الخطأ أن أفوّت ملتقى ساكني العربات بعد ثلاث سنوات من توثيق حياة الترحال. كررت في نفسي القاعدة الأساسية في الكتابة الواقعية: تستمر ملامح القصة في الظهور في المستقبل، ولكنك تبتعد في لحظة ما.

أنا مخطئة بشأن الجزء الأخير، فقد تبعتني القصة إلى المنزل. لا أستطيع التوقف عن رؤية المنازل الصغيرة المحمولة على عجلات، إنها في كل مكان في بروكلين.

تقع شقتي في بويروم هيل قرب موقف سيارات دون عداد، حيث رأيت عربة تخييم فضية من نوع فورد ذات سقف عال ومزودةً بـ نازار – وهي قلادة

من أجل درء عين الحسد – تدلت من مرآة الرؤية الخلفية. ظللت النوافذ بلون داكن شبه أسود، وخلفها ستائر مفتوحة.

يوجد منزل متنقل قديم يقع على الجانب الآخر من موقف شاحنات تجارية على مسافة قصيرة من مبنى أختي في بيد ستوي. انسدلت فيه ستارة الخصوصية في الجزء الخلفي من حجرة القيادة. غطت رقائق العزل الحافظة للحرارة الزجاج في السرير العلوي، وغطت أكياس قمامة وشريط لاصق تجويفاً قرب الإطار الاحتياطي المثبت في الخلف، في المكان الذي احتوى نافذةً سابقاً.

ركنت العديد من عربات التخييم وعربة ترفيهية واحدة على حافة رصيف بروسبكت بارك. تجمعت قرب مستودعات منخفضة في غوانوس وكراون هايتس، حيث لا جيران يشتكون منها. كانت الملاجئ المتحركة في كل مكان، وكأنها مدينة مخفية على مرأىً من الجميع.

قصدت رود هوك في الليلة التي أعقبت أول هطول ثلجي في الموسم، وهو واحد من الامتدادات الأخيرة للواجهة البحرية الصناعية في بروكلين. كانت الشوارع القديمة مظلمةً وعلى طرفيها مجموعة متنوعة من مركبات العمل – عربات المقاولين، وفرق توصيل الطلبات، وشاحنات الطعام، ومقطورات المنافع – يوفر ذلك غطاءً جيداً من أجل الانخراط في المخيمات الحضرية. لم يمضِ وقت طويل قبل أن أراهم مجدداً: مقطورة سفر قديمة على هيئة علبة لحم، وعربة شيفي أسترو ذات ستارة خصوصية، حجبت النوافذ بواسطة أغطية بلاستيكية وأعلام أميركية. عربة نقل محولة – العربة المحولة تعمل على مصدر من مصادر الطاقة البديلة – بنوافذ مظللة، وأغطية عجلات حمراء أنيقة، وفرن بروبان مثبت بواسطة اللحام أعلى المصد الخلفي من أجل توفير الحرارة عند إيقاف المحرك. تطلى نوافذ الكثير من عربات التخييم حديثة الطراز بطلاء يحجب الرؤية.

كان المنزل الأروع على الإطلاق عبارة عن حافلة مدرسية صغيرة صفراء اللون، حجبت صفائح معدنية الرؤية تماماً عبر النوافذ. تلألأت على حافة السطح أطر الألمنيوم التي تحيط بأربعة ألواح شمسية مصفوفة بشكل مثالي، وبالكاد يمكن رؤيتها عن الأرض. علقت ستارة خلف مصد الرياح، وتكاثفت المياه على وجهها الداخلي، ولذلك قصة أخرى. ركنت بحيث تطل على إيست ريفر، حيث تستطيع رؤية تمثال الحرية كاملاً.

أرادت الصحفية التي في داخلي أن تطرق الباب. ولكن خطرت لي ذكريات التخييم خلسةً، وماهية شعور الاختباء خلف نوافذ مغطاة، وتسارع دقات القلب على خطى اقتراب شخص غريب.

مشيت بعيداً.

إن مقابلة الكثير من الرحّل حول بروكلين أمر مدهش، ومع ذلك، فهذه ليست المرة الأولى الذي أجدهم قرب منزلي. علمت في خضم كتابة تقاريري أنني التقيت ابن سوانكي الأصغر، وهو مهندس برمجيات من سياتل، منذ بضع سنوات في برنينغ مان. أدركت ولافون لاحقاً أن واحدةً من صديقاتها المقربات قد تزوجت من صحفي صديق لي في بيركلي. تساءلت في كلتا المرتين: ما هي احتمالات حصول ذلك؟

ربما لم تكن الاحتمالات قليلةً. ورغم ذلك، يتصارع ملايين الأميركيين مع استحالة وجود طبقة وسطى تقليدية. لقد تكدست فواتير غير مدفوعة على طاولات المطابخ في المنازل عبر البلاد، وعملت الأضواء فيها حتى وقت متأخر من الليل، وأجريت الحسابات ذاتها مراراً وتكراراً وسط الإرهاق وبحر الدموع أحياناً. طرح من قيمة الراتب ثمن الخضار، والفواتير الطبية، وديون بطاقة الائتمان، والقرض الطلابي وأقساط السيارة، وكل ذلك فضلاً عن الإيجار، وهو النفقة الأكبر على الإطلاق.

يطرح سؤال نفسه وسط الفجوة الآخذة في الاتساع بين الرصيد والإنفاق: ما هي أجزاء حياتك التي أنت على استعداد كي تتخلى عنها من أجل الاستمرار في العيش؟

إن معظم من يواجهون هذه المعضلة يسكنون المركبات في نهاية الأمر. يشترك هؤلاء في ما يدعوه علماء الأحياء «الأنواع المحددة»؛ وهي كائنات حساسة قادرة على التحايل في شكل أكبر على النظام البيئي.

يُجبر الملايين من الأميركيين على تغيير حيواتهم كما يحدث مع الرحّل، وإن كان ظاهر ذلك التغيير أقل جذريةً. هناك العديد من الطرق من أجل تحليل تحدي البقاء. خلال هذا الشهر، هل ستستغني عن وجباتك؟ أو تذهب إلى غرفة الطوارئ بدلاً من طبيبك الخاص؟ أو تؤجل سداد فواتير بطاقتك الائتمانية على أمل ألا تنضم إلى المجموعات؟ أو تتوقف عن دفع فواتير الغاز والكهرباء على أمل استمرارك في الحصول على الإنارة والحرارة؟ أو تترك الفوائد تتراكم على القرض الطلابي وقرض السيارة على أمل أن تجد يوماً ما وسيلةً من أجل سدادها؟

تؤكد هذه الإهانات على سؤال أكبر: متى تبدأ الخيارات المستحيلة في تمزيق الناس، أو المجتمع؟

إن التمزيق جارٍ بالفعل، ولا يخفى أنه السبب وراء الحسابات المنزلية التي لا يمكن السيطرة عليها وبقاء الناس مستيقظين ليلاً. ستجد عند مقارنة متوسط الدخل أن الواحد في المئة الأولى تجني واحداً وثمانين ضعفاً ما يجنيه أولئك الخمسون في المئة السفلية. لم تتغير عائدات البالغين الأميركيين – قرابة مئة وسبعة عشر مليوناً منهم – في النصف السفلي من سلم الدخل منذ سبعينيات القرن العشرين.

إن هذا صدع بين الأجور، وليس فجوةً. ويدفع الجميع ثمن هذا الصدع المتزايد.

قال الكاتب الراحل ستيفن غاي غولد: «أنا لا أهتم كثيراً، بطريقة ما، بوزن دماغ آينشتاين وتلافيفه مقارنةً بوجود أناس ذوي مواهب تماثل موهبته تقريباً، عاشوا في حقول القطن والمصانع التي تستغل العمال، وتوفوا فيها». يجعل الانقسام الطبقي المتعمق الانتقال الاجتماعي شبه مستحيل، والنتيجة هي نظام طبقات على أرض الواقع. إن هذا خطأ جسيم أخلاقياً ومدمر جداً، حيث يساهم حرمان قطاعات واسعة من السكان من الحصول على فرص في القضاء على احتياطي هائل من المواهب والقوى العقلية، فضلاً عن تثبيط النمو الاقتصادي.

إن معامل جيني هو المقياس الأكثر قبولاً على نطاق واسع والذي يحسب تباين الدخل الاجتماعي، وهو معادلة عمرها قرن من الزمن. إنه معيار ذهبي يهم خبراء الاقتصاد في جميع أنحاء العالم، إلى جوار البنك الدولي، ووكالة الاستخبارات المركزية، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية الموجودة في باريس. إن الأمور التي تنكشف مدهشة، إذ تمتلك الولايات المتحدة تبايناً اجتماعياً يمكن مقارنته مع نظيره في روسيا، والصين، والأرجنتين، وجمهورية الكونغو الديمقراطية التي مزّقتها الحرب.

يحتمل أن يسوء الوضع أكثر، ويجعلني ذلك أتساءل: *كم من التحريفات – أو حتى الطفرات – في النظام الاجتماعي ستظهر في السنوات القادمة؟ كم من الناس سيسحقهم النظام؟ وكم منهم سيجد مهرباً؟*

***

كانت قد مضت أيام قليلة على لقائنا للمرة الأولى عندما لاحظت ليندا أنني أضع خاتماً في شكل أخطبوط في يدي اليمنى. قالت متعجبةً: «هل سبق ورأيت أخطبوطاً في مختبر، ولاحظت ذكاءه؟ إن الأخطبوطات بارعة في الهروب!».

أخبرتني ليندا عن مقطع فيديو شاهدته عبر الإنترنت: «كان الأخطبوط وحيداً في الخزان الأول الكبير، والطعام في الخزان الآخر. حشر نفسه في أنبوب وخرج في الخزان الآخر. تلا ذلك عدد من التجارب التي تزداد صعوبتها أكثر فأكثر، حيث وجب عليه مرةً أن يفتح باب الخزان قبل أن يدخل إلى الأنبوب».

لقد خرج بغض النظر عن العائق.

خطرت فكرة في ذهني: «يمكن أن يكون الناس مثله أحياناً».

ضحكت ليندا وقالت: «سيحدث ذلك إن حبستنا في صندوق».

لقد فكّرت في تلك المحادثة كثيراً عندما ربطت ليندا مقطع فيديو جديد إلى صفحتها على فيسبوك، يظهر فيه أخطبوط يجول في قاع المحيط. كان يمشي بطريقة غريبة، وسأل أحدهم في تعليق عن سبب حمل الأخطبوط نصفي ثمرة جوز الهند فارغة. قفز فجأة إلى داخلها، وجذب النصفين إلى جسده، وتابع رحلته متدحرجاً وكأنه كرة بولينغ ذات مجسات.

لقد ابتكر الأخطبوط أداةً من أجل النقل والحماية – نوع من المنازل المتنقلة في هيئة جوز الهند. صوّر غواص في إندونيسيا مقطع الفيديو ذاك. قالت ليندا في أحد تعليقاتها: «إنه الأخطبوط الأذكى والأكثر لطفاً على الإطلاق».

***

مجدّداً، عادت ليندا إلى الترحال، تركت وظيفتها الموسمية في مستودع أمازون في كامبيلسفيل في كنتاكي، وبدأت رحلتها غرباً وحدها هذه المرة، حيث بقي غاري في العمل فترةً أطول، وجرت خلفها عربة سكويز إن خلال أيام الشتاء القصيرة ولياليه الطويلة المظلمة.

اتجهت في البداية إلى تاوس في نيو مكسيكو، حيث خطّطت من أجل زيارة سفينة الأرض المفضلة لديها، النوتليوس، واستشارة مهندس معماري حول تكييف التصميم مع احتياجاتها. بعد ذلك، ستتابع طريقها إلى ملتقى ساكني العربات، ثم ستقود عربتها إلى الصحراء قرب مدينة دوغلاس في أريزونا، كي تلقي نظرةً على الأرض التي تمثل مستقبلها.

لمع ضوء في لوحة إعدادات سيارة الجيب بعد الخروج من تاوس، مشيراً إلى وجوب «فحص المحرك». لقد سمعت عن وجود عواصف ثلجيةً تقترب من المنطقة. أعادت ليندا ترتيب أوراق رحلتها كي تتجنب كوارث الطقس السيئ خلال القيادة عبر الجبال، وقررت الذهاب إلى دوغلاس مباشرةً.

وصلت من دون وقوع حادث. خيّمت في الليلة الأولى في موقف سيارات سيفواي المهجورة، رغم انخفاض درجات الحرارة دون الصفر قبل الفجر. في اليوم التالي، وجدت في أرض المعارض شمال المدينة موقف عربات يقدم تخفيضات. يقيم زوج من مونتانا في البقعة التي تجاورها، كانا يسكنان في مقطورة أيرستريم متآكلة بطول سبع عشرة قدماً، والتي شهدت أياماً أفضل. أخبرتهما ليندا عن مشروع سفينة الأرض خاصتها، وأرتهما المجلد ذا الثلاث حلقات والمليء بالخطط.

في اليوم التالي، تحدثنا على الهاتف، وأخبرتني أنه، وبصرف النظر عن تخليها عن خطة زيارة تاوس، فقد كانت رحلة عودتها من كنتاكي خالية من العوائق، قالت لي: «لقد كان الطقس مثالياً. صادفت ثلاث قطرات من المطر فقط طيلة الوقت». استغرقت الرحلة ثلاثة أيام فحسب. كانت تركن عربتها في موقف الترفيه الآن، وتدفع خمسة عشر دولاراً مقابل الليلة. لقد استحمت اليوم؛ حيث اعتمدت خلال رحلتها على مناديل الأطفال المبللة. تنهدت مرتاحةً وقالت لي: «لقد كنت أجلس في مقطورتي، وأستريح».

زارت أرضها ذات الفدادين الخمسة ورأتها في مشهد ثلاثي الأبعاد بعد أن تعرفت إليها للمرة الأولى في الصور على موقع كريغزليست في الربيع الماضي ثم في مقطع فيديو على هاتفها الذكي في الصيف. إن الأرض حقيقية وملموسة، مشت عليها. أقسمت أنها سمعت حفيف أفعى هناك، وقالت: «إنها جميلة».

يبدو أن المستقبل يقترب الآن بشكل عاجل، قالت لي صراحةً: «أنا في السادسة والستين من عمري، وأحتاج أن أنفذ مخططاتي سريعاً هنا، أريد أن أتمكن من الاسترخاء والاستمتاع بوقتي يوماً ما».

انهالت عليّ ليندا بوابل من التفاصيل. أخبرتني أنها اشترت للتو مولداً كهربائياً محمولاً باستطاعة أربعة آلاف واط مقابل ستة وعشرين دولاراً، يعادل ذلك أقل من نصف ثمنه. صاحت ليندا: «يا إلهي، لديّ كهرباء هنا!». سيصدر المولد صوتاً يشبه صوت المكنسة الكهربائية، ولكن لم تمانع ليندا ذلك، حيث إن نتاجه الكهربائي لا يقارن بفتات الكهرباء التي كانت تحصل عليه من لوح شمسي باستطاعة خمسة وأربعين واطاً.

أخبرتني أيضاً أنها عثرت على خدمة توصيل مياه رخيصة الأجر قريباً من أرضها، وتستطيع أن تملأ خزانات كبيرةً منها. (على الرغم من احتواء سفينة الأرض على صهاريج من أجل جمع مياه الأمطار، فقد لا تكفيها، حيث ستحتاجها خلال عملية البناء). تحدثت عن إجراء مسح للأرض، ستحتاج إلى معرفة الارتفاعات قبل تمهيد السواتر الترابية من أجل الزراعة الدائمة، كما ستزور غداً قسم مباني المقاطعة كي تتعرف إلى المعايير التي ستعتمدها – كم يجب أن يبعد البناء عن الطريق – وتفاصيل أخرى حول تقسيم الأرض.

قالت لي: «لقد قرأت بالفعل على موقعهم الإلكتروني أنني أستطيع مسح فدان واحد دون تصريح تصنيف، وهذا جل ما أردت فعله على أية حال».

تخطط ليندا من أجل بدء عملية البناء بعد ملتقى ساكني العربات. وافق غاري على العودة معها إلى الأرض، وكذلك لافون. سيبدؤون معاً في بناء دفيئة من أجل الزراعة العضوية وتوفير الحماية من الغبار وغيره خلال عملية بناء منزلها.

تستطيع ليندا رؤيتها الآن، كما لو أن الصور في مجلدها ذي الحلقات الثلاث استحالت حقيقةً. ها هي سفينة الأرض التي حلمت بها طيلة سنوات، تنبثق من بقعة قاحلة في الصحراء. إنها تبنيها بيديها المثقلتين بالعزم، وبمساعدة أصدقائها الذين أصبحوا عائلتها. ستكون سفينة الأرض ملجأهم عندما ينتهون من بنائها، وسيفعلون ذلك. ستكون منزلاً مفعماً بالحياة مع كل الأنظمة المتجددة التي تخص الطعام، والماء، والكهرباء، والحرارة، والتبريد، ستغدو كائناً حياً يعيش في تناغم مع الصحراء، وسيعمر أكثر منهم.

يبدأ ذلك المستقبل في العام الجديد، الذي لا يفصلنا عنه سوى أسابيع. لقد خططت ليندا من أجل الخطوة الأولى بالفعل: وضع حجر الأساس. وجدت عامل حفارة يتقاضى خمسةً وثلاثين دولاراً في الساعة دون إضافات مقابل الوقود أو السفر. قالت ليندا سعيدةً: «يعمل عداد الوقت من اللحظة التي تطأ فيها مؤخرته مقعد الجرار». لقد تحدثت إليه، وحددت موعداً في شهر كانون الثاني.

أخبرتني أن العملية ستستمر ثماني ساعات كالتالي:

سينظف عامل الحفارة في البداية الطريق الواصل إلى الأرض والذي تغطيه الأعشاب، ثم سيشق طريقاً خاصاً كي أركن سكويز إن.

في النهاية، سيعمل على موقع البناء الرئيسي. ستمتد ذراع الحفارة، وينخفض دلوها، وتنغرس أسنانها المعدنية في الأرض، مراراً وتكراراً؛ ممزقةً كل الشجيرات القاسية، وكل ما تلمسه سيصرخ: الأغصان الملتوية، والصبار

القاسي، والصخرة الكبيرة، حيث إن كل هذه عبارة عن عوائق في طريق مستقبل ليندا، وسيحمل واحدهم تلو الآخر بعيداً.

بعد فترة قصيرة، انتهى العمل، ومشت ليندا بعد مغادرة الحفارة على المساحة الخالية المسطحة التي تركتها خلفها. إن هذه الأرض مستعدة من أجلها الآن؛ فدان واحد مثالي من أجل البناء عليه.

Notes

[1 ←]

في البداية عندما شرعت بكتابة هذا المقال، لم أكن أعرف أنه سيتحول إلى موضوع أكبر، مع ثلاث سنوات من جمع التقارير والمئات من المقابلات.

[2 ←]

في غضون أسابيع قليلة بلغت ليندا الخامسة والستين، ما أدى إلى انخفاض مستحقاتها الضئيلة بالفعل إلى 424 دولاراً وذلك بعد حسم أقساط الرعاية الطبية.

[3 ←]

تصدر بعض هؤلاء العمال عناوين الصحف الوطنية في العام 2010. عندما استبعدت وزارة العمل الأميركية صاحب العمل، غيث غارد سيرفيسس إل بي في كوربس كريستي الذي أخطأ في تصنيفهم كمقاولين مستقلين وليس موظفين، وبالتالي فقد أصبح يدين لهم بـ 2.6 مليون دولار من الأجر المتأخر. لاحقاً، رفض قاضٍ فيدرالي هذا الأمر.

[4 ←]

لم يبدُ أن أحداً يعطي الأولوية للحوافز الحسية، ومع ذلك، «الجزء السفلي من أمازون دوت كوم: المال» اقرأ العنوان الرئيسي لقصة كامب فورس لعام 2014 في أخبار عامل المخيم الذي أجرى مقابلات مع بعض العمال.

[5 ←]

الفقرة 401(ك) من قانون الإيرادات الداخلية لحساب نسبة التقاعد في الولايات المتحدة الأميركية.

[6 ←]

حصلتُ على أول استحمام مجاني في موقف شاحنات بايلوت في كوارتزسايت أريزونا خلال شتاء 2014-15. تركت عربتي وأنا أحمل صابوناً وشامبو وخفاً، ودخلت لأدفع، وربما تعجبت عندما سمعت أنها ستكلف 12 دولاراً. قام سائق شاحنة على يميني باستخدام بطاقة المكافآت الخاصة به، وأخبر أمين الصندوق أنه سيتحمل كلفة استحمامي. قال له أمين الصندوق: «سيدي، أنت تدرك أنه إذا استخدمت بطاقتك الآن، فلن يمكنك استخدامها مرة أخرى لمدة أربع وعشرين ساعة». رفع السائق مرفقيه، واستنشق تحت كل إبط، أولاً يساراً ثم يميناً، وهز كتفيه، وقال: «أوووو، لقد مرّ أسبوع بالفعل».

[7 ←]

عندما حضرت هذا التجمع لأول مرة في عام 2013، كان هناك حوالي ستين مسكناً متنقلاً. بعد أربع سنوات، في عام 2017، كان هناك ما يقدر بخمسمائة مقطورة.

[8←]

شهية أميركا للألعاب الجنسية يُشار إليها بالعدد الهائل من القضبان الاصطناعية وسدادات المؤخرة التي تمر عبر مستودعات أمازون – هو موضوع مُبهرٌ لكثير من العمال. على الرغم أن «حاجيات البالغين» تُلف بقطعة سوداء من البلاستيك فور وصولها إلى أرصفة التحميل، إلّا أن القليل منها كان يَمرّ دون انتباه، تذكرَتْ واحدةٌ من أعضاء كامب فورس التي كانت تعمل كَمُخزِّنةٍ ببهجة، اللحظة التي تلقت فيها صندوقاً يحتوي على ستين قضيباً اصطناعياً قابلاً للتثبيت عن طريق كوبٍ للشفط. رتبتها في الرفوف مع تثبيت كلّ منها على مقدمة الوعاء في كل رف. قالت ضاحكةً. « كانت هذه الأعضاء الذكرية جُلّ ما كنتَ ستَراه عند التفافك في هذه الزاوية، بالطبع، كان على الجميع الالتفاف فيها، فقمت بإخبار الجميع، ‘ألقوا نظرةً على الممر 23C!’». عادة كانت ستقلق من إغضاب الإدارة. لكن « كانت هذه آخر أسابيع عملي في المكان، فماذا سيقولون؟».

[9←]

عندما كتب دون هذا الإيميل، كانت تولوكونيكوفا – عضوة فرقة الروك الروسية المتمردة «بينك بوسي رايوت» – قد حصلت على حريتها من سجن في سيبيريا.

[10←]

إنه ليس أول شخص سيئ الحظ يفكر بتلك الطريقة. أخبر ممثّل الوكالة مراسل قناة تلفاز محلية أن العامل في ملجأ المشردين الأكبر في هاواي، ومؤسسة الخدمات الإنسانية، يتلقى ما يقارب مئةً وخمسين اتصالاً وبريداً إلكترونياً في كل عام «من أشخاص يبحثون حقاً عن سبيل من أجل التشرد في هاواي. ازداد عدد المشردين في السنوات الأخيرة بمقدار أكبر من الثلث وأكثر من ذلك الآن، وقد دفع ذلك الحاكم إلى إعلان حالة طوارئ، ودعا عمدة هونولولو إلى «حرب على التشرد». كانت السياحة في هاواي في السابق تمول مبادرةً من أجل إعادة الأفراد المشردين إلى أوطانهم.

[11←]

أجفل رجل حول نار المخيم في ملتقى ساكني العربات لأنني لم أقرأ كتاب رحلات مع تشارلي؛ جاء في اليوم التالي إلى عربتي وأعارني كتاباً ورقي الغلاف. تضمنت الأعمال الأدبية الأخرى التي تتحدث عن هذه الثقافة: بلو هاي ويز – طرق سريعة زرقاء – بقلم ويليام ليست هيت مون، وديزرت سوليتير – ناسك الصحراء – بقلم إدوارد آبي، وإنتو ذا وايلد – إلى البرية – بقلم جون كراكوير، ووالدن – الحياة في الغابات – بقلم هنري ديفيد ثوريو، ووايلد – البرية – بقلم تشيرلي سترايد.

[12←]

إيتش ترمز إلى حرف H في كلمة HOMELESS